روايات الهلال

# حكايات عادية لملء الوقت

بهيجة حسين

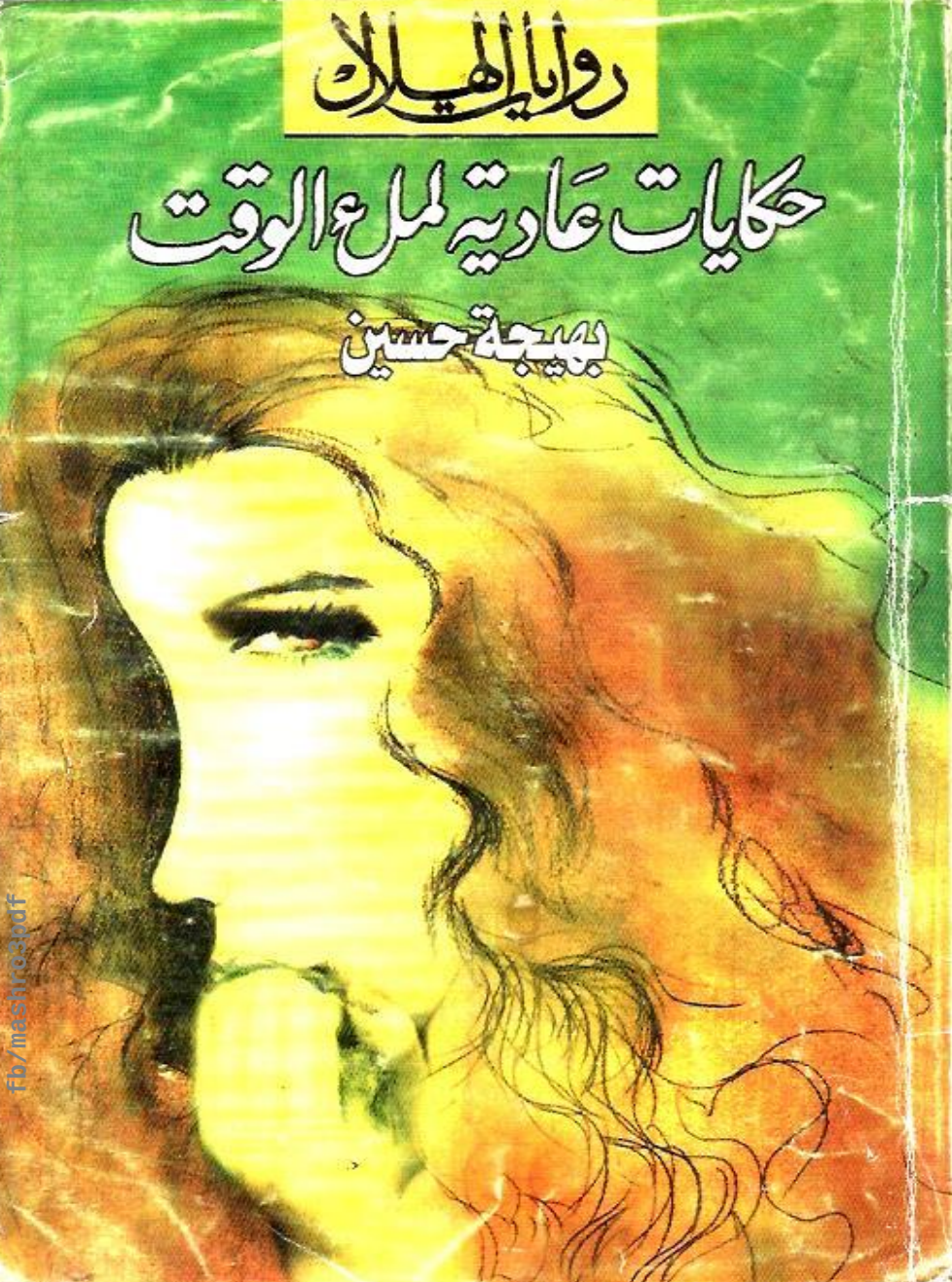

fb/mashro3pdf

# حكايات عادية لملء الوقت

بهيجة حسين

دار الهلال

fb/mashro3pdf

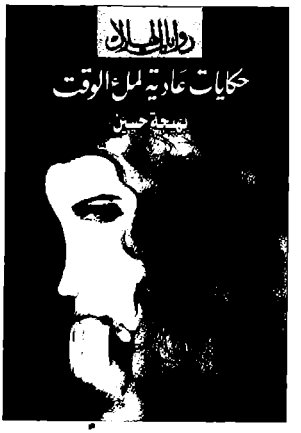


الغلاف للفنانة : **نسرين بهاء**

الخطوط للفنان : **محمد العيسوى**

المتابعة : **ياسر شعبان**

fb/mashro3pdf

فى السابعة مساءً، سحبت حقيبة من أسفل السرير، لأقضى الوقت فى بعثرة وإعادة ترتيب الأشياء التى ظلت أمى تضعها بالحقائب خلال سنوات عمرى.

فمنذ مولدى وهى تشترى الأقمشة، لتصنع منها مفارش مطرزة بخيوط السيرما والايتامين والكانفاه، وتصنع بعضها بخيوط الكروشيه، كما كانت تشترى، أقمشة الملاءات وتقصها وتخيطها وتطرز أطرافها بعد أن تحددها بالركامة أو الساتان، ترسم على الورق موديلات قمصان النوم التى كانت تصممها بنفسها ثم تقصها وتخيطها وتكويها وتضعها مرتبة فى الحقائب، حتى الملابس الداخلية كانت تشترى منها أشكالاً وألوانًا، بعضها سادة وبعضها منقوش وبعضها مرسوم عليه أوضاع جنسية أو مكتوب عليه بالخيوط أيام الأسبوع.

وكنت أنا وهى نستمتع بسحب الحقائب الموجودة أسفل السرير وإنزال الأخرى من فوق الدولاب، وإخراج ما بها وفرده على السرير أو على الأرض، ومع كل قطعة تخرج تحكى أمى حكايتها: من أين اشترتها وكم استغرقت من الوقت فى تفصيلها وخياطتها، وأحيانًا كنت أحب أن أرتدى قطعاً منها، وبعضها كان قد ضاق بالضرورة، لأن جسدى لم يعد هو جسد الشابة التى كنتها، ثم نُعيد كل قطعة إلى مكانها بنظام وترتيب.

●●●



fb/mashro3pdf

واليوم عندما فتحت الحقيبة الأولى كان هدفى ملء الوقت، ولم أكن أتصور أننى سأجد أقمشتى منخورة ومثقوبة، توشك أن تذوب بين أصابعي، أعدت أشيائى هذه المرة بلا نظام إلى الحقيبة، وأغلقتها على ما بها ودسستها أسفل السرير بجوار بقية الحقائب المغلقة.

واستسلمت أو ابتلعت بشكل واضح حقيقة أن الوقت قد مضى، وأننى لن أرتدى ملابس جهاز عرسي، ولن أفرش المفارش، ولن أعلق الستائر على النوافذ والبلكونات، ولا اللوحات الجوبلان والإيتامين والكانڤاه على الحوائط.

لوحة «الكوخ» فى وسط الغابة ولوحة «روميو وهو يعزف لچولييت» لحجرة الصالون، «وسلة الفاكهة» لحجرة السفرة، و«باقة الورد» للصالة، و«المرأة العارية» لحجرة النوم، وكلها كانت معدة لأن تعلق على حوائط غرف فى بيت مفترض أنه سيكون بيت زواجي.

لم أتخذ قرارا بشأن حقائب جهازى الذى أكلته العتة، ولم أسأل نفسى ماذا سأفعل بهذه الحقائب الممتلئة بالأقمشة والعتة. جلست على المقعد الذى اعتدت الجلوس عليه فى صالة البيت، والسؤال الذى حاصرني، وتمدد ليملأ فراغ البيت والأيام القادمة هو: ماذا سأفعل فى الوقت الممتد من بعد عودتى من عملى وحتى يومى التالي، أو تحديداً ماذا سأفعل فى نصف اليوم الثاني، فنصفه الأول الذى يبدأ فى السابعة صباحًا وحتى الخامسة مساءً هو وقت العمل العادي، ما أقصده هو ماذا سأفعل فيما سيتبقى بعد عودتى إلى البيت فى الخامسة مساءً وبشكل أدق بعد استيقاظى من ساعة نومى اليومية، فى السابعة مساءً.

خرجت ساعات الليل أمامى ووقفت كالشبح، جبل لا يمكن إزاحته، يكبر الجبل ويرتفع، ويضغط الوقت عليَّ، ويحاصرنى بسؤال بلا إجابة: متى يطلع النهار ؟ وأسأل وأنا أعرف أن لساعات الليل حركة محددة تسير وفقًا لها



fb/mashro3pdf

بلا زيادة أو نقصان، سأظل غارقة فى مراقبة حركة دقائقها، عاجزةً عن دفعها ولا ثانية واحدة للأمام.

الواحدة بعد منتصف الليل هى أثقل الساعات، فهى الجسر الطويل المظلم بين نهاية يوم وبداية يوم جديد، ساعة تسلمنى لأخرى أعيشها ثانية بثانية وكأنها خطوات عبورى على جسر الوقت، حتى أصل للرابعة صباحًا، لتهدأ خطواتى وتقل وطأة الوقت الثقيلة، عندما يبدأ الليل فى الرحيل وعقارب الساعة تتحرك نحو الخامسة. وفى ثوانٍ ودقائق نصف الساعة التى تبدأ من الرابعة والنصف وتصلنى حركة بداية اليوم الجديد، فأهدأ وأنام على صوت الأقدام فى الشارع، أقدام ذاهب لصلاة الفجر أو عائد منها، وقد سبقها إعداد الميكروفون أو خروشته لينطلق صوت الأذان، وأنام مستغرقة حتى السابعة صباحًا.

●●●

وأنا أدفع بحقيبة جهازى أسفل السرير بجوار بقية الحقائب، ظهروا كالأطياف أمامى هؤلاء الذين عشت أسمع حكاياتهم وأسير خلفهم كأننى أسير خلف نداهة، عشت أسمع أصواتهم داخلي، أقبض على ملامحهم حتى لا تفلت منى أو تنمحى من ذاكرتى سواء من رأيتهم أو من رسمت وجوههم من خلال الحكايات التى سمعتها عنهم.

ملأوا فراغ البيت، بتفاصيل حياتهم، ووضعوا أمامى مصائرهم، فى حكايات أشعر أننى عشتها منذ اللحظة التى وضعتنى فيها الداية بين يدى خالتى «ملك» ابنة خالة أمى وصديقتها الأقرب إلى قلبها.

●●●



fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

# خالتى ملك

يدا خالتى «ملك» هى أول يدين تحتضنان جسدى الصغير اللزق بالدم وببقايا ما كنت أحيا فيه وأنا فى بطن أمي. ومع صرختي الأولى وأنا بين يديها شهقت وهى تتطلع لما بين فخذى وقالت لأمي: «قومى يا ختى دى بنت إلهى تتبنى فى حيطه».

وبيديها وضعتنى فى طشت الماء الساخن ودلكتنى بالصابونة وأنا أصرخ وهى ترد على صراخى قائلة: «لأ وليها عين تصرخ أمال لو كانت ولد كانت عملت فينا إيه».

أخرجتنى من الطشت ولفتنى فى بشكير جديد، ووضعتنى أسفل قدمى أمى التى كانت بين يدى الداية تضغط على بطنها لتخرج منه بقايا ما كنت أحيا فيه داخلها.

تركت خالتى «ملك» أمى بين يدى الداية وأحضرت فستانى الأول، هى التى اشترت قماشه وفصلته وطرزته، ففى الشهر الثامن لحمل أمى سافرت إلى الزقازيق والمنصورة واشترت كل ملابسي. اشترت قماش «البيكة» و«اللينوه» وبكر الخيط والإبر لتطرز الفساتين، واشترت الكوافيل والشايات والقمط والبودرة التلك، واشترت لأمى قميصين أحدهما لونه بمبى والآخر لبني، وقد وضعت أمى ملابس مولدى فى حقيبة منفصلة مازالت موجودة فى بيتنا ببلدتنا حتى الآن ومازالت بحالتها لم تأكل العتة خيطًا واحدًا من



fb/mashro3pdf

خيوطها.

فكت خالتى «ملك» البشكير وبدَّرت بين وركى بالبودرة التلك وألبستنى الكافولة وربطتها بالقماط حول وسطى ثم ألبستنى الشاية وربطتها من الخلف ثم ألبستنى الفستان، ولفتنى بالكوفيرته اللبني، وقد اشترتها لبنى لأنها تمنت أن أكون ولدا، وكما هو معتاد اللون اللبنى لملابس المولود الولد والبمبى لملابس البنت. وكانت قد أقسمت لأمى إنها سوف «تولع» فى الهدوم إذا جاء المولود بنتا.

وضعتنى على سرير مجاور، وبللت طرف البشكير ومررت عليه الصابونة، ومسحت به وجه أمى وخلف أذنيها ورقبتها وصدرها وتحت إبطيها، ورفعتها حتى تسحب «أم السعد» «الداية» من تحتها المشمع المفروش فوق ملاءة السرير، والذى أقسمت «أم السعد» لأمى أن قبلها لم تلد عليه امرأة، ثم وضعت خلف ظهرها مخدة، وخلعت عنها قميصها وألبستها القميص الجديد، وأمسكت بطرف ملاءة سرير والطرف الآخر أمسكته أم السعد ولفتاها حول بطنها بقوة حتى تعود إلى وضعها الطبيعى ولا تترهل. مشطت لها شعرها ورفعته بمشبك شعر، ثم بللت يديها بكولونيا ماء لافندر ومسحت وجهها ورقبتها وصدرها، وأخرجت ثدييها ومسحت الحلمتين بقطنة مبلولة بالماء وقالت وهى تضعنى بين يدى أمي: «ياللا يا عفاف رضعى البت، شوفى يا ختى عمالة تحرك بقها يمين وشمال ازاى بتدور على البز يا ختى محدش عبيط».

أخرجت جدتى و«مبروكة» الشغالة الطشت وحلة الماء السخن والمشمع وخرق القماش والفوط والبشاكير وخرجت معها «أم السعد» لتأخذ حلاوة مولدى من جدى وأخوالي، وخرجت خلفهما خالتى «ملك» تسبقها الزغاريد



fb/mashro3pdf

إلى المطبخ.

بطرف الملعقة تأكدت خالتى «ملَك» أن الحلبة الحصى فى الحلة «استوت»، ملأت منها كوبا كبيرا مستقرة فى قاعه بذور الحلبة وحلتها بملعقتى عسل أسود، وقالت لجدتى قبل أن تدخل لأمى بكوب الحلبة: «ياللا يا خاله خلى «مبروكة» تشهل، انتو لسه ما دبحتوش الفراخ ؟ ياللا يا «مبروكة» ستك عفاف بطنها فضيت يا بت ولما بطن الوالدة تفضى تحط مطرح المولود إيه ؟ فرخة يا بت صحصحى معايا، ويااللا على ما تشرب شوية الحلبة دول حطى خمس بيضات فى الحلة واسلقيهم، ولما يتسلقوا حمريهم فى حتة زبدة ورشى عليهم شوية ملح وفلفل وهاتيهم لستك عفاف.

– خمس بيضات يا ست «ملك» هى ستى عفاف حتاكل خمس بيضات ؟

– خمسة وخميسة فى عينك يا بت وأنت مالك اعملى اللى بقولك عليه خمسة يا بت خمسة.

كانت ذكريات أمى مع يوم مولدى حكايتها المفضلة التى تحكيها بنفس تفاصيلها فى كل مرة، وتحكيها معها خالتى «ملك» وتضحكان فى كل مرة حتى تدمع عيونهما من فزع «مبروكة» وخالتى ملك تفرد فى وجهها أصابع يدها الخمسة وتقول لها: «خمسة يا بت خمسة» و«مبروكة» تقول: «هو فى إيه يا ستى ملك هو أنا حاحسد ستى عفاف» وظلت تردد جملتها شاكية لكل من فى البيت.

ومن كثرة حكيها لتفاصيل يوم مولدى أشعر أننى وعيت بكل تفاصيل هذا اليوم حتى أننى أشم رائحة الحلبة والمغات والبيض المقلى فى السمن، ورائحة الخبيز، وشوربة الدجاج المحشوة بالأرز المخلوط بالسمن والبصل المبشور ورائحة الدجاج المحمر فى السمن. كما أكاد أسمع غناء وزغاريد



fb/mashro3pdf

يوم سبوعى الذى يصفانه بأنه كان «ولا يوم الفرح» ومازال فى بيتنا فى البلد بعض من علب الملبس الصغيرة التى وزعت، ومازالت الصينية النحاس موجودة التى نقعوا فيها الحبوب السبعة و«القلة» التى أشعلوا فيها الشموع، كل شمعة باسم والتى انطفأت كلها ولم تبق مشتعلة سوى الشمعة التى حملت اسمي: «مها».

●●●

عادت خالتى ملك بعد «سبوعي» إلى العزبة التى عاشت فيها بعد زواجها من الحاج «حسين».

الحاج حسين الفلاح الذى ورغم ثرائه يزرع الأرض ويعزقها بيديه. ويقول لخالتى ملك عندما تطلب منه أن يترك أمرْ الأرض للفلاحين: «مقدرش أبعد عنها، الأرض بتحس بصاحبها زى البنى آدم أنا لو ما رويتش زرعتى بنفسى بحس إنها مشربتش وإنها عطشانة، ولو اتحرمت من صوت ضربة الفاس فى أرضى يمكن يجرى لى حاجة».

كان لغزا بالنسبة لى هذا الطيب الحنون قصير القامة الذى يرتدى جلبابا وطاقية فوق رأسه تنزل حتى منتصف جبهته تعلو قليلا فوق حاجبين كثيفين وملتصقين ببعضهما، وكانت يداه كبيرتان وخشنتان وأصابعهما قصيرة وغليظة، وأيضا قدماه كانتا كبيرتين وكعبيهما مشققتين وجلدهما سميكًا ولونه أقرب للبنى الغامق يظهران من «البلغة» التى لا يحتمل - كما كان يقول- غيرها فى قدميه، فلم تفلح محاولات خالتى «ملك» لإجباره على



fb/mashro3pdf

ارتداء الحذاء، وإن كانت قد نجحت فى إقناعه بارتداء الحذاء فى سفرياته إلى القاهرة والإسكندرية المتعلقة بتجارته.

فيضع الحذاء فى حقيبة السفر ويرتديه فى محطة القطار، ويخلعه بمجرد ركوبه قطار العودة وكان يقول لها: «الجزمة بتخنقنى والشراب بيحبس الدم فى عروقى».

●●●

بدأت علامات الاستفهام تتشكل حول خالتى «ملك» مع دهشة طفلة تتعرف من خلال صور قديمة على واحدة أخرى غير التى تراها وتجلس فى حجرها وتشم فى صدرها رائحة العجين الخامر.

كانت أمى فى ليالى الشتاء ونحن جالستان تحت الأغطية نشرب السحلب أو الحلبة المحوجة أو القرفة باللبن تخرج من الدولاب حقيبة الصور القديمة مأخوذة بحالة حنين بلا موعد للزمن الذى توقف فى صورة. وتغيب أمى مع الصور فى صمت طويل لا يقطعه سوى تنهيدة أو جملة ناقصة لا ألتقط كل كلماتها، ولكننى ألتقط الصور التى تفلت من بين أصابعها والتى تضعها بجوارها بعد طول تأمل وبعد أن تقطع حوارها الداخلى معها. وكان أول الأسئلة عن طفلة جميلة تتدلى ضفيرتاها على صدرها وكانت الإجابة أن الطفلة هى خالتى «ملك» فى صور طفولتها، وفى صور شبابها تصبح الطفلة فتاة فاتنة تقف مشدودة بجسدها الملفوف المشوق، يتهدل شعرها على كتفيها، تسقط منه خصلة تأخذ شكل الهلال على جبهتها، وحاجباها لهما أيضا شكل الهلال فوق عينيها الواسعتين السوداوين، وشفتاها



fb/mashro3pdf

مطليتان ودائمًا مفتوحتان فتحة ضيقة تحمل ابتسامة هادئة، ويتنوع ما ترتديه فى الصور ما بين فساتين وبلوزات وكلها مفتوحة الصدر ويتدلى من عنقها حلى لولى وذهب، وتتنوع الأماكن فبعضها فى حديقة بيت أبيها بين أشجار الورد مرة وهى واقفة ممسكة بغصن شجرة، ومرة وهى تمسك فى يدها بوردة، ومرة وهى تقطف الورد، وبعضها وهى تجلس تحت تكعيبة العنب، وتظهر فى معصمها أساور بشكل الثعبان الملفوف أو جنيهات ذهب ودائمًا وفى كل الصور ترتدى فساتين أو «جونلات» ضيقة فى منتصف الركبة وواسعة طويلة وفى قدميها أحذية بكعوب عالية ورفيعة، وأيضًا فى كل الصور يظهر خصرها مضغوطًا بحزام عريض. صور مثل صور الممثلات فى مجلات أمى القديمة. وبين الصور أيضًا صور وهى مع مدرساتها فى المدرسة القديمة التى مازال مبناها موجودًا فى بلدتنا، مبنى مغلق ومهجور، كان قصرًا قديمًا يتنازع ورثته مع الأوقاف على ملكيته أمام المحاكم منذ أكثر من خمسين عامًا.

كان سؤالى المحمل بدهشتى هو: «لماذا تغيرت خالتى ملك بهذا الشكل فأنا لم أرها ترتدى سوى الثوب الملس والطرحة، ولا تضع فى قدميها سوى كتنله، وشراب أسود سميك فى الشتاء».

ترد أمى بحسرة لم أدركها ولم أشعر بطعمها إلا الآن وأنا أسكب ذاكرتى على الوقت: «محدش فى البلد لبس ولا اتدلع ولا اتفسح زى خالتك ملك، احنا دخلنا المدرسة على حسها، لما اتفتحت المدرسة كانت أول واحدة يتقيد اسمها فيها، كنا ست بنات أنا وخالتك ملك وخالتك روحية وبنت مأمور المركز وبنت مهندس الرى وبنت حكيم باشا الصحة، خالتك ملك كانت ملكة فى بيت أبيها بس هى اتغيرت لما اتجوزت وانشغلت بالعيال والأرض».



fb/mashro3pdf

وأسألها لماذا تزوجت خالتى ملك الحاج حسين وهو فلاح ؟ ترد: «النصيب يا مها».

ويقف الكلام عند كلمة «النصيب» التى لم أكن أفهم معناها وأشعر بعد أن تنطق بها أمى أنها لحائط ضخم يقف فى وجه الناس لا يستطيعون عبوره أو الالتفاف حوله. ويقف الكلام وتغيب أمى مع الصور، ولا تجيب عن سؤالى الدائم الذى توقفت عن طرحه بعد أن أدركت أنها تهرب من الإجابة، كنت أسأل عن شخص مقصوص فى بعض الصور وكانت تجيب بـ«مش فاكرة يا مها دى صور من قبل ما تتولدى أنا حافتكر إيه ولا إيه».

تدعى أمى النسيان كلما أرادت أن تهرب من الإجابة عن أسئلتى أدركت ذلك لما كبرت وكنت أصدق نسيانها وأنا طفلة، ولكننى كنت أشعر أن «مش فاكرة أو نسيت» تلك متاهة واسعة بلا نهاية تلقينى فيها أمى وتتركنى تائهة. كنت أكره النسيان، ومازلت أكرهه، وأكره ادعاءه، ولا أثق أن النسيان حقيقة يعيشها الناس. كيف ينسون ما عاشوه وشاركوا فيه بأنفسهم، وبأجسادهم وعقولهم وأرواحهم إنه وسيلة للهروب أو الكذب.

كبرت واستمر ارتباطى بصور أمى القديمة، وظلت خالتى «ملك» لغزاً كبيراً بالنسبة لى انشغلت - رغم طفولتي- كثيراً بحلة واستكمال حلقاته المفقودة وملأ فراغاً يتركه الكلام المغطي والمبتور، وتجميع أجزاء الصور المقطعة. لا أنكر أن الأسئلة الملحة التى كانت تضغط عليَّ، كانت تختفى أيضًا لتظل خالتى «ملك» هى التى عرفتها، كما هي. تهتم كثيراً بالفلوس والذهب والأرض الجديدة التى لا تتوقف عن شرائها قراريط، وأفدنة، والتى لا تنسى أبداً أن تدس فى كلامها الشكر لله لأنه أكرمها بعدم إنجاب البنات. فقد أنجبت خمسة ذكور، مرت أيامهم وأيامى وهم الآن ثلاثة



fb/mashro3pdf

مهندسين وطبيبان.

ومات أمي رحلتها الحاج حسين تاركًا أرضًا ومالاً وتجارة بين يديها، وقد وضعت قانونًا واضحًا للثروة التي تركها في جمل واضحة قالتها لأمي مازلت أتذكرها وأتذكر قوتها وهي تقول: «الحاج حسين ترك كل ما يملك لي، كل شيء كتبه قبل موته بيع وشراء باسمي، طبعًا الأولاد لهم ميراث لكن طول ما أنا عايشه حتفضل كل حاجة ملكي، ويبقوا ياخدوا مالهم وأرضهم بعد موتي، أنا لا يمكن أقطّع الأرض وأوزعها عليهم علشان يبيعوها ويضيعوها على النسوان، لا يا عفاف طول ما أنا عايشه كل شيء حيفضل تحت ايدى ده تعبي وشقايا، أنا تعبت واشتغلت ايدى بأيد الحاج حسين، وأنتي عارفه وكل الناس عارفه أنا تعبت قد إيه، علشان أوسع تجارته وأكبر أرضه، ولا يمكن ييجي حد ياخد شقايا على الجاهز، كل واحد منهم له عندى شبكة عروسته وشقته بفرشها في العمارة اللي أنا بنيتها لهم في البلد هنا، والدكتور له عيادة والمهندس له مكتب، ولكل واحد مبلغ يوصله كل أول شهر، وموسم مع كل زرعة، وأنا مش حاسيبهم أبدًا كل اللي يحتاج حاجة ييجي يطلبها، لكن أقطع الأرض وأبعزق الفلوس على حياة عيني لا .. لا يمكن يحصل أبدًا».

حاولت وأنا أسمعها تقول ما قالته لأمي أن أجد شبهًا بينها وبين تلك الموجودة في صور أمي القديمة فلم أجد علاقة بينهما. ومازلت مصابة بالدهشة وغير قادرة على فهم حدود التغيير الذي يصيب الإنسان في مراحل حياته. وما هو السر وراء تحول تلك الجميلة الناعمة الراقية الأنيقة في صور أمي إلى تلك القاسية والتي تظهر في أشد حالات القسوة التي تكسو ملامح وجهها ونبرات صوتها وهي تتحدث عن شخص غائب تصفه



fb/mashro3pdf

بالكلب، ودائمًا يسبق حديثها هذه الصفة التى لا تلحق بها اسمه أبدًا فهى لم تخطئ مرة واحدة وتذكر اسمه. جملاً محددة لم أنسها ولم أنس وقعها عليها وعليَّ وهى تنطقها: «الكلب لما عمل عملته» و«بيقولوا الكلب عيان ومتأخر» تعرف أمى من المقصود بالكلب فهو شخص موجود بالنسبة لهما وأصبح موجودًا بالنسبة لي، الفرق أنهما تعرفان من هو، أما أنا فلا أعرفه.

ولما كبرت قليلاً سألت أمى: «من الكلب الذى تقصده خالتى ملك ؟» فقالت بحزم: «البنت المؤدبة لا تسأل عن كلام الكبار ولا تتدخل فى أحاديثهم». ولم أسأل عن كلام الكبار رغم شغفى الشديد بأن أعرف حكايات وكلام الكبار.

●●●

ليلة طويلة تلك التى اكتملت فيها الصورة وتجمعت أجزاؤها المقطعة، وظهرت الحلقات المفقودة فى الحكاية.

كنت قد أنهيت امتحانات عامى الدراسى الأول بالجامعة، وأنهت أمى أعمال الامتحانات فى مدرستها وظهرت النتائج، وعدنا من القاهرة لقضاء إجازتنا الصيفية فى قريتنا. وكعادتها فى الإجازات الدراسية أتت خالتى «ملك» من العزبة، قضت معنا عدة أيام ثم عادت للعزبة ليوم واحد وفى اليوم التالى استيقظت من نومى لتخبرنى أمى أن خالتى ملك نائمة فى حجرتها وطلبت ألا نوقظها وأن نتركها نائمة «حتى لو نامت أسبوعًا»، كما قالت.

مر اليوم بتفاصيله المعتادة كغيره من الأيام، وفى منتصف الليل تقريبًا تركتنى أمى ودخلت حجرتها لتنام، وبقيت أنا جالسة فى الڤراندا المطلة على



fb/mashro3pdf

الحوش والمدخل الذى خططت أمى أن يكون جنينة، اختصرت إلى عدة أشجار كبرت مع الزمن وارتفعت عن السور المحيط بالبيت.

سمعت حركة فى الداخل فأدركت أن خالتى «ملك» استيقظت من نومها، جرت قدميها وجسدها المثقل ببقايا نوم طويل متوجهة إلى الحمام. ظللت جالسة أنتظرها على أحد مقاعد الأنتريه الأسيوطى الذى تضعه أمى فى القراندا. ولما تأخرت ذهبت للحمام فسمعت صوت المياه ينساب بقوة. خبطت على الباب فنادت لى: «ادخلى يا مها».

- أدخل ليه فيه حاجة ؟

- لا تعالى ليِّفى ضهرى.

فاجأنى بخار الماء الذى ملأ الحمام وقد اختلطت به رائحة الشامبو والصابون.

- ليه مزودة المية السخنة كده والجو حر أصلاً ؟

- عايزه أنضف جسمى.

جلست القرفصاء فى البانيو لتمكننى من دعك ظهرها وكانت تردد بصوت منخفض: «جامد عايزة جلدى يطلع».

أنهيت مهمتى وخرجت وأنا أتصبب عرقًا وطلبت منها أن تسرع، فطلبت منى أن أنتظرها وألا أنام.

عدت للقراندا وجلست على نفس المقعد بجوار السور أتطلع للضوء القادم من داخل البيت. ملأ جسدها العارى عيناي، ذلك الجسد الذى رأيته كثيرًا عاريًا فى طفولتي، ونحن نستحم معًا فى بيتها فى العزبة، أو فى بيتنا فى البلد، حتى فصلتنى عن طفولتى سنوات أصبحت أخجل فيها من تعرية جسدي، ورؤية الأجساد العارية.



fb/mashro3pdf

مـازلت أذكـر جـسـدهـا والماء ينسكب عليـه ورغـاوى الصـابـون تغطيـه، وشـعـرهـا الأسـود الكـثـيف يصل لما يقـتـرب من منـتـصف ظـهـرهـا. جـسـد متماسك وممتلئ وقوي.

سمعت خطواتها قادمة من الحمام، دخلت حجرتي وغابت بعض الوقت، ثم جاءت للڤراندا تسبقها رائحة عطر، أتت مرتدية قميص نوم خفيفًا التصق على جسدها بقطرات الماء المتساقطة من شعرها.

جلست على الكنبـة وأطلقت زفـرة من صـدرهـا وقـالت: «قـومـى يا مـهـا حضرى صينية القهوة وتعالى نشرب فنجانى قهوة مع بعض».

ذهبت للمطبخ وعدت بالصينية النحاس عليها السبرتاية والكنكة وزجاجة مياه وعلبة السكر وعلبة البن وعلبة الكبريت، وضعت الصينية على الترابيزة. وتأملت وجـهـهـا الذى كـان يلمـع تحت ضـوء القـمـر، ورغم أنهـا من المرات النادرة التى كـحلت فيـها عينيـها فإن الكحل لم يخفف طيف الأسى الراقد فيـهما، ورغم بعض المساحيق التى وضـعـتـها على وجـهـها فإن طيف قسوة غطى وجهها وجبهتها المقطبة، ظهر فى خطوط بارزة أعلى أنفها الذى كان يرتعش.

دون أن تفرد وجـهها أو تتبدل ملامـحها وضعت البن والسكر فى الكنكة وخلطتـهما بالملعقة معًا، ثم وضـعت الماء وأشعلت السبرتاية، تركت الكنكة على الصينية، وكأنهـا تمثـال لا يتـحـرك، غـابت لحظات تتـأمل فـيـهـا النار المشتعلة المتأرجحة بألوانها القرمزية فى الفتيل، وبعد مرور وقت – شعرت به طويلاً جدًا– وضعت الكنكة فوق النار. وظلت بوجـه لا يتحرك ولا تتبدل ملامحـه ولا خطوطه، وبعينين ثابتـتين متـوقـفتين عن الحـركة تتـأمل شـعلة السبرتاية أسفل الكنكة حتى بدأت القـهـوة ترتفع إلى أن وصلت إلى حلق



fb/mashro3pdf

الكنكة فرفعتها من فوق السبرتاية ووضعتها بحركة هادئة وآلية على الصينية وأمسكت بين أصابعها غطاء السبرتاية وظلت تحملق في النار حتى نبهتها لأن تضع الغطاء، فوضعته وهي تتنفس تنفساً طويلاً وحاراً.

أخرجت علبة السجائر المحشورة بين فخذها ومسند الكنبة وقدمت لي سيجارة لأدخنها مع القهوة، فاجأتني وأربكتني فلم أكن أتصور أنها وأمي تعرفان أنني أدخن.

بدأت علاقتي بالتدخين، بنفس وأنا أولع سيجارة لإحداهما، نفس كان يصيبني بالدوار والغثيان، ثم تطورت العلاقة إلى سيجارة كل فترة كنت آخذها من علبة أمي وأدخنها في غيابها، وفي الجامعة اشتريت أول علبة سجائر من مصروفي.

وقبل أن أنكر أنني أدخن أشعلت السيجارة وقدمتها لي مشتعلة، وقالت إنها وفي هذه الليلة بالتحديد تريد أن يشاركها أحد تدخين السجائر.

أخذت نفساً من السيجارة ورشفة من فنجان القهوة وظلت صامتة، وأنا أتابع دوائر الدخان الخارجة من أنفها بكثافة وتلك الخارجة مع زفراتها من فمها، ومن دوائر الدخان خرجت صور كثيرة كانت أبرزها صورة زوجها الحاج «حسين» بجلبابه القصير الذي تظهر منه البلغة وكعباه المشققتان، ويداه الممتلئتان وأصابعه الغليظة وسواد أظافره ما بين الجلد والظفر، خرج الحاج حسين من بين دوائر الدخان بطاقيته المكبوسة على رأسه حتى منتصف جبهته قريبة من حاجبيه شديدي الكثافة، أسفلهما عينان جفونهما مرتخيتان بفعل التهاب دائم لا يشفى ولا يتفاقم، التهاب أصبح جزءاً من عينيه.

خرج من دوائر الدخان صوته المنخفض الذي لم يعلُ أبداً، يتكلم وعيناه



fb/mashro3pdf

منكستان فى الأرض، ويتكسر صوته وتتكسر الكلمات على شفتيه ويرق عندما يأتى ذكر «الست ملك» كما يناديها أو يذكرها فى غيابها، محملا كلامه عنها جملاً يعبر بها عن إحساسه بأنها أفضل منه ويؤكد هذا الإحساس فى قوله: «أصل الست ملك متعلمة وبنت مدارس، بتفهم وبتقرا وبتكتب».

أما أمى فهى عنده: «الأبلة عفاف» التى يجلس أمامها مرتبكًا وخجلاً، ويزيد ارتباكه وخجله حتى يوشك أن يذوب مع كل كلمة ترحيب به تصدر من أمى، خاصة عندما تقدم له الطعام إن حان وقته وهو فى زيارتنا.

كان قليل الكلام وإن تكلم لا يخرج من فمه إلا الكلام الطيب والحنون، ويصبح كقطعة الزجاج القابلة للكسر وهو يتحدث معى حتى إنه كان يناديني وأنا طفلة: بـ يا «ست مها»: «يا ست مها إخواتك النبى حارسهم بيسلموا عليكي» .. «يا أبله عفاف بسلامتهم ولادك قالوا لى سلم لنا على الأبله عفاف». والمقصود «بإخواتك وأولادك» هم أولاده الخمسة.

وتخرج من دوائر دخان سيجارتها صورتها وهى جالسة على كرسى فى صدارة صالة بيتها بالعزبة، مرتدية الثوب الأسود الملس، رابطة رأسها بإيشارب أسود يصل حتى منتصف جبهتها، وفوقه طرحة تزيحها لتجفف بها عرقها بمجرد أن تجلس ثم تضعها فى حجرها، وتخلع «الكتلة» من قدميها، وتفرد ساقيها على ترابيزة أمامها، وتجلس مفرودة الظهر، وتبدأ فى محاسبة الرجال الجالسين أمامها على الأرض وتضع قدميها فى وجوههم، وهم الرجال الذين يعملون عندها، رأيتها كثيراً وهى تحاسبهم، وتتهمهم بالسرقة وتهددهم بقطع عيشهم وتشريدهم، وتذكر عشرات المرات أن عيونها مفتوحة، وإن مالها عليه ألف حارس، وهى الألف حارس وإنها



fb/mashro3pdf

بألف رجل، وتقطع كلامها وحسابها بإصدار أمر يتكرر مع أول جمل الحساب لواحدة من الشغالات فى البيت: «يا بت ولعى حتة قوالح وجهزى كرسى معسل واغسلى الجوزة كويس» أو «يابت ناوليني علبة السجاير واعملى لى فنجان قهوة».

كم خجلت منها وهى تدخن أمام الفلاحين، خجل أكبر كان يتملكنى لأنها تطلب لنفسها فنجان قهوة ولا تقدم لهم ولا حتى كوب ماء، كرهت جلسات حسابها للفلاحين، وكنت لا أتمنى أكثر من أن تنتهى أو ألا تتحدث، وضعهم المهين كان يشعرنى بالشفقة عليهم وكأننى أنا من أهانتهم، كنت أشعر بانقباض شديد وهى تشير «ببوصة» الجوزة، ويعلو صوتها بألفاظ السباب والاتهام لأحد الفلاحين، وكانت فى كل مرة من مرات الحساب تخص واحداً منهم بالاتهام والتعنيف. كنت أشعر أن تلك المرأة التى تجفف عرقها بالطرحة وتحركها لتجلب الهواء، وتفرد ساقيها فى وجه الرجال ليست هى خالتى «ملك» الموجودة فى الصور مع أمي. امرأة مختلفة لا يستطيع أحد أن يوقفها أو يعترض على ما تفعل حتى الحاج «حسين» إن أراد أن يراجعها مرة فهو يتحسس برفق مدخلا للحديث معها فإن قال لها: «بشويش شوية يا ست على الفلاحين» ترد قائلة: «اسكت أنت يا حاج أنت راجل طيب ودول حرامية معندهمش ضمير» وإن اقترب منها ووضع يده على كتفها ليشرح لها «أنهم جميعًا هو والفلاحين فى خدمتها وإنه يخاف على صحتها من الزعل وإنه لا يتمنى سوى راحتها» تزيح يده قائلة: «أرتاح وأسيب مالى يضيع ده حتى المال السايب يعلم السرقة».

لم أسمعها مرة واحدة تقول «مالنا» أو«مالى ومال عيالي» دائما تقول: «مالي» وصاحبة المال هذه واحدة اسمها «الست ملك» وبمجرد أن يخرج



fb/mashro3pdf

الفلاحون تعود مرة أخرى إليّ «خالتي ملك» التي تأخذني في حضنها وتضعني في حجرها وأشم في جسدها رائحة الكتاكيت الصغيرة ورائحة العجين الخامر، وفي ملابسها أشم رائحة البرسيم وزهور البرتقال والليمون، أو اللبن الرايب واللبن المحلوب من ثدي الجاموسة، وعطن التبن، وأشم أيضًا رائحة لبن تدييها وهي ترضع من هم أصغر مني من أولادها، تتنوع الروائح حتى أصبحت من رائحتها أحدد المكان الذي أتت منه، وتختلط الروائح مع رائحة المغسل المحترق في الجوزة، كل هذه الروائح مازالت عالقة في منطقة ما من روحي تهفو وتختفي.

أزاحت الصور من أمامي وهي تخرج من صمتها، لتفتح لي دوائر جديدة وتغلق دوائر ظلت مفتوحة لسنوات، خرجت من صمتها لتربط الحلقات المفقودة بالحلقات التي عشت داخلها، وحكت لي الحكاية التي أسمع صوتها وهي تحكيها الآن.

صوتها يملأ البيت والوقت: «النهارده بس حطيت جزمتي على رقبة الكلب ودبحته زي ما سبق ودبحني».

كان قد مر أكثر من خمسة وعشرين عامًا ولم تنسها السنوات ما حدث ولم تطفئ الأيام ولا الأبناء الخمسة ولا الزوج الطيب نيران الرغبة في الانتقام عاشتها «كالفرخة» المذبوحة، إلا من عرق معلق في رقبتها لم ينقطع فتموت الفرخة، وظلت بقية العروق المقطوعة تقطر الدم الأسود الحارق قطرات لا تميت.

عرفت في تلك الليلة البعيدة من هو المقطوع من الصور، ومن هو المعروف لها ولأمي «بالكلب» هو «شوقي» ابن عمها الذي ولدت ووعت على الدنيا والكل يقول: «ملك لشوقي وشوقي لملك» أحبته «بجنون» أطاعته حتى



fb/mashro3pdf

أنها رضخت لرغبته فى ألا تواصل تعليمها فى مدرسة المعلمات مع أمي، ولما وصلت سن السادسة عشر، ألبسها شبكته، وجهزوا لزواجهما.

«جهزنا كل حاجة، اشترينا الفرش من دمياط، سافرت مصر مع أبويا جهزت وأخذت كل ما يلزمني، اشتريت الستاير والسجاجيد وهدومى من أكبر محلات شارع فؤاد وقصر النيل وممر الكونتنتال، فصلت هدومى كلها بنفسى، لغاية قمصان النوم أنا اللى فصلتها، كنت بحب الخياطة والتطريز، وكنت غاوية أرسم على الورق مناظر طبيعية وأطرزها على المفارش، وكنت بأرسم مدرساتى وأرسم موديلات فساتينهم وتاييراتهم وشنطهم كانوا بيلبسوا حلو قوي، وفرشنا البيت حتى الستاير علقناها واتحدد يوم دخلتنا، وكان ده اليوم اللى بحلم به وقبل الدخلة بشهر قال لى إنه واقع فى ورطة فى شغله ومحتاج فلوس من غير تفكير جريت على الدولاب طلعت شبكتى واديتهاله، مفكرتش ولا سألته عن الورطة، ولا خطر فى بالى إن أبوه مستور ويقدر يسد عنه، كنت ضعيفة قدامه، كان لما بيسلم عليه روحى بتروح، ولو ايده تلمس أيدى كنت بحس إنى دايبه وأن جسمى بيختفى أو بيترعش أو بتحول لطيف ...».

صمتت وكأنها أصبحت طيفا تنهدت وقالت بصوت من يحدث نفسه: «ياه أنا كنت بحبه بشكل».

لم تتركنى معلقة انتظاراً لبقية الحكاية، فقد كانت مسكونة برغبة قوية فى الحكى «بعدها أخد الشبكة اختفى وأنا كنت حأتجنن وفى ليلة لقيت أبويا بيزعق مع ستى الله لا يرحم روحها وبيقول لها: «يعنى إيه هو كان كلام صغار يعنى أيه شوقى بيحل الشبكة». أنا سمعت الكلمة والدنيا لفت بيَّ ووقعت من طولي. خرج أبويا زى الثور الهايج وراح على بيت عمى،



fb/mashro3pdf

وغاب ييجى ساعة ورجع خبط باب أوضتى برجله وأمى وراه بتقول له «صلى على النبى يا حاج» كان وشه أسود وبيهب منه السواد زى الهباب، أنا أول ما شفته اتنفضت من الرعب، ومش عارفه إيه اللى حصل، قام هجم عليَّ زى الوحش ورفصنى برجله فى الحيطة، وفضل يضرب فيّ ويشدنى من شعرى ويخبط راسى فى الحيطة ويقول: «حطيتى راسى فى التراب يا فاجرة»، ولولا عمى لحقه كان قتلني، الدنيا اسودت فى عينيه والدم غرق وشى وكان نفسى أفهم أو أعرف إيه اللى حصل وقبل مايغمى عليَّ، عينى جت فى عين أمى وهى متكومة على الأرض فى ركن الأوضه، ووشها أصفر صفار الموت وعينيها واقفة زى ما تكون عميت قلت لها: «أنا بريئة يا نينة والله العظيم ما عملت حاجة» وأغمى عليَّ، وفقت وستى عمالة تضربنى برجلها فى بطنى وتقول «يا فاجرة هى لو كانت عرفت تربيكى كنت عملتى عملتك السودة دي، كانوا كلهم واقفين فى الأوضه وأنا مرميه تحت رجليهم على الأرض ومش عارفه إيه اللى حصل، لحد ما أبويا قال: «شوقى فسخ خطبتك يا فاجرة وقال لى أنا الحاج محمود عمه «روح لم بنتك اللى مستحملتش لحد ما تيجى بيتي، وقال لي: «اللى تسلم نفسها حتى لو كان ليّ ما تلزمنيش، وقال: «روح دور لها على مرابع ولا كلاف يستر عليها». وقال: «ملهاش عندى حاجة شبكتنا وفرشنا خدناهم روح دور على بنتك» يعنى أنتى اديتى له الشبكة علشان يستر عليكى مش كده»، وقبل ما يخبطنى تانى ومن خوفى وصدمتى صرخت وقلت: «أنا بريئة هاتوا الداية تكشف عليَّ وتقول الحقيقة» رفصتنى ستى فى بطنى وقالت: «عايزة تفضحينا يا وسخة فى البلد، والداية تطلع تقول أنا كنت بكشف على بنت الحاج محمود، بس والله العظيم وحياة النبى اللى زرته لو فضيحتك بانت



fb/mashro3pdf

أنا إللى حاقتلك بإيديه دول وأتاويكى فى أرض الزريبة».

صمتت لحظة وتنهدت وقالت: «كلهم كانوا بيتكلموا بصوت واطى كانوا خايفين حد من الخدامين يسمعهم».

لسعت نار عقب السيجارة إصبعيها فألقتها خلف السور ولعقت إصبعيها بلسانها، ورفعت طرف قميص النوم لتنشف وجهها المبلل بالعرق. كان جسدها يهتز بلا إرادة وأعتقد الآن أنها لم تكن قادرة على إيقاف اهتزازه.

شعرت بالعرق يتسرب من بين أصابع قدمى وظهري، وشعرت ببرودة شديدة تسرى فى جسدى الذى أخذ يرتعش ووصل الارتعاش إلى أسنانى التى اصطكت رغما عني، وكاد السؤال يقفز من بين شفتي: «لماذا سلمت له نفسك ؟» ولكن السؤال وقف فى حلقى الذى جف أصابنى ارتباك لم أعرف معه ماذا أفعل، ولا بماذا أعلق، ولا كيف أوقف تخبط أسنانى فى بعضها، ولا كيف أسيطر على ركبتى اللتين تهتزان، لدرجة أننى أمسكت بذراعى الكرسى الذى أجلس عليه لإحساسى بأننى سأسقط من فوقه.

لم أرد شيئًا فى هذه اللحظة أكثر من أن أترك المكان، أن أحرك قدمي، وبالفعل وبلا تفكير أو قرار نهضت من مكاني، وسرت متوجهة إلى الحمام لا أعرف حتى الآن لماذا، ولا ماذا سأفعل، وبعد عدة خطوات فى الممر المظلم من الصالة للحمام شعرت بخوف شديد، كنت أسمع وقع خطوات خلفي، تلفت حولى وخلفى كأننى أنتظر خروجه من الحائط. شعرت بألم بين فخذى فوضعت يدى فى موضع الألم وأسندت ظهرى على الحائط وظللت فى وقفتى لا أعرف كم مر من الوقت، فما مر وقت بلا قياس ولكنه الزمن الذى نشعر أنه جسم ثقيل يقف بلا حركة ولا نقدر على دفعه.



fb/mashro3pdf

بحركة لا إرادية مددت يدى فتحت الحنفية وتركت الماء ينساب فى الحوض وظللت مسندة ظهرى للحائط ووقفت أتأمل الماء وأحاول التقاط صورة ذلك الذى تحدثت عنه خالتى ملك، وكأننى أشكل ملامح لإنسان لا أعرفه فمن أعرفه جيداً هو: «خالى شوقي» أمه ابنة عم جدتى أم أمي، حملنى على كتفيه وأنا طفلة، وناداني بـ«يا بنت الغالية» يأتى إلى بيتنا مالئا جيوبه بالملبس ويفرغها أمامى على الترابيزة، يأخذنى فى حضنه كلما التقانى فى الشارع وهو خارج من عمله فى المبنى القديم، الذى تصدع وانهار منذ زمن بعيد، يسميه أهل البلد «مبنى الإصلاح» قاصدين الإصلاح الزراعي، أو وهو عائد من الغيطان فى الصيف معفرا ومتربا، وحذاؤه مغطى بالطين، على رأسه «برنيطة» وفى يده شمسية مفرودة فوق رأسه، وقميصه مبلل بالعرق ومبقع، وفى حضنه أشم رائحة مبيد رش دودة القطن التى كنا نشمها فى الهواء والطائرات ترش الغيطان.

كان أول من يطرق بابنا فى العيد، ويعطينى العيدية ويعطى لأمى «عيدية»، وكان يأتى بلا موعد أو مناسبة ويبرر زيارته دائماً بـ:«هفيتى عليه يا عفاف، قلت آجى أشوفك أنت ومها» ويشرب قهوته مع أمى ويسألها قبل أن يغادرنا نفس السؤال: «مش عايزة حاجة يا عفاف لو عوزتى أى حاجة ياختى أنا تحت أمرك».

تكتمل الدوائر وتترابط الحلقات المعروفة بالمفقود منها، تنساب مع الماء، تتجمع شظايا الصور والحكايات وأنا أستعيد ما كنت أسمعه وأنا طفلة من كلام متطاير، وقد اختزنته فى ذاكرتى دون أن أقصد أو أدرك أنه محفوظ فى مكان ما مني، حلقة مفتوحة تقترب من أخرى جمل مجرد جمل كان يقولها لأمي: «امتى يا عفاف قلبك حيصفى من ناحيتى وتسامحيني» وترد



fb/mashro3pdf

أمي: «مفيش داعى يا شوقى تقلب فى اللى فات خلاص دى صفحة انطوت وكل واحد منكم شق طريقه وعاش حياته».

عشت عمرى أتلقى محبته لى ولأمي، وكنت متأكدة من مكانته عند أمي، من ترحابها به وسؤالها عنه إن غاب، ولما يحضر لا يتوقف حديث الذكريات بينهما الذى يطول فى ليالى الصيف للساعات الأولى من صباح اليوم الجديد، ولكننى توقفت عند غضب أمى منه أكثر من مرة غضب ولوم يسبقهما سؤاله عن واحدة يعرفها هو وتعرفها أمي: «هى عاملة إيه يا عفاف مش كويسة ومبسوطة».

هو «خالى شوقي» الذى ألصق به أقاربنا صفة البخل، ويقولون عنه: «ميت على الدنيا منعرفش ليه ده لا عنده عيل ولا تيل وجلده وأبخل من كلبة يزيد» وأنا لم أكن أعرف لا يزيد ولا كلبته. لم يكن يزور أحداً سوانا ولا يدخل بيوت شقيقاته إلا فى الأعياد، لم يكن يشارك فى أفراح أبناء أقاربنا، يشارك بالسير فى جنازات الموتى فقط.

ترك له أبوه أرضاً وبيتًا وأقام هو مزارع فراخ بيضاء كانت أول مزرعة للفراخ البيضاء فى بلدتنا هى مزرعته، ومع ذلك لم يذقها كما كان يقول لأمي: «يا عفاف أنا لا يمكن آكل الفراخ البيضة دى أنا ببعت لك فراخ بلدى متربية فى عنبر لوحدها» كان فعلا يرسل لنا «فراخ» بلدى وبيض بلدى وزبدة وقشدة وعسل نحل ومع كل زيارة يحملها إلينا أمى تمازحه قائلة: «الحاجات دى كلها ليه يا شوقى يا أخى روح اشترى لنفسك طقمين ثلاثة نضاف عيب تلبس الهدوم القديمة المبقعة دي، روح البس واتفسح أنت مش قليل ده محدش لبس ولا اتفسح فى البلد قدك» «والله يا عفاف ماهو بخل زى الناس ما بتقول عنى دى سدة نفس، نفسى زاهدة اللبس والفسح



fb/mashro3pdf

والأكل، أنا كل الشغل ده بلهى نفسى به وبملأ وقتي».

فجأة مرض ولما عرفت أمى الخبر أصابها ذهول ودخلت فى نوبة بكاء حارق مرددة: «يا حبيبى يا خويا» كان الخبر: «شوقى جاله المرض الوحش».

بدأت رحلته مع المرض بين الأطباء والمستشفيات، والدجالين والأحجبة، والبخور والزار والنذور وزيارة الأضرحة، ولم يعد كما كان، رجلاً طويلاً ووسيمًا، لا ينقصه ليصبح كنجوم السينما الموجودة صورهم فى مجلات أمى القديمة إلا أن يهتم بمظهره، أرقده المرض فى سريره، مكومًا كطفل لا يظهر منه سوى جلد مترهل دكن لونه، وعظام نتأت حتى توشك أن تخترق الجلد، وبعد فترة انتفخ بطنه وعلا صوت تنفسه حتى أصبح حشرجة وليس تنفسًا.

أغلقت الحنفية واستعدت نفسى لما نادت لي: «يا مها» :«أنا جايه يا طنط حالاً».

عدت أكثر لهفة لسماع بقية الحكاية، وما حدث لها:

«أبويا قال لى مش عايز أشوفك قدامى من النهاردة، ومن يومها ماكلتش معاه على طبلية واحدة، ولا لبست هدمة جديدة، ولا مسكت مليم أحمر فى إيدي، عشت فى البيت زى الخدامة. ستى لما كانت تشوفنى باكل كانت تسم بدنى وأبسط حاجة تقولها: «وليكى نفس تاكلى يا فاجزة ده أنتى خسارة فيكى اللقمة المعفنة الحاف انتى اللى زيك تولع فى نفسها ولا ترمى روحها فى البحر». فكرت كتير أولع فى نفسى وأخلص بس مقدرتش يمكن لأنى كنت متأكدة أن الكلب بيفترى عليه وأن محصلش بينى وبينه أى حاجة، طيب عمل كده ليه، وقال الكلام ده ليه ؟».



fb/mashro3pdf

وضعت يدها على جبهتها تتحسس جرحًا قديمًا فوق الحاجب كنت أعرف أنه من أثر خبطة بإبريق نحاس ألقته فى وجهها جدتها أم أمها لأنها ضبطتها وهى فى غرفتها تستمع للراديو، الآن فهمت متى وقعت هذه الإصابة بالضرورة بعد «خالى شوقى ما عمل عملته» لأن الراديو كما سبق وقالت أمى اشتراه أبوها من أجلها.

«وأبويا علشان يذلني» واصلت: «قام كتب كل أرضه بيع وشرا لأخواتى وحرمنى على حياة عينه من حقي، طبعًا الكلام فى البلد كان داير اللى يقول ده شاف عليها حاجة، واللى يقول ده سابها علشان بيحب واحدة تانية. كنت حاسة إن حيطان البيوت وتراب الشوارع بينهشوا فى لحمي. سنتين محبوسة فى البيت، الشارع ما شافش ضلي، أمى انحنت وكبرت ييجى عشرين سنة، وكانت لما تفتح بقها بكلمة كانت ستى تبهدلها ومفيش على لسانها غير: «أنتى لك عين تتكلمى كنتِ لِى بنتك الفاجرة».

●●●

أسمع صوتها وهى تواصل الحكاية، صوتها يملأ البيت ويملأ ساعاتى المتبقية فى يوم من أيامى واصلت دون توقف لتصل إلى زواجها من الحاج حسين:

«فى يوم دخل عليّ أبويا الأوضة قال لي: «يوم الخميس الجاى كتب كتابك» من غير ما أفكر سألته: «مين يا بابا» وهو مدينى ظهره قال: «اخرسى أنتِ اللى زيك ما تسألش ولولا شرع ربنا كنت قيدتك وسحبتك لحد بيت الراجل اللى حيسترك».



fb/mashro3pdf

انخفض صوتها وواصلت وهى تحدق فى الأرض: «قال شرع ربنا، هو فين شرع ربنا لما عايز يجوزنى راجل غريب عن البلد ميعرفش حاجة، يعنى عايز يغشه، أبويا كان مصدق إن أنا مش بنت بنوت، الوحيدة اللى كانت مصدقانى ووقفت جنبى هى عفاف، ياه أنا أتعذبت عذاب خلانى أكره البنات وأكره خلفتهم، البنت دى مصيبة كبيرة تعيش عمرها كله شايله على ضهرها مصيبة أنها بنت».

توقفت عن الكلام لتشرب من القلة الموضوعة على سور الڤراندة، شربت بقوة، وتعمدت أن تترك الماء ينسكب على عنقها وصدرها، ثم ملأت يدها بالماء ومسحت به وجهها وأعادت القلة إلى مكانها، واعتدلت فى جلستها ملاصقة ظهرها إلى مسند الكنبة، ولم تهدأ ظلت تتحرك بجسدها يمينًا ويسارًا كأنها تحك ظهرها فى المسند، ثم توقفت ورفعت طرف قميصها عن ساقيها وأخذت تحركه لجلب الهواء، ثم رفعته وجففت به وجهها وعنقها وتركته ليسقط إلى ما فوق ركبتيها. لم أنطق بكلمة كنت أتعجل استكمالها لبقية ما حدث، كنت كمن يلهث خلفها وتعلقت بشفتيها لا أريدها أن تنغلق: «أسبوع واحد وكان كل شيء جاهز واتجوزت الحاج حسين، عمى هو اللى قاله «عروستك عندى يا حاج» أصل كان هو وأبويا لهم تجارة معاه، والحاج كان متجوز بنت عمه وماتت ومخلفوش، ويوم الفرح أخدونا فى العربيات من غير زغروته ولا كباية شربات زى ما أكون عازبة لولا إن عفاف صممت ألبس فستان الفرح والطرحة ومن العربية أخدونى على أوضة النوم، لقيت نفسى فيها أنا وأمى وعفاف وستى والحاج حسين، وعمى وأبويا وإخواتى قعدوا بره فى الصالة. الأوضة كانت ضلمة مافيهاش غير لمبة جاز نمره خمسة مولعة ومتعلقة فى ركن فى آخر الأوضة، كانت ستى مخبية فى كم



fb/mashro3pdf

جلابيتها حوصلة فرخة مليانا بدم الفرخة وربطاها بفتلة وفى ايدها موس، كانت مرتبة تقطع الحوصلة بضافرها وتنزل شوية الدم على المنديل وتجرحنى بالموس من تحت علشان أصرخ، ولقيتها بعزم قوتها بتقعدنى على السرير وزقتنى لحد ما نمت ووطت على هدومى تشلحنى وتقلعنى لباسي، وقالت لعفاف: «تعالى امسكى معايا رجلها وقالت لأمي: «امسكى الرجل الثانية» كانت عفاف بتعيط وأمى سنانها بتخبط فى بعض، وأنا نايمة على السرير وستى عماله تشد فى هدومى من تحت، نار .. ولعت فى جسمى، وغل الدنيا ملأ قلبى من غير ما أحس وبعزم ما فيّ زعقت فى ستى وخبطتها برجلى فى وشها وقعتها على ضهرها وبعلو حسى قلت للحاج: «يا حاج حسين تعالى خد - وشي- بنفسك» وخطفت المنديل من ايد ستى قبل ما تقوم من على الأرض واديته للحاج وقلت له: «يا حاج أنت دلوقتى راجلى وأنت أولى بشرفك» ونمت على ضهرى ورفعت هدومى وفتحت له رجليه. كنت عايزة أنتقم من ستى وأبويا، وأثبت براءتى وقلت فى نفسى يا أطلع بنت وأرفع راسى، يا أطلع مش بنت ويبقوا رجاله بصحيح ويقتلوني، همه داروا على الفضيحة لأنها كانت بينهم وبين بعض، لكن دلوقتى فى راجل غريب شاهد إما يثبت براءتى أو يفضحهم، كانت الحياة كلها عندى مش أكثر من نقطتين دم يا ينزلوا يا ماينزلوش، أتقل لحظة فى حياتي، مرت كأنها سنة، عفاف واقفة جنبى بتعيط وأمى قعدت على الأرض تترعش وتعيط، وستى قاعدة على الأرض فاتحة بقها ومش عارفه تعمل إيه، بس أنا - متأكدة إنها كانت بتتمنى فضيحتى علشان تثبت لأمى انها ما عرفتش تربينى وإن المدرسة وقرايتى للمجلات والقصص فسدونى وإن ابن ابنها هو اللى «بوظني». الحاج كان واقف والمنديل الأبيض فى إيده مش عارف يعمل



fb/mashro3pdf

إيه».

مر وقت وأنا نايمة على ضهرى وفاتحة رجليه ومحدش بيتحرك، قمت وقفت وقلت للحاج حسين: «يا الله يا حاج واقف كده ليه» وزى ما يكون صوتى فوق ستى من الصدمة، وقفت وقالت: «أنا حاطلع أنادى أبوكى يربيكى يا سافلة يا قليلة الربابة» وقفتها مكانها وأنا ماسكاها وقلت لها « يا شيخه اتقى الله إيه الشر ده كله ده أنا بنت ابنك مش عايزه أسمع صوت حد أنا دلوقتى فى عصمة راجل هو المسئول عن شرفى وشرفه» وبصيت فى عين الحاج لقيت فيها نظرة عمرى ما حانساها حسيت إنى بنته نظرة كلها طيبة وحنية كبر قوى فى نظرى وهو بيقول: «حاضر يا ست الستات أمرك عندك حق بس لما نكون لوحدنا غطى نفسك يا ست من دلوقتى محدش يكشفك غيرى لو سمحتوا يا جماعة سيبونا لوحدنا الشيء ده يخصنى أنا والست بتاعتى لوحدنا».

«بعدما خرجوا لف المنديل الأبيض على صباعه وحط الشال الأبيض تحتى وجاب لى نقطتين الدم اللى أنا مستنياهم» وطى على راسى باسها وخرج لهم بالمنديل الوسخ».

●●●

نقطتا الدم اللتان «وسخوا» المنديل كانتا بابا أغلقته على حياتها السابقة، وفتحتا بابا دخلت منه إلى حياتها الجديدة مع الحاج حسين، ولم تبق خيطا يربطها بحياتها القديمة سوى علاقتها بأمي، لدرجة أنها قررت أن تشعل النار فى صورها القديمة لكنها لم تستطع وبعد أن قصت شوقى من



fb/mashro3pdf

الصور وضعتها فى حقيبة وأعطتها لأمى تلك الصور التى كنا نقضى معها ليالى الشتاء فى بيتنا القديم والتى مازالت فى الحقيبة فى دولاب أمى هناك.

كانت تسير فى حياتها الجديدة نحو هدف واحد هكذا قالت وهو شراء الأرض لتملك أرضًا أكبر من التى حرمها منها أبوها، وأكبر مما يملك شوقى حتى الأرض التى اشترتها لتبنى عليها عمارة لها ولأولادها اشترتها من أخت شوقى كانت جزءاً من ميراثها فى أبيها قالت إنها شعرت كأنها تقطع قطعة من لحم شوقى وليست مجرد قطعة أرض.

قطعت كل الخيوط حتى الأغانى التى كانت تحبها توقفت عن سماع أم كلثوم وكارم محمود وعبد الغنى السيد وأسمهان وليلى مراد، وأحرقت فى فرن الخبيز قصصًا ومجلات كان الحاج حسين قد اشتراها لها فى واحدة من سفرياته للقاهرة، ولأنها بنت مدارس كما كان يقول عنها ورأى فى بيت أبيها كتبًا ومجلات وعرف أنها تخصها أراد إسعادها بهدية تليق ببنات المدارس، ولكنها خافت أن تنظر إليها خافت أن تفتح الصفحات المغلقة وألقت بها فى جوف الفرن «كنت خايفة من أى شيء يرجعنى لملك القديمة، كنت وأنا بحرقهم حاسة إنى بحرق أى طريق له علاقة بالبنت الصغيرة اللى حبت وفتحت قلبها للدنيا فى وقت كان الحب جريمة وعيب». وهى التى لم يكن يشعل النار فى جوفها سوى أن يصلها خبر أن شوقى سيخطب أو سيتزوج ولا تنطفئ النار إلا بتأكدها أن الخبر مجرد شائعة لا أساس لها.

●●●

لم يفتها فى تلك الليلة البعيدة أن تؤكد أكثر من مرة أنها أحبت الحاج



fb/mashro3pdf

حسين كما لو كان أباها وإنها عاشت تحترمه وستظل تحترمه حتى آخر يوم فى حياتها لأنه: «كان بيتعامل معايا كأنى ملكة» وإنه كان لا يقترب منها لأخذ حقه الشرعى إلا بأدب وبرضاها: «صحيح أنا مكنتش بحس بالحكاية دى وكنت بعملها علشان أرضيه، عمره ما طلبنى ورفضت طلبه مش خوف من ربنا ولا لأن ده حلال أو حرام، لا لأنى كنت بقدره وبحترمه وهو لا يمكن يقرب منى وأنا تعبانة، وهى الحكاية دى كانت بتحصل على فترات لأنه كان راجل كبير وفى السنين الأخيرة تعب وبطل يطلب».

●●●

فى تلك الليلة البعيدة لم يكن عمر خالتى ملك أكثر من أربعين عامًا والآن عمرها حوالى سبعين عامًا ومازالت تذكر الحاج حسين بتقدير واحترام، ومازالت تسبق اسم شوقى بالكلب رغم أنه مات منذ ثلاثين عامًا، ورغم أنها كما قالت لى ليلتها إنها وفى هذه الليلة فقط انتقمت منه وحاسبته على «عملته» التى كان قد مر عليها أكثر من عشرين عامًا.

فى تلك الليلة التى خرجت فيها من بيتنا متسللة قبل أذان الفجر وعادت قبل خروج المصلين من الجامع، ونامت وظلت طوال اليوم نائمة واستيقظت لتحكى لى كل ما فات أو لتترك لى ما يربطنى بها وما سأقضى به ساعات يومى المتبقية، كانت فى خروجها المفاجئ ونحن نيام قد قررت الذهاب له لتحاسبه «قبل أن يموت» بهذه القسوة قالتها: «وصلتنى أخبار إن صحته متأخرة، وإن الدكاترة قالوا يخرج من المستشفى يموت فى سريره، حسيت إن الوقت ممكن يسرقنى قبل ما أحاسبه ودعيت من كل قلبى إن ربنا يمد



fb/mashro3pdf

فى عمره ولو يوم واحد لحد ما نتقابل، كان السرطان وصل الرئة والكبد والطحال وضرب فى جسمه كله، ولما عرفت إنه خرج من المستشفى، قلت دى فرصتى الأخيرة، فى الحساب».

ذهبت إلى بيت عمها، فتحت لها زوجة عمها التى لم ترها منذ أن «عمل ابنها عملته السودة» لم تعرفها فى أول الأمر «الست كبرت ونظرها ضعف» لكنها عرفتها لما سمعت صوتها: «ازيك يا مرات عمى أنا ملك جايه أطمئن على شوقي». «الست خافت وبان عليها الخوف» وهى خائفة وبصوت مرتعش قالت: «يا بنتى شوقى تعبان قوى وهو نايم فوق» «طيب أنا طالعة أطمئن عليه».

وصعدت قبل أن تأذن لها زوجة عمها صعدت وهى لا تعرف ماذا ستفعل ولا لماذا أتت - أو هكذا قالت لي- وكأنها نسيت أن هذا هو يوم الحساب، كان جسدها يرتعش، وركبتاها لا تقويان على حمل جسدها، ولا تشعر بقدميها كأنهما مربوطتان بسلاسل، كانت خائفة من المواجهة التى انتظرتها ومع ذلك لم تفكر فى العودة بل كانت فكرة موته قبل أن تصل إليه أو حتى موتها هى من شدة الخوف كانت فكرة دفعتها دفعاً لمواصلة صعودها.

تنبهت زوجة عمها وخرجت من ذهولها وخوفها بينما ملك تواصل الصعود وبصوت مرتجف رددت «يا بنتى هو لسه نايم وتعبان» «ما تخافيش يا مرات عمى حاسيبه نايم وأقعد جنبه لحد ما يصحى الست صعبت عليّ بس كملت طريقى ما أنا عارفه البيت كويس. ما هو كان حيبقى بيتى اللى حأعيش فيه».

وبمجرد أن فتحت باب الشقة ودخلت شمت رائحة العطن والموت، خطت



fb/mashro3pdf

خطوتين لتجد كل شيء كما وضعته بيديها، فى الصالة حجرة السفرة .. الترابيزة الكبيرة مغطاة بالمفرش الكورشيه الذى نسجته أمي، كان مقطعا من أطرافه أكلته العتة مع مرور السنين، بجوار الترابيزة دولاب الفضية، فتحته فوجدت طقم الصينى وأطقم الكريستال كما رصتها أو «بحطة إيدي» كما قالت، فتحت باب حجرة الصالون ودخلتها. أضاءت النور فلم تضئ إلا لمبة واحدة فى النجفة الكريستال مكنتها من رؤية الكراسى هابطة والتراب يغطيها، والستائر المعلقة على الشباك مدلاة من الوسط والأطراف بعد أن سقطت بعض حلقاتها، ودائبة من الوسط بثقوب متفرقة، السجادة المفروشة على الأرض قذرة لصق بها طين قديم وبهت لونها وأكلت العتة أطرافها وأجزاء من وسطها، اللوحات المعلقة على الحائط مائلة ومغطاة بالتراب والعنكبوت نسج خيوطه حولها، ومدها من لوحة إلى الثانية «ده كان حيبقى بيتى بقى زى التربة وهو مرمى على السرير فى أوضة نومى والمرض بينهش فى لحمه».

خطت خطوات ثقيلة إلى حيث يرقد، كانت تشعر أن ثقلاً يحط على قدميها كلما خطت خطوة فى اتجاهه، وأن جسدها يبرد لدرجة أنها أحست أن ظهرها مبلول. لكنها دخلت وأضاءت نور الغرفة ورأته مكومًا أسفل الغطاء، اقتربت سمعت أنينه وتحققت مما قاله الناس عنه «كوم عضم» كان جسده يرتعش أسفل الغطاء ورائحة الموت تملأ المكان، أوشكت أن تسقط من طولها فأسندت ظهرها للحائط وتحاملت حتى وصلت إلى طرف السرير وجلست بجواره: «قعدت وأنا مش عارفه أنا عايزه أعمل إيه ولا ليه بعمل كده، ياه هو ده شوقي، وهى دى قساوة قلبي، بقيت خايفة يصعب عليّ افتكرت اللى عمله وقعدت أولع النار جوايا وأفتكر كل اللى فات، وفى نفس



fb/mashro3pdf

الوقت كان صعبان عليّ، فكرت أمشي، وأسيبه لكن قوة القسوة خلتنى أهزه وأصحيه من نومه».

«إيه يا أمه فيه حاجه» قالت له: «أنا ملك يا شوقي» انتفض جسمه تحت اللحاف وانكمش شعرت أنه خائف كان صوت تنفسه مسموعاً وصدره يعلو ويهبط كما لو كان داخله منفاخ، وكانت الرائحة حوله خانقة وكريهة خافت أن تقوم وتفتح الشباك لتهوِّى الحجرة، خافت إن قامت أن ترجع فتجده مات.

«ازيك يا ملك عامله إيه» قالها بصوت منخفض صوت أنهكه المرض، وهى جف لسانها وحلقها وأخذت تحرك لسانها داخل حلقها حتى تقدر على فتح فمها: «شوقى اصحى وقول لى انت عملت عملتك السوده دى ليه، ليه ادعيت عليّ بالباطل ونهشت عرضى وشرفى اصحى وبص لي» كان العرق يغطى وجهه وكان غائبًا فى عالم تاهت تفاصيله وانمحت من ذاكرته، وحل محلها الألم، والوجع، وصرخات الرجاء الذى لا يتحقق. مرت لحظات حتى تمكن من إخراج صوته من بين شفتيه: «ياه يا ملك انت لسه فاكره» «ولا عمرى حأنسى عايزه أعرف يمكن أرتاح» «خلاص يا ملك أنا حأموت وحترتاحي، أنا كنت فاكرك فهمتى مع الأيام علتي، وإن أنا لا كنت أنفع لكِ ولا لغيرك ولا للجواز أصلاً».

انتفضت واقفة وكأنها لم تتمن من الدنيا سوى سماع ما قاله ولم تهتم بالرعب الذى أصابه، قامت وخلعت الثوب الملس الذى كانت تلبسه، وقفت أمامه بالقميص الداخلى الشفاف الذى يظهر جسمها من تحته: «ليه لا تنفعنى ولا تنفع غيري، قوم يا شوقى ما انت زى الفل وأنا قدامك أعمل اللى تقدر عليه أقلع لك باقى هدومي» ورفعت طرف القميص عن ساقيها ومدت



fb/mashro3pdf

ساقًا فى وجهه وثبتتها على السرير فاتحة ما بين ساقيها: «قوم يا ابن عمى جرب يمكن تنفع وتاخد منى اللى ماأخدتوش من خمسة وعشرين سنة، مش أنت قلت إن أنا فرطت فى نفسى معاك، أنا مستعدة أفرط دلوقتى لو تقدر».

ارتفع صوت تنفسه وتسارعت حركة صدره وحاول أن يتكلم أكثر من مرة وفى النهاية قال: «سامحينى يا ملك أنا كنت صغير، وجربت مرة واتنين ومقدرتش ولما الدكتور قال لى مفيش فايدة اسودت الدنيا فى عينيه وغلطت سامحيني».

أغمض عينيه وظل يلتقط الهواء بصعوبة، وأخذ يهذى بأصوات وكلمات غير مفهومة، بينما هى فى حالة هياج والغل يملأ صدرها لم تشعر بلحظة شفقة عليه، تمنت لو تمزق لحمه بأسنانها وتسمع صوت الوجع فى صراخه، وترى الرعب فى عينيه، وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه.

هزته لتتأكد إنه لم يمت ولتواصل انتقامها: «أنا كنت عارفه، وفهمت إنك مش راجل، لأنك قعدت السنين دى كلها من غير جواز، لكن كنت عايزة أسمعها منك، أنا أقدر دلوقتى أكتم نفسك بالمخدة لكن الموت راحة لك، وأنا عايزاك تتعذب لآخر دقيقة فى عمرك، قوم ورينى يا سيد الرجالة أنا سلمت لك نفسى إزاي» «كفاية يا ملك خلينى أودع الدنيا وانتِ مسامحاني، ياه إيه اللى خلى قلبك حجر كده».

لقطت ثوبها وارتدته وفى التفاتتها وجدت زوجة عمها واقفة خلفها تبكى وترتعش «افرحى يا مرات عمى بابنك اللى عمره ما كان راجل ابنك ملوش فى النسوان، لا وخسيس كمان افترى عليّ كان فاكرنى حاقعد جنب أمي، زى ما هو قعد جنبك، بس لا ربنا خلف ظنه وانتقم لى منه ألف مرة، كفايه رقدته دى وهو بيتمنى الموت ومش لاقيه، وحيموت على فرشى وجهازى،



fb/mashro3pdf

حيموت من غير ذكر ولا قيمة زى الكلب، لكن أنا خلفت خمس رجاله صحيح رجالة بحق وحقيق مش «خنته» وأوسخ من الوساخة زى ابنك».

بصقت عليهما وتركتهما وعادت إلى بيتنا نامت وصحت وجلست تحكى لى الحكاية، وتتساءل: «أنا عملت كده ليه، أنا أتغيرت كده ليه، أنا مين دلوقتى أنا ملك بنت الحاج محمود أول بنت تدخل المدرسة فى البلد، واللى كان بيجيب لها الكتب والمجلات والقصص مخصوص من مصر، واللى حضرت حفلات أم كلثوم واتعشت فى جروبى أيام ما كان مطعم الباشوات أنا اللى الراديو دخل بيت أبويا علشاني، أنا دي، ولا واحدة تانية، ويا ترى أقدر أرجع تانى ولا خلاص فات وقت الرجوع».

●●●

انقضت ليلتى وبدأ يوم جديد قضيت أوله فى العمل، مسكونة، بإحساس ثقيل بالفراغ، أشعر معه أننى معلقة داخل بئر واسعة، وعميقة أخبط فى مائها بقدميّ وذراعيّ وكل جسدي، لا قدماى تطالان قاعها ولا جسدى يطفو فوق مائها، فراغ أخبط داخله أحافظ فيه على توازنى بالضرب بذراعى وقدمى إنها البئر العميقة الواسعة المسماة بالحياة.

بعد أن سرت بضع خطوات على الرصيف سمعت صوت بائع - شاب- ينادى «حمادة بيلعب» توقفت لأرى الدمية الملقاة فى طبق بلاستيك مملوء بالماء فرأيت صورتى فى الطبق بجوار الدمية البلاستيك والتى لا يزيد طولها على عشرة سنتيمترات، دمية صغيرة ملقاة على ظهرها عارية تضرب بقدميها وذراعيها فى الماء لا تطفو ولا تغرق، ظهرت فى شوارع القاهرة



fb/mashro3pdf

بكثرة منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي، وسمعت الباعة ينادون عليها مئات المرات: «حمادة بيلعب» توقفت أمامها لأول مرة، تابعت حركة الدمية العصبية وهى تقاوم الغرق وعاجزة عن الطفو، تدور وتدور تخبط وتخبط، اختنقت، وأصابنى دوار، أغمضت عيناى حتى لا أراها، وأخذت «ألقف» الهواء بقوة، فقد تلبسنى هاجس إننى موشكة أن أفقد وعيي، فتحت عيناى وتمنيت أن أضع يدى فوق الدمية حتى تغرق فى قاع الطبق البلاستيك. مرة ثانية، لا أعرف لماذا لم يخطر ببالى أن أمد يدى وأخرجها من الطبق. بدلاً من خاطر إغراقها.

دون تفكير منى أو قرار وربما دون وعى واصلت سيرى عائدة إلى البيت.

●●●

انتقلنا من قريتنا للقاهرة مع دخولى الجامعة، استأجرت أمى الشقة وأثثتها أثاثًا مؤقتًا، لأنها خططت لعودتنا إلى القرية بعد تخرجي، لكننا لم نعد.

التحقت بعملى بعد تخرجى فى كلية الحقوق، توسط لإلحاقى به عمى وديع لأنه صديق رئيس المصلحة الحكومية التى أصبح اسمها هيئة، وقد ظللت وأمى نسميها مصلحة دون أن نحاول معرفة ما هو الفرق بين المصلحة والهيئة، فلم يتغير شيء بها بعد تغيير الاسم الذى لم يكن يعنينى منه سوى أننى موظفة براتب شهرى يضمن لى الحماية والتأمين الصحى الذى لم أذهب إليه ولا مرة، والمعاش الذى سيؤمن أيامى المقبلة.



fb/mashro3pdf

أعتقد أننى لم أحلم وأنا طالبة فى كلية الحقوق أن أعمل بالمحاماة ولم أحلم بالروب الأسود والوقوف أمام القضاة فى المحاكم وحولى موكلون، وعندى مكتب كبير وقضايا، ومصائر بشر معلقة بينى وبين حكم القضاء، ربما يكون قد مر بخاطرى أطياف أحلام من هذا القبيل، وربما لا أريد استرجاعها أو البحث عنها فى خبايا ذاكرتي، فأنا لا أريد أن أغرق فى إعادة إنتاج الأحلام.

فما أنا متأكدة منه أن العمل بالنسبة لى ليس سوى راتب أتقاضاه كل أول شهر، راتب يزيد مع الزيادات المقررة سنويًا لموظفى الدولة، وحتى علاقتى بعملى ومدى سعادتى به أو حبى له مسألة لم أفكر فيها ولم أقف عندها، فأنا ومنذ التحاقى بالمصلحة، أقوم بنفس العمل وهو متابعة الجرائد والمجلات الصادرة كل يوم، وكتابة تقرير عن أهم القضايا المثارة فيها بشكل عام، وكتابة تقرير منفصل إذا كانت هناك قضية مثارة أو مهمة محليًا أو عربيًا أو دوليًا، كما أقدم تقريرًا شهريًا يضم ملخصًا عن التقارير الواردة لى من فروع المصلحة بالمحافظات متضمنًا الأنشطة وخطط العمل وما تم تنفيذه منها، وأقدم هذه التقارير إلى رئيس المصلحة مباشرة.

أحيانًا يقرؤها فور تقديمها وأحيانًا تظل ملقاة على مكتبه لعدة أيام وأحيانًا يلقى بها إلى سلة المهملات دون أن ينظر إليها. وهذه الاحتمالات فى التعامل مع التقارير مرتبطة بطبيعة الأحداث ومدى تفاقمها أو حدتها، لذا فهو أحيانًا يطلب منى تقريرًا عن حدث بعينه طالبًا كيفية تناول الصحف له ويحدد لى اسم كاتب أو اثنين من كبار الكتاب لأتابع تناولهما للحدث.

ثمانية وعشرون عامًا هى عمرى الوظيفى وأنا أقوم بنفس العمل، الذى قد يبدو مرهقًا ويحتاج لوقت طويل، ولكن ومع مرور الوقت والخبرة أصبحت



fb/mashro3pdf

أقرأ فقط العناوين الرئيسية للأحداث، وأصبحت قادرة على التقاط الحدث الذى يجب إلقاء الضوء عليه والاهتمام بوضعه بشكل بارز فى تقريرى اليومي، وهو الحدث نفسه الذى تتضاءل أهميته ويتوارى فى تقريرى بعد عدة أيام لأنه يفقد أهميته، وينتقل من الصفحات الأولى للصحف إلى الصفحات الداخلية.

وطوال الثمانية والعشرين عاماً وأنا أحصل على تقارير سنوية امتياز، وأحصل على علاواتى الدورية، ولم أغادر الحجرة التى بدأت فيها حياتى الوظيفية، ومازلت أستخدم نفس المكتب، تغير الكرسى مرة أو مرتين بسبب كسر أصابه، أو قدم لحق به فمزق الجلد من حوله.

فى بداية حياتى الوظيفية أخذت من البيت مفرشاً من تلك المفارش التى كانت تحب أمى تطريزها بالعصافير الملونة والورد والفراشات وفرشته فوق مكتبى كما كانت تفعل أمى فى مكتبها فهى كانت تبدل مفارش مكتبها بالمدرسة أسبوعيًا، ولكن مفرش مكتبى اختفى تحت أكوام الدوسيهات والملفات والصحف كما تبقَّع بدوائر أكواب الشاى والقهوة، لذا رفعته وتخليت عن فكرة وضع مفرش فوق مكتبى مثل أمي، ولم أواصل تقليدها فى وضع زهرية بها زهور على المكتب، فقد أخذت مع المفرش من البيت زهرية ووضعتها على مكتبى وكنت أشترى عدة وردات وأنا فى طريقى للمصلحة وأضعها فى الزهرية ومع مرور الوقت أصبحت الزهرية ووردها عبئًا عليّ، وعلى مساحة المكتب، وكنت أضطر لوضعها فوق أكوام الورق والجرائد المكومة فوق المكتب، انقلبت بمائها فوق الأوراق أكثر من مرة، فأخذتها وألقيت بمائها فى دورة المياه وبالورد فى سلة المهملات وأعدت الزهرية للبيت.



fb/mashro3pdf

أما الستارة التى علقتها على الشباك الوحيد بالحجرة والتى جئت بها ضمن خطتى فى تجميل المكان ليشبه مكتب أمى فقد سقطت الحلقات المعدنية من منتصفها ومن أحد أطرافها، وبهت لونها وتحولت لقطعة قماش قذرة من كثرة ما مسح فيها الزملاء أصابعهم بعد الأكل، كما امتلأت بثقوب الاحتراق من رأس عود كبريت طائر أو سيجارة كان يدخنها زميل وهو يبحث عن ملفات فى الدولاب القريب منها، وقد توقف الزملاء عن الاقتراب منها من شدة قذارتها حتى أنها من كثرة ما علق بها أصبحت كأنها منشاة، وتعيش اللوحات التى علقتها على الجدران مصير الستارة، فقد اشتريت لوحات منسوخة لرسامين عالميين ووضعتها فى براويز وعلقتها، ومازالت معلقة، ولكن واحدة منها معلقة بشكل مائل وأخرى سقطت وتهشم زجاجها، وأعادها الساعى إلى المسمار بدون الزجاج، وواحدة انكسر أحد أضلاع بروازها وكلها مغطاة بتراب عمره أكثر من ربع قرن، وفى المسافة بين ظهر البرواز والحائط تتمدد خيوط العنكبوت.

●●●

fb/mashro3pdf

# أحمد ابن خالتى ملك

اتصلت «نهاد» بى اليوم لتطمئن على أخبارى.

لم يشغلنى اتصال نهاد ولا وعدها بالزيارة ولكن ما توقفت عنده هو أن اتصالها اليوم تحديداً خدش سطح ذاكرتى لينسكب ما فى أعماقها، وما أغلقت عليه داخلى منذ سنوات مضت التقينا خلالها دون أى إشارة لا لها ولا لي. سنوات مضت تبادلنا اللقاءات، والاتصالات التليفونية ولا تقترب هى ولا أقترب أنا مما وضعته هى بيديها داخل ذاكرتى وكأنه لم يحدث، ولا أعرف سبباً ولا تغيراً لأن تخدش مكالمتها اليوم سطح ذاكرتى ويخرج منها صوت أمى وهى تلقى سماعة التليفون من يدها وتمسك رأسها وتبكى قائلة: «يا حبيبى يا ابنى ليه تعمل فينا كده يا أحمد ؟» كان الخبر الذى تلقته أمى هو موت «أحمد» أصغر أبناء خالتى «ملك».

شعرت وأنا أتلقى الخبر أن قطعة منى ماتت، من عمرى ومن قلبى الذى كان ينخلع عليه إن بكى وهو طفل، ودون أن أدرك معنى الأمومة كنت أضعه فى «حجري» وأربت عليه تربيتات منتظمة وأردد: «ننه هو ننه هو» حتى يهدأ وينام، وأظل بجانبه إن مرض أراقب حركة تنفسه، وأكره خالتى ملك ويؤلمنى جسدى إن ضربته أو عنفته.

أحمد الذى كبر فى ظلي. أمسكت بيده فى أول يوم له بالمدرسة، وحملت عنه حقيبته وهو يسير بجوارى هادئًا كأنه طيف وقبل أن أتركه أعطيته



fb/mashro3pdf

قطعة شيكولاته كورونا ظل ممسكًا بها مترددًا فى قبولها وغير قادر على رفضها لأنها مني، أخذها وسار خطوتين ثم عاد وقال: «كليها أنتِ يا مها».

الآن أرى بوضوح الحزن الذى يلمع فى عينيه السوداوين إنه حزنه على العمر الذى لن يحياه، وأسمع صوته الذى لا يرتفع أبدًا، ولم يستخدمه للصراع من أجل شيء، كان ينوب خجلاً إن تجاوز أحد أمامه فى لفظ أو سلوك وكأنه هو المتجاوز، لم يطلب شيئًا ولم يسع لشيء وكانت خالتى ملك تقول: «عمر أحمد ابنى ما قال أنا عايز زى ما تكون الكلمة دى مش موجودة فى الدنيا».

مات أحمد، مات وعمره ثمانية وثلاثون عامًا، أراد أن ينهى حياته العادية جدًا، البسيطة جدًا والتى تتشابه مع حيوات ملايين البشر ولكنه أراد نهاية مؤلة له ولنا، أراد أن يقول: «أنا موجود تأملوا موتى المفاجئ، تأملوا بوجع موت هادئ لتشعروا أننى موجود وقادر على الفعل، تأملوا يا من لم أشعركم بثقل وجودى وكنتم تصفوننى بالنسمة العابرة، موتى المباغت أردته أن يكون أقوى من ثمانية وثلاثين عامًا كنت فيها كما تقولون كالطيف. فهل شعرتم بعد موتى بوجودي».

لماذا أضع كلامًا على لسانه لم يقله، هل ألومه على موته.

وجدوه ملقى على الأرض ذراعه مفرودة وأصابع يده أيضًا مفرودة تبحث عما تمسك به فلم تجد، حاول فتح باب الحجرة ليخرج منها ولكنه سقط قبل أن يصل إلى الباب، قبل أن يفتحه وقبل أن يخرج وظلت أصابعه مفرودة تنتظر.

جاء الموت يعتصر قلبه بالألم ويمنع دخول الهواء إلى صدره، ولأول مرة



fb/mashro3pdf

فى حياته يصارع، وضع يده اليمنى فوق موضع الألم، وباليد اليسرى المفرودة أمامه حاول أن يبعد شبح الموت بأصابعه التى لم تصل إلى مقبض الباب، وسقط. وجدوه ممدداً يده على الألم والأخرى مفرودة فى الفراغ.

●●●

تخرج «أحمد» فى كلية الهندسة ولم تتركه «حنان» يلتقط نفسه - كما كانت تقول خالتى ملك حتى ينهى فترة تجنيده وتزوجته فور تخرجه، و«حنان» أخت «محسن» زميله فى كلية الهندسة وابنة تاجر كبير وصاحب مصانع من تلك التى أنشئت فى المدن الجديدة.

عاش معها فى قصر من تلك القصور المبنية فى مناطق جديدة خارج القاهرة.

وحتى تضع «حنان» أسرته أمام الأمر الواقع لم تتصل بإخوته ولا بأمه إلا بعد دفنه فى مقابر أسرتها وهى أيضاً مقابر جديدة فى طريق الفيوم، بناها سكان المناطق الجديدة قريبة من قصورهم ومن مصانعهم.

حكت لى «نهاد» يوم أن جاءت لزيارتنا بعد أيام من موت «أحمد» أن «حنان» وبمجرد أن نطق الطبيب الذى أحضر للكشف عليه بـ«البقاء لله» وقفت منتصبة وقالت: «جهزوا المدفن بتاعنا زى ماعاش معايا لازم أندفن معاه» ولما قال لها أبوها: «يا بنتى نشوف لما أهله يحضروا» قالت: «مش من حق حد ياخده منى لا وهو حى ولا وهو ميت أحمد بتاعى أنا».

وصلنا أنا وأمى بعد أذان المغرب فقد أبلغوا أمه أن العزاء فى القصر بعد صلاة المغرب وهى أبلغتنا، ووصلنا إلى المنطقة، وقد عرفنا قصر العزاء من اللمبات المعلقة على مدخله، فالقصور متشابهة.



fb/mashro3pdf

مبانٍ مظلمة محاطة بأسوار عالية، خلفها أشجار كثيفة مرتفعة حتى أنه لا يظهر البناء الذى من المفروض أن يكون هو القصر، وما استطعت أن ألمحه هو البوابات الضخمة المغلقة على القصور، وليس بها صوت سوى نباح الكلاب القادم من خلف البوابات.

كانت بوابة قصر عائلة حنان مفتوحة فدخلنا وسرنا فى ممشى طويل داخل حديقة غير واضحة المعالم بسبب الظلمة، ومن مكان فيها ينطلق نباح كلاب محبوسة، أخبرتنى فيما بعد «نهاد» أن بالقصر كلاباً بوليسية لحمايته وأنهم حبسوها حتى لا تفزع المعزين. فى نهاية الممر «تراس» كبير له عدة درجات رخامية، ومنه دخلنا صالة كبيرة أتصور وأنا أستعيدها من ذاكرتى الآن أنها بحجم القصر كله، وقد رصت فيها كراسى جلست عليها معزيات يرتدين ملابس شديدة الأناقة وتتزين بحلى فى كل الأماكن التى يمكن أن تعلق فيها قطع الحلى التى تشع بأضواء ملونة، وغير المحجبات منهن شعورهن مصبوغة ومصففة بنفس أناقة ملابسهن.

دخلنا، حيت أمى الجالسات وبحثت بعينها بينهن عن خالتى ملك فلم تجدها، واصلت سيرها بخطواتها الواثقة شديدة الأناقة - كعادتها- فقد كانت ترتدى بالطو أسود صوفياً على صدره بروش ذهب أبيض فوق تايير أسود تظهر جونلته من البالطو وتحمل حقيبة جلد سوداء، وفى قدميها حذاء بكعب عال رفيع، فهى وطوال حياتها لم تتنازل أبداً عن ارتداء الأحذية ذوات الكعوب العالية الرفيعة حتى عندما تتغير موضاتها كانت تبحث عنها حتى تجدها، ولم تتنازل أيضًا عن ارتداء التايرات والفساتين التى يصل طولها لتحت الركبة مباشرة، والمكسمة بدقة حول جسدها ووسطها النحيل الذى لم تغيره السنون، وكانت تصبغ شعرها بالحنة السوداء بنفسها، فهى لم ترتد



fb/mashro3pdf

الحجاب، وكانت تتحسر أحياناً وتغضب أحياناً لانتشار الحجاب بين التلميذات المدارس ومعلماتهن. وكانت تقول: «مش عارفه إيه اللى بيجرى المُدرسة تيجى عندى المَدرسة وتستلم شغلها وتبقى زى الوردة، بعد شوية تتحجب وتلبس لبس فظيع، لا يمكن وصفه إلا أنه لبس عرة وبيهدل زى ما يكونوا استسهلوا، ولا خلاص كرهوا الدنيا».

قاومت أمي كثيراً حجاب التلميذات فى مدرستها، أما بين المدرسات فلم تنجح، وأوشك موقفها أن يعرضها لمشاكل مع أولياء الأمور، وحتى إحالتها للمعاش لم تكن تتوقف عن إعلان سخطها والمقارنة بين مدرساتها هى وبين مدرسات هذه الأيام، وتستطرد فى وصف أناقة مدرساتها واهتمامهن بمظهرهن ورائحتهن وشعورهن ومكياجهن وتعدد ماركات العطور والمكياج فى تلك الأيام وتنهى كلامها: «المدرسة قدوة لما يبقى ده شكل المدرسات دلوقتى عايزة التلميذات يبقى شكلهم إيه» ؟

ظللت وأمي جالستين لبضع دقائق حتى مرت علينا فتاة صغيرة عيناها متورمتان من البكاء تحمل صينية عليها فناجين قهوة فسألتها أمي: يا بنتى أمال ملك هانم فين ؟» قالت الفتاة «مع ستى حنان فوق، حالاً حاطلع أبلغها إن لها ضيوف تحت».

عادت الفتاة الصغيرة تدعونا وتقودنا للصعود للطابق الثاني، صعدنا سلالم رخام محاطة بدرابزين معدن بلون الذهب، به فتحات مزينة بتماثيل زجاج ملون داخلها لمبات مضاءة. تنتهى السلالم عند صالة كبيرة بها صالونات ضخمة، أرضها مغطاة بسجاجيد كبيرة، تناثرت بها فازات صينى بحجم كبير وتماثيل بحجم طبيعي، وفى الأركان ترابيزات صغيرة عليها



fb/mashro3pdf

فازات صغيرة وبراويز بها صور لأشخاص بالضرورة لا أعرفهم، وتتدلى من السقف نجفتان كبيرتان من الكريستال، قطعهما كثيفة ومتشابكة وتكاد تقترب من رءوس المارة أسفلهما، ويوجد فى الصالة الكبيرة بالدور الأرضى عدة نجفات مثلهما - سرنا فى ممر طويل به أبواب مغلقة، كان خلفنا فى الجانب الخلفى من الصالة ممر مظلم عرفت من نهاد بعد ذلك أن به أيضًا حجرات مغلقة.

الآن فقط اكتشفت أن ذاكرتى التقطت كل هذه التفاصيل ولم أكن أقصد أو حتى أتصور أنها قد التقطتها واختزنتها بعيدًا عنى وعن إرادتي.

فقد كنت مأخوذة بصور تتداعى أمام عينيّ رحلة حياة عشتها مع أحمد منذ لحظة مولده وهو بين يدى أمى تحممه وتلبسه ملابسه، وأنا طفلة مملوءة بالدهشة من وجود هذا الكائن الصغير الذى يصرخ والذى أتمنى لمسه وأخاف فى الوقت نفسه من لمسه حتى نادت لى أمي: «تعالى يا مها شوفى النونو ده ولد علشان عنده بلبل، كل الأولاد عندهم بلبل زى ده، وأنتِ بنت مفيش عندك بلبل، البنات عندهم لولى فى نفس المكان زى اللى عندك» ركزت عيناى على ذلك الذى جعله ولدًا وليس عندى مثله ومددت يدى لألمسه، اقتربت أصابعى منه لكننى سحبتها ومررت بها على وجهه.

دخلنا حجرة واسعة بها حجرة نوم وكرسيان فوتيه وكتبه وترابيزه مستديرة، وبها بلكونة تطل على الحديقة، ارتمت خالتى ملك فى حضن أمى وبكيتا دون أن تقولا كلمة واحدة، وأدركت أن النائمة فى السرير هى «حنان» كانت غارقة فى النوم إثر حقنة مهدئة، كانت كطفل نائم، صغيرة الحجم ونحيفة وأضفى شحوب وجهها على صغر حجمها مزيدًا من الصغر



fb/mashro3pdf

والضالة، ظللنا جالسات فى صمت طويل أتصور أن كل واحدة منا كانت تسترجع علاقتها بأحمد فى شريط ذكريات طويل استدعى تفاصيل موته المباغت.

فجأة أفاقت حنان من نومها، مسحت بيدها على وجهها وقامت من فوق السرير بشكل آلي، سلمت على أمى وعليّ، ثم اتخذت وضع أو مكانة سيدة القصر ودعتنا للنزول إلى الدور الأول لتجلس مع بقية المعزين، لكن أمى استأذنتها فى الانصراف.

انصرفنا ومعنا خالتى ملك التى أعتقد أنه وصلتها رسالة غير معلنة كما وصلتنى ووصلت أمى أنه لم يعد هناك ضرورة لبقائها، حتى أنها لما سألت عن حفيدتها ابنة أحمد الوحيدة ردت حنان: «كويسة الحمد لله» وخرجنا دون أن نراها أو تعرف جدتها أين هى .

كان إخوة أحمد فى عزاء الرجال فى دار مناسبات بالمنطقة. وكان من المفترض أن يأتوا لتقديم العزاء لحنان ومعهم أقاربنا، ولكن خالتى ملك قطعت الطريق وقالت بصوت قصدت أن تسمعه حنان: «مها اتصلى بحد من أخواتك وقولى لهم ياخدوا الرجاله ويطلعوا على البلد، علشان نعمل عزانا هناك».

فى طريقنا للخروج التقينا بنهاد سلمت علينا، وعرفتنا بنفسها، وأوصلتنا إلى باب القصر، وانتظرت معنا حتى ركبنا العربيات نحن وإخوة أحمد، وغادرنا المكان.

●●●



fb/mashro3pdf

تتسرب التفاصيل من الخدش الذى أحدثته مكالمة نهاد فى ذاكرتى حتى وصلت لأول زيارة أتت فيها «نهاد» إلى بيتنا كان قد مر على موت أحمد عدة أيام، وعدت من عملى فوجدتها فى المطبخ مع أمى تحضران الغداء، مرتدية جلباب بيت من جلابيبي، كانت زيارتها غير متوقعة أو تحديداً مستبعدة حتى أننى أسقطهن من تفكيرى تمامًا هى وحنان وابنتها وقصرهُنَّ.

تغدينا، واستأذنت أمى لتنام ساعة قيلولتها تلك العادة التى ورثتها عنها، استأذنت أنا أيضًا منها لأنام ساعة ودعوتها للنوم فى حجرة الضيوف، ولكنها فاجأتنى وأذهلتنى برفضها القاطع أن تدخل حجرة الضيوف، لدرجة أنها أمسكت بذراعى وضغطت عليه بشدة وهى تكرر: «لأ لأ أوضة الضيوف لا».

أمام هذا التوتر الذى أصابها والذى لم أفهمه صمت وانتظرت أن تقترح هى ما تشاء فطلبت أن ندخل إلى حجرتي.

دخلنا حجرتى وسبقتنى هى إلى السرير، وبمجرد أن تمددنا عليه فتحت علبة سجائر كانت بيدها، وأشعلت سيجارة وأعطتها لى ثم أشعلت واحدة أخرى لنفسها وظلت لدقائق مسندة رأسها على ظهر السرير تتطلع لسقف الحجرة، ثم نفضت رماد السيجارة وبدأت فى الكلام دون مقدمات كأنها تواصل كلامًا بدأناه من قبل:

«حلمت كثيراً أن آتى إلى بيتكم، أمنية لم أجد مبرراً لتحقيقها، وكأنه كان لابد أن يموت أحمد حتى أحققها، عرفت البيت كأننى عشت فيه. وصفه أحمد لي، ووصف أيضًا بيتكم فى البلد، وحكى لى عن طاجن الأرز المعمر بالحمام الذى يأكله من يد خالته عفاف. كان أحمد يسترد نفسه وروحه



fb/mashro3pdf

عندما يأتى إليكم، ويعود كأنه ذلك الطفل الذى تربى بينكم، أو كأنه ذلك الشاب الريفى الذى رأيته لأول مرة فى مدرج إعدادى هندسة، التقينا ولم نفترق أنا وأحمد ومحسن زوجي. عاش معنا الحكاية التى لا أعرف هل مازالت تحدث أم لا، حكاية طفلين هي: «أنا ومحسن». ولدنا فى نفس البيت فى حى عابدين، وكبرنا معًا وأحببنا بعضنا، وعشنا كل التفاصيل التى يعيشها أطفال وشباب الأحياء الشعبية، لعبنا فى الشارع أستغماية وكورة شراب، ووقفت لفريقنا جول، ولعبنا فى رمضان بالفوانيس، وسهرنا نذاكر ونسهر ليالى الامتحانات ومشينا بنات وأولاد من عابدين حتى شاطئ النيل لنأكل ذرة مشوى وترمس، وجلسنا على الكورنيش.

حلمنا، وعاش جيراننا فى الحارة معنا الحلم. حلم الباشمهندسة والباشمهندس، حتى حدثت النقلة الكبيرة فى تجارة أبو محسن من محل قطع غيار سيارات إلى عدة محلات ومن شقة عابدين إلى شقة كبيرة بالمهندسين، ومنها إلى القصر الذى نعيش فيه الآن، كان طبيعيًا جدًا وإنسانيًا جدًا أن ترعبنى هذه النقلة الكبيرة فى تجارة الحاج وحياتهم بالتالي، رعبتنى فكرة أو احتمال تخلى محسن عني، وكان طبيعيًا جدًا وإنسانيًا جدًا أن أشعر بالزهو وأن انتقل أنا أيضًا نقلة نفسية مختلفة لأنه لم يتخل عنى وتزوجني، وكأننى سندريلا المنقولة إلى قصر الملك، وتزوجنا، كان الحاج أبوه قد أعد كل شيء، بنى القصر، لحنان جناح، ولمحسن جناح، وله وللحاجة الله يرحمها جناح، كل شيء كان معداً، حتى حجرات الأطفال الذين سيأتون، والموبيليا والستائر والنجف والسجاجيد، لم يؤخذ رأيى فى شيء لأن كل شيء كان موجوداً، وأنا لم أطلب شيئًا آخر فما جاء كان فوق أحلامى وطموحاتي، حتى طموحاتى كمهندسة فأنا قبل أن أكون مهندسة



fb/mashro3pdf

فأنا ابنة عامل فى مصنع الحديد والصلب لهذا كان حلمه الذى أصبح حلمى أنا أيضًا هو أن أكون مهندسة نحن خمس أخوات ربانا أبى وعلمنا كلنا، ولا أعرف كيف استطاع، إنها بطولة، ويظل أبى أهم رجل فى حياتى عقله وخبرته باتساع الحياة والدنيا كلها، سألنى قبل أن أتزوج السؤال الذى لم أجب عنه أبدًا، ولا أفكر فى أن أجيب عنه: «هل الذى ستتزوجينه الآن هو محسن ابن الجيران الذى أحببتيه وأنتِ طفلة أم إنه أصبح إنسانًا آخر؟» وأجاب نيابة عنى بأنه ليس هو نفسه متأكدًا، ولكنه بالضرورة حدث اختلاف ما، وهو لا يعرف حجم هذا الاختلاف، وواصل كلامه بأنه إذا كان محسن الجديد هو من أريد أن أتزوجه فلأتزوجه ولكن على أن أفكر قبل أن أقرر. حتى لا أتزوج الماضى والذكريات - تحديدًا قال هاتين الكلمتين- وأفاجأ بحاضر وواقع مختلف قد لا يلائمنى ولا أجد فيه الرجل الذى أحببته.

لم أفكر وتزوجت محسن وعشت فى القصر، عشت كل تفاصيله ركبت المراجيح فى الجنينة، وشربت الشاى الكامل المقدم لى مع انحناءة السفرجي، شربته تحت البرجولا وتحت تكعيبات العنب، وسبحت فى حمام السباحة، وأقمنا السهرات فى الروف المحاط بالزجاج والورد. عشت فى تفاصيل ما خططه الحاج لأسرته تفاصيل أعدها بدقة وبقوة لا تسمح لأحد منا أن يفكر فى الإفلات من قبضته، حتى أولادنا لهم مكان محجوز داخل القبضة القوية، وفى القصر عشنا كما خطط الحاج.

وفى العمل كان قد حدد لكل واحد مسئولياته، فأنا وأحمد حملنا مشاريعه ومصانعه على أكتافنا من أول أجور العمال حتى التسويق وصيانة الآلات وتحديثها، وشراء الأراضى والبناء. أدرنا مشروعه تحت عينيه وبتعليماته، هو خبرة غير محدودة دائمًا أراها مذهلة، عملت معنا لفترة



fb/mashro3pdf

«حنان» فى الإدارة المالية، أشرفت على إدارة يعمل بها أساتذة جامعة كل فى تخصصه محاسبة وضرائب وتأمينات وتسويق، فمن وجهة نظر الحاج أنه من الضرورى أن تمسك ابنته خريجة التجارة بالخيوط معه كان يقول: «ده ملككم حافظوا عليه» ولكنها تركت الشركة بعد وفاة أمها لأنه ومن وجهة نظر الحاج رأى ضرورة وجود من يدير البيت باعتباره امتداداً للشركة، وتسلم محسن العمل فى إدارة الشركة بعدها.

غرقت فى حياتى التى رسمها الحاج ووضع خطوطها ولم أقف لحظة لألتفت خلفى لأيامى التى انقضت، انفصلت تمامًا عن رائحة طفولتى وصباى وبيت أبى وصوت الحياة فيه، كأن كل هذا كان زفرة انطلقت وتاهت فى حالة اللهاث الدائم التى أعيشها.

لم أدرك أننا - أحمد وأنا- مجرد ترسين فى آلة الحاج: ترسين ملحقين بابنه وابنته».

قطعت نهاد كلامها وصمتت أشعلت سيجارة ثم واصلت كلامها: «كل ما حكيته عادى جداً ويحدث مع الكثيرين فى مثل هذه الظروف ولا تتصورى أننى تمنيت ولا لحظة أن أغيره أو أن أتخلى عن هذه الحياة، أو أن أعيش حياة غيرها مختلفة أو أن أتنازل عن أية تفصيلة من تفاصيل حياتى فى القصر أو الشركة، ببساطة أصبحت جزءاً من المشروع الكبير وأصبح المشروع الكبير هو كل حياتي، آلة ضخمة تدور وتطن وتكبر وتتسع، ونحن ندور معها بانتظام دورانها، ولكن كان هناك شعاع يظهر فجأة ثم ينطفئ، شعاع يتسرب بين خطوط وتقاطعات الحياة، شعاع كخيط الضوء الذى يتسرب من ثقب فى شباك مغلق، كان الشعاع هو علاقتى بأحمد التى كانت خيط الضوء المتسرب من ثقب صغير فى جدار حياتى».



fb/mashro3pdf

التفتت لى وكأنها مترددة فى مواصلة الحكى وقالت: «لا أعرف كيف أشرح لك ولا ماذا أحكي، كل ما أريده بشدة هو أن أحكي.

أن أحكى أن ما تبقى منى أنا ابنة عابدين وطالبة كلية الهندسة كنت أراه فى عينى أحمد اللتين كانتا تستعيدان بريقهما وتضيئان وأنا أثرثر معه فى أوقات الراحة من العمل، أو وأنا أطلق نكتة أو تعبيراً يذكرنى ويذكره أننى ابنة عابدين، كان يبتسم ابتسامة طفل وهو يحكى لى ونحن عائدان من موقع من مواقع العمل عن يوم من أيام طفولته.

كنا نتابع إنشاء قرية سياحية جديدة وكنت أنا وهو نقيم فى قرية مجاورة، وكنا نقضى أمسياتنا على البحر، صوت الموج ولسعة برد خفيفة والسماء مضاءة بالنجوم، وضوء من بعيد لسفينة تتحرك، وهو وأنا نجلس على شاطئ البحر حكى لى عن أول يوم له فى المدرسة الابتدائية، وحكى لى عندما نادى لأمك بخالتى عفاف، وكيف شعر إنه تائه وإنه تمنى أن يجرى من أمامها ويترك المدرسة عندما نهرته قائلة: «أبله عفاف يا ولد» وحكى لى وهو يتطلع ليديه عندما ضربته بالمسطرة عليهما كما ضربت زميله لأنهما تشاجرا معًا وانتظرته فى بيتكما وظلت تقبل يديه وتقول له: «سامحنى ياأحمد كان لازم أتصرف بالشكل ده».

كنا نسير على الشاطئ صامتين وفجأة انحنى والتقط محارة ملقاة على الرمل نظر إليها ثم ألقى بها بقوة إلى البحر وقال: «أشعر أنى محبوس فى قفص ولست قادراً على الإفلات منه».

قررنا دون إعلان أن نسترد حريتنا المسروقة.

كان يبدأ الكلام بيننا، الكلام الذى أشم معه رائحة الفول القادمة من عربية الفول فى أول شارعنا، ورائحة عجينة الكنافة لحظة سقوطها على



fb/mashro3pdf

صاجة الفرن، وطعم البليلة فى ليالى الشتاء، وأرى وأنا بين ذراعيه شعاع الشموع المشتعلة فى فوانيس طفولتنا فى حوارينا الضيقة، وأشم فى عرقه المتساقط على جسدى رائحة كعك العيد وهو خارج من الفرن، والذى حملته فى الصاجات مع عيال الحارة وسهراتنا ونحن ننتظر دخوله عجينة خامرة فى حلق الفرن المشتعل، وننتظر خروجه ساخنًا ولذيذًا.

وكان يمتص فى كأس النبيذ بقايا طعم حياته، ويشم على جسدى رائحة اللبن المحلوب ويرى «رغاويه» على وجه «المترد»، وبين خصلات شعرى رأى الزرع فى الغيطان وشم رائحته.

لم يحتمل أحمد مواصلة السير على الحبل الممدود بين القصر وغيطان بلدكم، لم يحتمل مواصلة السير على حبل يتأرجح، طرفه الأول فى براح الدنيا واتساعها، وطرفه الثانى فى قبضتى يدى حنان وأبيها، كان يجد فى حريتنا المسروقة طوق للنجاة، من عذاب الأسر خلف أسوار القصر، يعذبه أصوات الكلاب المتوحشة التى تسكن القصر معنا، وأصوات فحيح الثعابين السامة التى تسكن الجنينة، ويترك القصر ويهرب فى مواعيد حضور الرفاعية الثابتة والمنتظمة لإخراج الثعابين من جحورها. ما يؤلمنى أننى لم أستطع أن أكون قارب نجاته، كنت قاربًا للهرب والعودة، فلم أكن أريد أكثر من الهروب ثم العودة.

فأنا وبمنتهى الوعى والإرادة أريد الهرب المحدد بوقت وبنفس القوة أريد العودة للقصر.

●●●



fb/mashro3pdf

امتلأ فراغ البيت بالحكايات وببشر الحكايات، امتلأ بأصواتهم وخطواتهم ومصائرهم، لم تتركني إذًا أمي وحيدة تركتني معهم. فأنا لم يكن لي عالم خاص بي التصقت بها كأن الحبل السري بيننا لم ينقطع، ببساطة عشت ملحقة بها فمنذ طفولتي والناس في بلدتنا لا يذكرون اسمي إلا نادرًا، الكبار يقولون: «بنت عفاف» والصغار يقولون: «بنت الأبلة عفاف» وعندما انتقلنا للقاهرة الجيران أيضًا ألحقوني بأمي فالكبار يقولون «بنت الست عفاف» والصغار: «بنت طنط عفاف».

لم يكن لي أصدقاء ولا أعرف كيف لم تنتبه أمي لكوني بدون أصدقاء في مثل عمري وهي التي رتبت حياتي بدقة ولم تترك تفصيلة تخصني دون أن تهتم بها، ربما اعتقدت أن التصاقي بها وبعالمها يكفياني، وبالفعل أنا اكتفيت بعالم أمي وصديقاتها وأقاربها الذين لم تنقطع علاقة أمي بأحدهم منذ وعيت على الدنيا وحتى بعد انتقالنا للقاهرة فلم يكن البيت يفرغ من القادمين من البلد ما بين مريض قادم للعلاج أو أهل مريض قادمين لزيارته في المستشفى، كان بيتنا محطة الوصول للقاهرة والانطلاق لقضاء المصالح، وكل الزوار والوافدين على بيتنا عند أمي أقاربنا بالضرورة، يكفي عندها أن يكونوا من بلدتنا حتى يكونوا أقاربنا.

تهتم أمي بالقادمين من البلد وبأبنائهم الملتحقين بالجامعة والذين اعتادوا زيارتنا أيضًا على فترات متقاربة، تهتم دائمًا بأن تجهز أصنافًا عديدة من الطعام وتضعها في الفريزر وتردد: «أحسن حد ييجي من البلد فجأة»، فهي طباخة ماهرة ويقول أقاربنا عن طعامها: «لو شوية ميه من أيد عفاف يبقى لها طعم تاني».



fb/mashro3pdf

حرصت أمى على علاقتها وعلاقتى بالبلد، حتى بعد انتقالنا للقاهرة اعتدنا أن نقضى الإجازات هناك، وأيضًا أول أيام رمضان والأعياد، وأيا كانت درجة القرابة بيننا وبين من يتوفى من أهل البلد فإنها تسافر فور أن تبلغها خالتى «ملك» لتقديم واجب العزاء، أما الأفراح فلم تكن تسافر لحضورها فيما عدا أفراح أولاد أشقائها وأولاد خالتى ملك، أما الأقارب الأبعد فهى لا تسافر لحضور أفراحهم ولكنها تردد أن ابن أو بنت فلانة تزوج وأنها تريد الذهاب للبلد: «علشان تنقطهم»، وفعلاً عندما نعود للبلد أجدها تردد عدة أسماء، وقد جهزت مظاريف وضعت فيها «النقوط» ومرت على بيوتهم «بالنقطة».

أوصتنى ألا أقصر فى واجب عزاء أو تهنئة، وأوصتنى ألا أقطع عادة السفر للبلد فى رمضان والأعياد، وأوصت أقرب إنسان لها - بعدي- بأن يراقب تنفيذى لوصيتها وكان يضحك كلما كررت وصيتها ويقول: «طيب أنا بقى أوصى مين ؟» لم يكن «الأستاذ وديع عريان أقرب إنسان لها هى فحسب بل لى أنا أيضًا، فقد وعيت على الدنيا ووجدته بيننا، وكنت ألتقط وأنا صغيرة بعض الحكايات التى تخص دعاوى قضائية تخص أمى هو الذى تولى الدفاع فيها، وعندما انتقلنا للقاهرة كان يختفى لفترات ثم يظهر وكنت أعرف من الأحاديث الجانبية أنه كان فى السجن، وأعرف أنه خرج منه.

●●●



fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

# خالتى روحية

قبل أن يدق جرس المنبه شعرت بيد تهزنى لتوقظنى من نومى رأيت «ستى خضرة» واقفة بجوار سريري، وتواصل هزى، حاولت أن أنهض فلم أستطع، ولم أستطع أن أحرك يدى لألمسها، تحول جسدى وأعضائى إلى كتلة صماء ثقيلة، رن جرس المنبه، فتحت عينىَّ، شعرت أننى غير قادرة على الحركة بحثت خائفة فى أرجاء الغرفة عنها فلم أجدها. أُغمضت عينىَّ رغمًا عني، لإحساسى بثقلهما، بشكل مرهق ومخيف.

ظللت خائفة، وظل جسدى ثقيلاً، وجفناى أيضًا ثقيلين. زاد من خوفى رؤيتى لستى خضرة، رأيتها جالسة - كما كنت أراها دائمًا- فى أحد أركان الغرفة مرتدية الثوب الملس الأسود والطرحة السوداء فوق رأسها ساندة ظهرها إلى الحائط، طاوية قدميها تحت ثوبها فاردة عليهما حتى أصابعها ذيل الثوب، يشغل جسدها الضامر النحيف مساحة ضيقة، تبدو ملتصقة بالأرض، وظهرها ملتصق بالحائط، لا يميزها عن كتلة صغيرة ثابتة من السواد ملقاة على الأرض سوى وجهها شديد البياض، والتجاعيد المحفورة عليه.

وعينان بنفسجيتان لا تتحركان تنظران أمامهما فى خط مستقيم إلى لا شىء محدد.



fb/mashro3pdf

وأنا أصارع صراعى الأول مع الحياة لأخرج من رحم أمى إلى الدنيا، كانت ستى خضرة تطرق الباب بعد صلاة الفجر، وأمى تضغط بكل ما بداخلها من قوة لتساعدنى حتى ننفصل ونصبح هى وأنا، دخلت وجلست كعادتها فى ركن الغرفة، وظلت باقية فى مكانها لم تتحرك منه إلا عندما ألقمتنى أمى حلمة ثديها، قامت ووضعت قدميها فى حذائها وخرجت من الغرفة إلى الصالة كأنها لا ترى أحداً وجدتى خلفها تنادى «يا عمه رايحه فين يا عمه استنى لما نفطر»، أسدلت الطرحة على وجهها وواصلت سيرها كطيف يأتى ويذهب بلا موعد، تأتى وتجلس على الأرض مسندة ظهرها للحائط لا تنطق بكلمة، ولا تتحرك من مكانها تضع جدتى كوب الشاى أمامها وتتركها تشرب منه رشفات قليلة أحياناً، وأحياناً أخرى تشربه كله، تنتظر انشغال من فى البيت بأمورهم حتى تأخذ رشفة من الكوب وتضعه على الصينية إن سمعت حركة قادمة، وتفعل الشىء نفسه عندما تقدم لها جدتى الطعام، وكانت جدتى تخرجنا من الحجرة حتى تأكل لقيمات قليلة، وتكرر دائماً وهى ترفع صينية الطعام: «يا عمه الأكل زى ما هو أنتِ عايشه بس ازاى كده»، وكانت فى أحيان كثيرة لا تقرب الطعام الذى وضعته لها جدتى وتنهض لتذهب فجأة كما جاءت فجأة، ولما كبرت توليت مهمة توصيلها إلى بيتها مصحوبة بصوت جدتي: «يا عمه أنتِ رايحه فين بس لو تسمعى كلامى وتفضلى معايا هنا، ياللا يا مها امشى مع ستك لحد ما توصل البيت أحسن تتوه ولا تتعب فى السكه» وأسير خلفها وهى أمامى لا تلتفت حولها أو تتطلع لأحد حتى تصل للبيت، لا تغير طريقها، الطريق نفسه فى الشوارع نفسها الطينية الموحلة الضيقة على بيوتها المبنية بالطين الواطئة والتى هبطت حتى وصلت نوافذها لمحاذاة أقدام المارة فى الشارع.



fb/mashro3pdf

الطريق نفسه لا تغيره رغم وجود طرق أخرى أكثر اتساعًا وقربًا من بيتها، وطوال الطريق يلقى عليها المارة والجالسون أمام بيوتهم التحية: «العواف يا خالة خضرة»، «اتفضلى يا عمه» وهى لا ترد حتى تصل، تدفع باب الحوش وتدخل إلى البيت من بابه المفتوح - مثل كل بيوت الفلاحين- ويشعر من بالداخل بها ويأتى صوته أو صوتها: «أنتِ جيتى يا أمه» وأعود أنا بعد أن أسمع صوت من تسلمها منى.

أستعيد الآن مشاعر الخوف من صمتها ومنها، ولم أكن أعرف تفسيرًا لهذا الخوف، ربما كان سببه صمتها، ربما الحكايات التى سمعتها عنها وكانت تنتهى أو تبدأ بـ:«اللهم لا اعتراض، جالها لطف بعد ما مات ابنها» وأدرك أن اللطف هو الجنون وأرتبك أو أصاب بالرعب من أن أفقد عقلى وأجن مثل «ستى خضرة»، فماذا يمنع وهى كما يقولون كانت: «ست كاملة عمرها ما طلعت العيبة من حنكها»، ولكنها فى الوقت نفسه ليست مجنونة ولا تفعل كما يفعل المجانين، ويظل الجنون وفقدان العقل هاجسًا داخليًا مرعبًا ربما مازال يسكننى حتى الآن.

«ستى خضرة» عمة جدتى أم أمى رغم أنها ماتت منذ سنوات لكنها عاشت فى ذاكرتي، كما عاشت فى حياتي، أتذكرها فجأة وتشغل حيزًا كبيرًا من تفكيري، ثم تختفى فجأة حتى تعود وتظهر وتلازمنى أياماً وتختفي، وفى حضورها أتذكر تفاصيل ما سمعته عنها.

الحكايات التى تبدأ أو تنتهى بـ: «من ساعة ما ابنها مات وهى ما بتنطقش» وبعد هذه الجملة تمتلئ الحكاية بالخيوط المتشابكة: «كانت عيله لما ماتت المرحومة أختها الكبيرة، زوجوها زوج أختها قبل الأربعين علشان مايدخلوش مرة غريبة على عيال أختها».



fb/mashro3pdf

كانت أكبر من أكبر أبناء أختها بعام واحد كانت طفلة تلعب مع الأطفال فى الشارع ساقوها لترعى وتربى أطفالاً مثلها، ولتعاشر رجلاً كان زوج أختها بعد أربعين يومًا، وكان أطفال أختها المبرر المتواطئ به عليها.

أنجبت بعد زواجها ابنها الوحيد الذى سقط ميتًا فى الشارع وهو يجرى بسرعة ليلحق بالقطار فى المحطة، ولما وصل الخبر وقبل أن يأتوا بجثته من الشارع إلى البيت حاصرها أولاد أختها وانتزعوا خاتمها وبصمتها على أوراق بيع منها لهم فى حقها فى ميراثه وميراث زوجها الذى مات بعد أن وضعت طفلها بعام واحد، سلمتهم ما طلبوه وقالت: «جيبوه أشوفه قبل ما تدفنوه» وبعدها لم تنطق ولم تخرق شرطًا من شروط ابن أختها الأكبر الذى حددها فى جملة: «ملهاش غير لقمتها وكسوتها وتقعد فى أوضتها معززة مكرمة لحد ما يطلع السر الإلهى» وعاشت فى حجرتها لا يعرف أحد متى تأكل ولا ماذا، تدخل لها واحدة من زوجات أبناء أختها صينية الطعام تأكل أو لا تأكل لا يهتم أحد، وكانت تغسل ملابسها بنفسها وتستحم يوميًا صيفًا وشتاءً، ولكنها لم تضع مشطًا فى شعرها منذ مات ابنها.

سألت جدتى مرة لماذا لم يأخذها أخواتها أو تأخذها جدتى لتعيش معهم؟. فقالت: «عيب يا مها الناس يقولوا أولاد أختها وأخوات ابنها طردوها من بيتها».

تعجبت أو استنكرت هذا المنطق لمجرد العيب أو مراعاة ما سيقوله الناس تترك المسكينة بين من سرقوها وسرقوا ابنها حتى لم يحترموا حرقة قلبها عليه وتركوها ترى فى وجوههم كل لحظة حياتها وقسوة ما تعرضت، ولما قلت لجدتى كلامًا بهذا المعنى أو قريبًا منه بما يتناسب مع عمرى وقتها



fb/mashro3pdf

قالت: «هى دى الأصول يا مها».

بدأت أتماسك بعد أن توقف شريط ذكرياتى وقبل أن أرفع الغطاء عنى رن فى أذنى صوت «ستى خضرة» الذى لم أسمعه طوال حياتى فقد سمعته وهى تهزنى وتنطق باسم خالتى «روحية» بل إننى رأيت أيضاً خالتى روحية تجلس فى طرف الحجرة فى الوقت نفسه الذى شعرت فيه بيد «ستى خضرة» وهى تهزني، فعلاً كانت خالتى روحية جزءاً من الحلم أو الكابوس الذى صحوت عليه فى الصباح.

كانت تجلس وفى يدها خيوط تغزل بها شبكة لصيد السمك.

●●●

عشت يومى فى قلب الصور والحكايات، تمر أمامى وأسمع الأصوات التى سبق وأن سمعتها، صوت أمى وهى تشد من يدى خالتى روحية شبكة الصيد التى تغزلها: «سيبى الزفت ده صوابعك اتهرت».

كانت زيارات أمى لخالتى روحية لها نفس الطقوس التى تمارسها أمى قبل خروجها من البيت - رغم قرب بيتها من بيتنا- تأخذ حماماً سريعاً، وتخرج من الحمام بملابسها الداخلية النايلون الملتصقة بجسدها الملفوف الذى يلمع جلده ببقايا مياه لم تجفف بشكل كامل هذا إذا كنا فى الصيف، وفى الشتاء تخرج من الحمام بالروب الثقيل، وصيفاً وشتاءً وقبل أن تخرج تضع بودرة تلك بين فخذيها وتحت إبطيها، ثم تلبسنى ملابسى وتمشط شعري، وبعد أن تنتهى مني، ترتدى ملابسها، فى الصيف فساتين أو تاييرات دون أكمام، تصل لأسفل الركبة بقليل وتضع حزاماً حول خصرها



fb/mashro3pdf

وفى الشتاء فساتين وتايرات، وجوارب شفافة، أحيانًا سادة، وأحيانًا منقوش عليها رسومات ودائمًا لها لونان أسود أو «بيج» بلون الجلد، وتضع مكياجا كاملاً، أتذكر علبة البودرة وأتذكر رائحتها، وتضع عطرًا لا أتذكر ماركته لتنوع ماركات عطورها، ولا تخرج بدون أقراط فى أذنيها وعقد أو سلسلة فى عنقها وخواتم فى أصابعها وأساور جنيهات ذهب أو تعابين أو غوايش فى معصمها. رغم صعوبة السير بها فى شوارع بلدتنا فى ذلك الوقت وحتى الآن لم تكن تستعمل سوى أحذية بكعوب عالية ورفيعة وتمسك حقيبة يد لون الحذاء كقاعدة لم تخرج عنها طوال حياتنا معًا.

كانت تستعد للخروج بعد عودتها من المدرسة وتناولنا الغداء ونومنا ساعة القيلولة دون أن تخبرنى أين ستذهب، ولأننى رأيت خالتى «روحية» كما رأيت «ستى خضرة» فى نومى فقد امتلأ يومى بخالتى روحية التى ظلت لغزًا محيرًا بالنسبة لى ولم أجد إجابة عن سؤالى الذى ربما سألته وأنا صغيرة وهو كيف تزوجت زوجها وكيف عاشت معه فى بيت أهله، ربما أجد الإجابة الآن وأنا أسترجع ما اختزنته ذاكرتى.

هى ابنة خالة أمي، مولودتان فى العام نفسه والتحقتا معًا بالمدرسة القديمة نفسها.

كنت فى كل مرة نزورها أقارن بين بيت أبيها وبيوت أخواتها، والبيت الذى تعيش فيه مع أسرة زوجها والذى مازال موجودًا حتى الآن كما هو. واحد من البيوت المعدودة المبنية بالحجر فى بلدتنا فى ذلك الوقت عمره الآن أكثر من مائة عام، له قرانده كبيرة تطل على الشارع هى مدخل أول بدون باب ولا سور للبيت، مزينة بأعمدة وأفاريز خشب محفور عليها زهور وطيور انمحت الآن بفعل الزمن، أرضها مبلطة «بالموزاييك» الملون، تنتهى بباب



fb/mashro3pdf

خشبى ضخم بضلفتين يفتح على صالة واسعة بها أربع كنبات اسطمبولي، وستة أبواب ما بين مفتوحة ومغلقة لست غرف يعيش فى كل غرفة منها أخ من أخوات زوجها هو وزوجته وأولاده، وهذا الجزء من البيت مفصول عن الجزء الثانى المبنى بالطوب النى ويفصلهما باب كبير يفتح على حوش واسع تقضى فيه نساء العائلة وأطفالهن يومهن، النساء وبإشراف حماتهن تقوم كل واحدة بعمل مختلف، واحدة تعد وتطبخ الطعام على الكانون، وأخرى تجلس أمام طشت الغسيل وبجوارها أكوام من هدوم العائلة كلها، وواحدة تنقى كميات من الأرز أو القمح وأخرى تنظف الفلفل الأحمر وتخليه من البذور لتجفيف بعضه وطهى البعض الآخر لتخزينه من العام للعام ونسميه الفلفل المطبوخ ويشبه الصلصة، ومرات أخرى تقوم أكثر من واحدة بعصر الطماطم لطهيها وتخزينها فى برطمانات أيضًا، وهى الصلصة مع الفلفل، وما بين الخبيز فى غرفة الفرن وطهى طعام العشاء للرجال العائدين من الغيط وغسل ملابسهم ووضع الطعام للطيور وتنظيف أعشاشها وتجهيز الزريبة لاستقبال البهائم العائدة مع الرجال، ما بين هذه الأعمال المقسمة بدقة على النساء، كانت خالتى روحية تجلس على حصيرة ممزقة بعد أن تنهى حصتها من «شغل» اليوم تغزل شبكة صيد، وحولها الأطفال الذين لم أعرف إطلاقاً مَنْ ابن مَنْ كلهم أطفال فى أعمار متقاربة يرتدون جلابيب مغلق طرفها من الخلف بدبوس فى آخر نقطة يمكن أن يصل إليها حتى لا يلوثها الطفل الذى يمكن أن يتبرز فى أى وقت وفى أى مكان.

تغزل شبكة صيد وحولها أطفال يجرون خلف الدجاج والبط ويطاردون أرنبًا يطل برأسه ويختفي، أو يضعون أيديهم وأقدامهم فى المياه المتراكمة حول الزير المغطى بغطاء خشب فوقه كوب نحاسى يستخدم فى جلب الماء



fb/mashro3pdf

من الزير للشرب منه، تجلس ويجوارها دائماً طفل نائم يحط الذباب على وجهه، أحياناً يكون ابنها وأحيانا أخرى يكون لواحدة من زوجات إخوة زوجها. وهؤلاء هم الصغار أما الأكبر سناً فمع آبائهم فى الغيط.

رأيتها فى الحلم كما كنت أراها دائماً تجلس فى مكانها الذى لا يتغير تغزل شبكة صيد، وكأنها تغزل ثوب عرسها، وجه هادئ لا تغيب عنه الابتسامة رغم نحوله الشديد، هادئة لم أسمعها مرة تشكو، طويلة ونحيلة وتسير ببطء لتدارى أو للتغلب على عرج فى إحدى ساقيها، لا ترتدى سوى الملابس الملونة بألوان واضحة وزاهية، ونظيفة، تبدو كأنها خارجة فى اللحظة نفسها من الحمام حتى أن من يقترب منها يشم رائحة الصابون والماء على جسدها، وكانت مثاراً لتندر أهل زوجها لحرصها على الاستحمام اليومى بعد أن تنهى حصتها فى أعمال المنزل.

كانت مختلفة عن بقية عائلة زوجها، مهذبة ولطيفة لا تنطق بكلمة نابية أو خارجة أو جارحة أو عنيفة، حريصة دائماً على أن تبدو فى وضع مختلف بصفتها ابنة تاجر قطن ميسور، وإنها تقرأ وتكتب، وإنها هكذا تربت فى بيت أبيها، جملة ترد بها إن صدر كلمة سخرية من حماتها أو أحد من أخوات زوجها أو زوجاتهم، سألتُ أمى عن سبب عرجها فقالت لى إنها سقطتْ من فوق السلم وهى طفلة وكُسرت ساقها وجبرها لها المجبراتى خطأ نتج عنه هذا العرج، وخرجت بعد هذه السقطة من المدرسة، وبقيت فى البيت تكبر بالطول، كما كانوا يقولون عنها، فقد كانت بالفعل طويلة ويزيد الإحساس بطولها نحافتها الشديدة التى كانت تحاول مداراتها بارتداء جلابيب وفساتين منقوشة وواسعة وكان يتدلى عقدٌ من الزجاج الأسود حول صدرها ربما لتدارى به عظامه البارزة، وكانت ترفع شعرها لأعلى فلم أرها



fb/mashro3pdf

تضع غطاء رأس أبداً لا بإيشارب ولا منديل ولا طرحة سوداء مثل بقية نساء البيت.

وتستدعى التفاصيل المتعلقة بحياة خالتى «روحية» التى انسكبت من ذاكرتى واحدة من الزيارات التى اصطحبتنى فيها أمى إليها، يومها كانت أمى ترتدى فستاناً أحمر، وكنت أرتدى فستاناً أصفر بحمالات مطبوع عليه فراشات بيضاء من قماش الأورجانزا المستورد من سوريا. استقبلنا نساء البيت بالقبلات والترحاب، وبهش الطيور من حولنا وزجر الأطفال الذين كانوا يحاولون خطف عروستى وشد حمالات وذيل فستاني. جلسنا بجوار خالتى روحية على الحصيرة حتى أتت واحدة من النساء تحمل صينية نحاس عليها كوبا شاى، الصينية مبلولة بالماء وبقايا السكر عالقة بحلقى الكوبين والذباب يحط على الصينية وعلى حلق الكوبين، ظلت الصينية أمامنا والذباب يتكاثر عليها حتى مالت أمى على خالتى روحية التى كانت تواصل غزل شبكة الصيد وقالت لها الجملة التى سمعتها منها كثيراً بصوت منخفض حتى لا يسمعها أحد: «سيبى الزفته دى وقومى نقعد فى أوضتك صوابعك اتهرت».

كومت خالتى «روحية» ما غزلته من الشبكة واتكأت بيد على الأرض ورفعت الأخرى لأعلى وفردت جسدها لتنهض. سارت تحمل صينية الشاى وأنا وأمى خلفها إلى حجرتها الخاصة وهى واحدة من الحجرات المفتوحة على الصالة فى أول البيت.

حجرة «خالتى روحية» معطرة برائحة البخور، ورائحة البلاط «الممسوح». استقبلتنا رطوبة ناعمة، جلست بجوار أمى على الكنبة المغطاة بفرش ملون بألوان زاهية، نظيف ومكوي، وبجوار الكنبة سرير نحاس بأعمدة عالية



fb/mashro3pdf

مغطاة من أعلى بناموسية تُل مشدودة حول أركان السرير الأربعة، ناموسية بياضها ناصع مشرب بزرقة خفيفة لشطفها فى ماء بالزهرة الزرقاء فى منتصفها كيوبيد يحمل أسهمه وحوله حوريات الجنة، أمام الكنبة تسريحة بمرآة كبيرة تلمع كالبلورة بلا ذرة تراب أو بصمة أصبع، فوق التسريحة مساحيق تجميل كالتى تستخدمها أمى وزجاجات عطر من الماركة نفسها أيضًا، بجوار التسريحة دولاب خشب قشرته تلمع أيضًا كأنها مرآة، فى منتصف الحجرة ترابيزة صغيرة مغطاة بمفرش مشغول بخيوط السيرما وفى منتصفها قازة بها زهور بلاستيك وأخرى من ورق الكوريشة الملون، وعلى الجدار معلق لوحات كانڤاه وايتامين، مرسوم عليها زهور وروميو وجوليت ولوحة لامرأة عارية نائمة على سرير، وصورة ملصوقة على ورق كرتون مقوى عرفت لما كبرت قليلاً أنها لمارلين مونرو، معلق بجوارها ورقة كرتون أكبر ملصوق عليها صور فاتن حمامة وشادية ومريم فخر الدين وليلى مراد وهند رستم بملابسهن الواسعة المفتوحة الصدر، التى تمنيت ومازلت أتمنى حتى الآن أن ألبس مثلها. الحجرة بها شباك ضخم يطل على الشارع معلق عليه ستارة تل بيضاء. سرير خالتى روحية مفروش دائمًا بملاءة ملونة ومطرزة.

وبعد أن جلست أنا وأمى ظلت خالتى روحية واقفة وهى تحمل الصينية المبلولة وعليها كوبا الشاي. وقفت مرتبكة وكأنها لا تعرف أين تضع الصينية ولا كيف تتخلص منها، قامت أمى وأخذتها منها ووضعتها على الترابيزة بعنف، قائلة: «هاتى الصينية دى أنا مش حاشرب شاي، بلاش قرف أنا مش عارفه إيه العيشة اللى انتِ عايشاها دى؟» وعادت إلى مكانها



fb/mashro3pdf

ساحبة خالتى روحية من يدها وأجلستها بجوارها وقالت: «من غير كلام كتير يا روحية، إيه اللى أنا سمعته ده، انتِ عايزة أمك تموت بحسرتها، ولا عايزة الناس تتفرج على إخواتك الرجالة، ويقولوا روحية بنت الحاج عبد اللطيف حتوقف إخواتها فى المحاكم، أرضك ميراثك فى أبوكِ خدتيها وبعتيها حتة ورا التانية، ومعدش باقى لك غير حقك فى بيت العيلة والأرض الفاضية اللى وراه عايزة تبيعى حقك فيهم كمان للأغراب وتقسمى بيت أبوكِي، ده هو اللى فاضل لك يا روحية على الأقل على حسه بتروحى تطلبى من أمك وإخواتك اللى أنتِ عايزاه بعين قوية، ولا خلاص حتبيعى هدومك علشان سى «علي» جوزك يلعب قمار ويشرب الهباب اللى بيشربه كل ليلة. ليه يا «روحية» كده، اعقلى اسمعى كلام إخواتك خلى لكِ حاجة تسترك وتتركنى عليها، وإخواتك مستعدين يبنوا لك فى نصيبك فى أرض الجرن بيت بحقك فى بيت العيلة، وتروحى انتِ وولادك تعيشوا فيه بدال ما أنتِ عايشه فى وسط البهايم دول وفى الزريبة دي، وتبقى عايشة أنتِ وأولادك فى حمى إخواتك وخير أبوكِي، الأرض وقلنا أهم إخواتك اشتروها لكن البيت لما يرفضوا يشتروا علشان مصلحتك ومصلحة عيالك تقولى لهم بينى وبينكم المحكمة، إزاى يا بنت الأصول، إزاى يا أخت الرجالة. أنتِ يا روحية تعملى كده، فين دهبك يا روحية اللى جيتى بيه من بيت أبوكى ومش مكسوفة من العقد القزاز ده اللى انتِ معلقاه فى رقبتك، انتِ بنت الحاج عبد اللطيف تصغرى نفسك كده، عايزه إيه، عايزة تموتى أمك وتحطى الطين على راس إخواتك».

ظلت خالتى روحية صامتة لا تنطق، لم تقاطع أمى، ولم ترفع رأسها



fb/mashro3pdf

المنكسة والمدلاة على صدرها، وعيناها ساكنتان وفى يدها فتلة تبرمها بين أصابعها جذبتها من طرف خددية وضعتها فى حجرها.

لم تتركها أمى لصمتها وواصلت: «إيه يا روحية ساكتة ليه ما تتكلمي. اتكلمى معايا يا أختى ده أنا «عفاف» بنت خالتك وصاحبة عمرك. اتكلمى يا «روح».

تنهدت بحرقة ودون أن ترفع رأسها قالت: «حأتكلم يا عفاف» يا بنت خالتى يا صاحبة عمرى حأقول اللى عمرى ما قلته، واللى عمر ما حد سمعه منى أو حس بى وباللى جوايا. حأقول وحأفكرك بكلام قديم قوى من ساعة ما وعينا على الدنيا، وكنا عيال مع بعض أنت وأخواتى البنات وكل بنات العيلة. كنا بنات وكنت أنا غيركم كلكم فاكرة ولا أفكرك، كنت أنا الوحشة السودة أو الزرقة زى ما كنت بسمعها من ستى، فاكرة كانت تشوف كل البنات وتسمى باسم الله وتصلى على النبى، ولما تشوفنى تزعق فيّ وتزقنى وتقول لي: غورى يا سودة يا ناشفة يا بت أنت إيه عصاية متعاصة لحم». ولما كنا نفصل الهدوم الجديدة كنت أسمع أمى وهى بتقول: «اللى ما بيليق عليها حاجة» ترد عليها ستى تقول «دى عامله زى الكلب الجربان مين ده اللى حيرضى يتجوزها وهى عاملة زى سيخ الفرن المصدي. وزادت لما وقعت من فوق السلم، وانكسرت رجلى وبقيت عرجه، وكنت بسمع بودانى ستى وهى بتقول لأمي: «إحنا كنا ناقصين العرج كمان يا اختى يا ريتها ماتت كان بقى أحسن، فاكرة يا عفاف ولا أفكرك، فاكره لما كنا واحنا بنات نخرج ولا نروح نزور حد كان اخواتى بيقولوا وبيعملوا إيه ؟ كانوا يقعدوا يضحكوا أو يزعقوا علشان ما أخرجش معاهم واللى تقول: «مش حنخلص



fb/mashro3pdf

النهارده، على ما العمشة تتكحل يكون السوق خلص» واللى تقول: «على ما العرجة تتحرك يكون القطر فاتنا» وستى من بره تقول: «ما تخلصى يا عريجه ولا عايزه تتزوقى زى البنات وإيش تعمل الماشطة فى الوش العكر» والكل يضحك وأنا أجاريكم وأضحك معاكم، كنت بعمل أى حاجة علشان أرضى اخواتى، عمرى ما حسيت انى واحدة من بنات الحاج عبد اللطيف، اللى انتِ جاية النهاردة تفكرينى إنى بنته، وافتكرى كويس ولا تكونى نسيتى أنا اتجوزت «سى علي» إزاى ما كل البلد عارفه انه قمرتى وسكرى وحشاش ومش بتاع شغل وانه عايش ياكل عواله على شقا اخواته اللى طافحين الدم فى أرضهم، أيوه له فى الأرض بس عمره ما ضرب فاس فيها ولا عفر رجليه بترابها، روحى قولى لأمى اللي بعتتك تقولى لى الكلمتين اللى قلتيهم، قولى لها انها يوم ما جوزتنى له كانت عارفاه كويس، وانتِ عارفه والبلد كلها عارفه انها هى اللى بعتت له مرسال وقالت له تعالى أجوزك «روحية» ومش حأدفعك فيها مليم أحمر، وأبويا وقف لها ورفض الجوازه، وقال: «تقعد فى البيت من غير جواز ولا تتجوز الصايع ده» قالت له: «تقعد تعمل إيه تشتغل خدامة لنسوان أخواتها» واتجوزته يا عفاف ومستعدة أبيع الدنيا كلها علشانه لأنه راجلى اللى خلانى ملكة عارفه يعنى إيه عريجه تبقى ملكة. عرفت عريجه تخلى راجلها يشوفها أميرة. طول النهار أنا بطبخ وبقرّص الجلة وبحلب الجاموسة وبحمى فرن الخبيز، وبخبز، أنا بنت الحاج عبد اللطيف اللى كان بيخدمها بدال الواحدة عشرة، وهو نايم فى مطرحه، ولما يطلع لحال سبيله أقعد استناه وأغزل له شبكة الصيد بيحب يطلع مع أصحابه يصطادوا وأنا أقعد استناه وأغزل الشبك، وطول ما أنا بغزل أفكر



fb/mashro3pdf

وارسم وأخطط إزاى أبقى ملكة فى سريره يا عفاف. استحمى، وأدخل أوضتى أحط الأحمر والأبيض والريحة وألبس قميص نوم عريان صحيح مفيش حاجة باينه منه غير عضمى الناشف، بس لما بيرجع ويحط أيده على جسمى بيبقى العظم الناشف ده تحت إيده عجين خمران، ملبن طرى معجون فى الزبدة السايحة، أيوه يا عفاف بيرجع كل ليلة محشش وشارب سبرتو وخسران فى القمار كل اللى خده منى، لكن بيرجع يلاقينى مستنياه، وأنا بس اللى فى الدنيا دى عايزاه بايديه دول بقلعوا جزمته وأوطى على رجليه أبوسهم وأحطهم على راسى واتمسح فيه زى الكلبة اللايدة وأخده فى كل ليلة بحكاية شكل وبدع ما تقدر عليه أى مره غيري، جسمى الناشف ده هو اللى بيبله وبيرويه وبطنى فيها منه كل سنة عيل.

●●●

اتصلت بى خالتى «ملك» لتخبرنى بوفاة خالتى «روحية» حتى أسافر البلد للعزاء فيها.

وصلت البلد قبل أذان المغرب، كنت قد جهزت شنطة ليوم واحد، خرجت من المصلحة إلى الموقف، ركبت الميكروباص وانطلقت متوجهة إلى بيت خالتى ملك، فقضاء ليلة واحدة لا تستحق فتح بيت أمى وتنظيفه، وانتقال خالتى ملك من بيتها لتبيت الليلة معي، أصبح يمثل مشقة مفهومة لها حتى لو لم تصرح بها فهى دائمًا تؤكد أنها مازالت بصحتها وإنها قادرة على ما لا يقدر عليه الشباب، وفى جلساتنا الخاصة تؤكد إنها لو أحبت أو وجدت



fb/mashro3pdf

الرجل الذى تتمناه ستتزوجه فوراً دون أن تستشير أحداً ولن يهمها أولادها ولا أحفادها.

وجدتهم فى انتظار وصولي، تغدينا وذهبنا معًا لمأتم خالتى روحية وعدنا لنقضى ليلة من لياليا التى أشتاق إليها. تنقل لى أخبار البلد، وتتحدث فيما يخطر على بالها، وتعيد حكايات سبق وأن حكتها عشرات المرات وتنسى نصف الحكاية الأول وتتذكر النصف الثاني، مرة وتفعل العكس مرة أخرى، ومع ذلك مازالت قوية ومتحكمة فى أولادها وزوجاتهم وأحفادها الذين تزوج منهم حفيدة وحفيد، ومازالت تكره البنات وخلفتها. لا تذكر ابنها أحمد ولا ابنته كأنها نسيتهما وأنا أيضًا لا أذكرهما أمامها. لن أقول إنها اكتفت بأولادها الموجودين معها فى العمارة نفسها، الذين تعلقت حياتهم ومصالحهم بها، أما هى فلا تعبر عن اكتفاء بأحد هى مكتفية بنفسها، وواثقة من امتلاكها لأولادها باحتياجهم لها ولأموالها: «مربوطين فى رقبتى بسلاسل همه ونسوانهم وعيالهم» هذا هو وصفها لعلاقتها بهم ولكنها لم تقل أبداً أو لم تعترف أنها هى التى قيدتهم بها، وأسرتهم فى دائرة هى مركزها ولا فكاك لهم منها.

كانوا رجالاً وكان مصطفى ابنها البكرى متزوجًا وزوجته حامل فى أول أولادهما عندما قررت خالتى ملك أن تتزوج، زوجها الثاني، جمعت أولادها الخمسة كانوا قد تخرجوا وعملوا فيما عدا أحمد الذى كان وقتها طالبًا فى كلية الهندسة ودون مقدمات وهم يشربون الشاى أبلغتهم بقرارها: «أنا حأتجوز». لم تلتفت لشهقة زوجة مصطفى ولم تتوقف عند الاستنكار بكلمة «إيه» التى خرجت من صدور أولادها، وواصلت كلامها: «من غير كلام كتير



fb/mashro3pdf

حأتجوز المهندس الزراعى اللى ساكن فى شقة فى عمارتنا الجديدة، ومش عايزة حد يفتح حنكه بكلمة، أنا عارفه انه أصغر مني، وانه فقير، دى حياتى وأنا حرة فيها، ومحدش له عندى حاجة، أنا لغاية دلوقتى بصرف عليكم وحافضل أصرف عليكم وعلى نسوانكم وعيالكم لحد ما أموت، أنا بفلوسى وبخيري، وبعمرى اللى ضاع واتسرق منى حأفضل فاتحة لكم بيوتكم، أنا اللى عملت منكم رجالة اللى دكتور واللى مهندس واللى عنده كلمة يبلعها واشربوا شايكم وخدوا قعدتكم وأنا داخله أنام لى ساعة أصل راسى بتوجعنى».

هذا ما حكاه ابنها «مصطفى» لأمى فى التليفون وهو يستنجد بها لتتدخل لمنع الفضيحة «اللى أمىْ ناوية تعملها» ولم تمهل خالتى «ملك» أمى فرصة الاتصال بها، فقد اتصلت هى ولم تقل سوى: «يا عفاف أنا نازله مصر بكره ومتفتحيش أى كلام دلوقتى لحد ما آجى لك».

وجاءت خالتى «ملك» فى اليوم التالي، وبعد أن تغدينا ونمنا ساعة بعد الغداء جلسنا فى الصالة خالتى ملك على مقعد وأنا على المقعد المواجه لها وأمى على الكنبة وصينية الشاى أمامنا. وكعادة أمى لم تبدأ الكلام فى الموضوع، تحدثت فى موضوعات لا علاقة لها بزواج خالتى ملك، حتى أوقفتها خالتى ملك وقالت: «إيه يا عفاف اوعى تقولى إن محدش من عيالى كلمك وقال لك إنى حأتجوز، أيوه حأتجوز، وده حقى اللى اتسرق مني، وانتِ عارفه كل حاجة، عارفه إن الحاج حسين الله يرحمه كان قد أبويا، وعمرى ما شفت معاه اللى بتشوفه أى واحدة متجوزة، انتِ عارفه إنى نسيت نفسى ودفنت أى إحساس عندي، ده أنا كنت لما بحس باللى بتحس به أى واحدة



fb/mashro3pdf

أقوم أدخل الحمام وأقفل على نفسي، وأقعد أعيط وأخبط بعزم قوتى على جسمى وأخربش وشى وصدرى وورا كى لحد ما تشلب دم، وأفضل أخبط على راسى وعلى وشى لحد ما أتهد وأفتح الدش فوقى وأفضل تحته لحد ما نارى تبرد وجسمى يتهد. كنت لما أشوف قميص نوم عريان ونفسى تهفنى عليه ألاقى الحسرة تسبقنى وترجعنى وأنا بقول حأشتريه ليه وحألبسه لمين، أنا قمصان نومى اللى جهزتها لشوقى كلتها العتة واللى جهزتها فى جوازى من الحاج حميت بيها الفرن قبل ما تضربها العته».

أغرقت الدموع وجهها عندما ذكرت اسم شوقى، لم تجفف دموعها تركتها تنساب فى مجراها وأشعلت سيجارة وواصلت كلامها وهى تخرج «آهة» حارقة من صدرها: «لحد دلوقتى نفسى كنت ألبس قميص منها لشوقي، لو رجع بى الزمن ولو عرفت علته وعجزه عمرى ما كنت حأفرط فيه كان يكفينى انى أنام فى حضنه، لحد دلوقتى شوقى مولع قلبى وجسمي، عايزة أخلص منه، يمكن لما أتجوز تنطفى نارى اللى مقدرش الحاج «حسين» الله يرحمه يطفيها. أنا لحد دلوقتى بحب شوقي، وبحلم به بشوفه فى منامى وأنا معاه راجل وست. أنا عايزة راجل فى فرشتى يخلصنى من شوقي، إنشالله أعيش معاه يوم واحد أعرف فيه يعنى إيه راجل وست».

تزوجت خالتى ملك واستمر زواجها عامًا لم تزرنا خلاله ولا مرة واكتفت بمكالمات متبادلة بينها وبين أمى على فترات متباعدة، عام مر بدون أى ذكريات بينى وبينها، عام ساقط من عمرنا. أنا وهى وأمي. كان فقيرًا كما قالت لا يملك سوى راتبه الذى يرسل نصفه لأهله فى قريتهم خارج محافظتنا، لم ألتق به ولا مرة لا أنا ولا أمى.



fb/mashro3pdf

وبعد عام عادت إلينا، كنت عائدة من عملى وبمجرد أن شعرت أمى بحركة مفتاحى ودخولى الشقة سمعت صوتها يناديني بصوت فرح: «يا مها تعالى بسرعة عندى لك مفاجأة» توجهت للمطبخ حيث كانت تجهز الغداء وأنا أقبلها كالعادة قالت: «تفتكرى مين عندنا ؟» بفرح حذر وفى صيغة سؤال قلت: «خالتى ملك ؟».

بصوت رفعته أمى قليلاً قالت أيوه: «ماهى عامله زى القرش البرانى تلف تلف وترجع لنا تاني» وقبل أن أسأل أين هى جاء صوتها من الحمام: «سمعاك يا عفاف، انتِ أصلاً متقدريش تعيشى من غيرى، ازيك يا مها أنا بلبس هدومى وطالعة».

خرجت من الحمام تسبقها رائحة الصابون، أخذتنى فى حضنها، كان جسدها ساخنًا بالماء الساخن الذى أطلقته عليه، لفت حولى ذراعيها، أحسست بتماسك وصلابة جسدها وقوته كما كنت أحس به وأنا طفلة، قالت: «وحشتينى قوى يا مها» قلت وأنا أضع يدى على ظهرها المبتل بالماء المتساقط من شعرها: «وحضرتك كمان وحشتينى قوى إيه الغيبة دى كلها حمد الله على سلامتك». قاطعتنى أمى قائلة: «لا قولى لها كفارة» ردت قائلة: «صحيح زى ما أكون كنت فى سجن وطلعت منه».

قضينا ليلة من ليالينا أنا وخالتى ملك، التى تبدأ بدخول أمى حجرتها لتنام، وتنتهى مع شروق الشمس، ليلة نأكل فيها حلويات وفاكهة وساندوتشات، وندخن بشراهة ونشرب شايًا وقهوة عدة مرات أيضًا.

وحكت لى بالتفصيل ما حكته لأمى باختصار وفى خطوطه العريضة والأساسية وبدأت الحكى بـ: «امبارح بس وصلتنى ورقة الطلاق ورميته هو



fb/mashro3pdf

وكراكيبه بره البلد، وقلت له لو هوبت ناحية البلد حأدفنك مطرح ما أنت واقف. أصله نسى نفسه وافتكر إنه راجل بصحيح. جه بلدنا كحيان حتة موظف مش لاقى ياكل، هو فى سن شوقى كده أيام ما كنا حنتجوز، وتصدقى انه استلم شغل شوقى فى الإصلاح، وأنا مرة كان عندى مصلحة عندهم، ودخلت المكتب شفته قاعد على مكتب شوقى ومن بعيد يشبه شوقى قوي، الدنيا لفت بى لما شفته، وكنت عايزه أسيب المكتب وأخرج لولا أن واحد من الموظفين من ولاد البلد لما شافنى جرى واستقبلني، جسمى كله كان بيتنفض، وشويه جسمى يسخن ويشر عرق وشويه يتلج وأحس إن سنانى بتخبط فى بعضها زى ما يكون عندى حمى، وقلبى قعد يدق ومش قادره آخد نفسي، واللى زاد وغطى إن مصلحتى كانت عنده، وبقيت وأنا قاعدة على الكرسى قدامه حاسة إنى صغرت ثلاثين سنة، وإنى بنت بنوت متلخبطة ومش عارفه تلم نفسها، خرجت وأنا بفكر إزاى الراجل ده يبقى لي، وبقيت أخلق الظروف علشان أشوفه، وسكنته فى عمارتي، وحسيت انى مش قادرة أعيش من غيره وسهرت الليالي، وجسمى فار وقلبى صحي، وانت عارفه الباقى لا همنى عيالى ولا الناس ولا إنه أصغر منى ييجى بخمستاشر سنة واتجوزته، وعشت معاه أيام نسانى فيها نفسى وكل اللى فات فى حياتى، صحى كل اللى جوايا، واللى كنت فاكره انى عمرى ما حأعيشه ولا أعرفه. زى ما تكون جنية لبسانى وكانت محبوسة فى قمقم وهو فتح القمقم، شفت معاه حاجات عمرى ما شفتها ليالى وأيام كنا نفضل فيها قافلين علينا الباب، وناسيين إن فى دنيا بره الباب. وفجأة ظهر اللى كان مرتب له فى دماغه ومخطط له، صحيح أنا كنت بدى له فلوس بس على



fb/mashro3pdf

قد ما أنا أشوف وأحدد، ولما طلباته زادت برضه كنت بدى له، كنت عايزه أشوف مداه لحد فين وأجيب آخره، لحد ما جه فى يوم وقال إيه عايز يعمل مزرعة فراخ ومزرعة بهايم، كده فهمت اللى وراه قلت له: «ليه ما أنا عندى المزارع ومش محتاجين مزارع جديدة» قطم ومكملش، وساق فى العوج أنا كنت بقضى الأيام شويه معاه وشويه فى البيت الكبير وكان هو اللى يطلبني، ساق العوج وبطل يطلب بالأسبوع والأسبوعين، ولما كنت أروح له من نفسى كان يدعى التعب ويلوى بوزه على أى حاجة، وأنا الحقيقة من ساعة ما فهمت غرضه نفسى اتقفلت من ناحيته، هو كان فاكر انه لما يسيبنى ولا يقول تعالى ولا يطلبنى حاجرى وراه، وأقول له والنبى والولى انت فين، ولا سألت فيه، لقيته أخرتها عايزنى أسيب مباشرة أرضى ومالى وأعمل له توكيل عام وهو يدير أملاكى قلت له: «لا يا حبيبى لحد هنا واقف أنا أدى لك بمزاجي، وأنا عارفه تمنك كويس ومقدراك وزيادة» بس وعنها بان كل اللى عنده قال: «أنت مراتى وأنا كلمتى هى اللى حتمشى» وقام حبسنى فى شقته وبقى يطلع كل يوم ويقفل عليّ من بره وبالمفتاح، قلت ماشى لما نشوف أخرتها إيه معاه، وكل ما يدخل ويخرج يقل أدبه ويشتم، وفى مره كان عايز يمد إيده رحت ماسكة له الشبشب وقلت له: «لحد كده ولأ ده أنا أضربك على وشك بالشبشب أنا سايباك لحد ما تقول حقى برقبتى وتطلقني» قال: «نجوم السما أقرب لك من الطلاق، ولو عايزة تتطلقى تجيبى عشرين ألف جنيه». قلت له: «يا خايب كنت فاكراك حتطلب أكتر ما أنت عارف إن اللى عندى أكتر من كده بكتير» وعنها ومنعت عنه المصاريف عشت أيام صعبة حتى كباية الشاى مكنتش بلاقيها كان بيقفل على السكر



fb/mashro3pdf

والشاى اللى أنا جيباهم بفلوسى وكان يرمى لى نص رغيف وحتة جبنة ويطلع من أول النهار ما يرجعش إلا نص الليل، وأنا محبوسة زى ما أكون فى سجن الباستيل».

تطلعت لها بدهشة حقيقية وأنا أقول داخلى: «إنتِ تعرفى سجن الباستيل منين يا خالتى ملك» لقطت دهشتى وقالت: «جرى إيه يا بت إنتِ فاكره إن أنا معرفش سجن الباستيل جتك خيبه، مش عايزه مقاطعة سيبينى أكمل كلامى وأفضفض».

لم تنتظر تعليقى على حكاية الباستيل ولا أن أقول لها: «وبعدين» أنا كنت أريدها أن تكمل أكثر مما تريد هى أن تتحدث والحقيقة هى ليست حكاءة مجهدة بالعكس هى تعشق الحكى لا ترهقنى بالسؤال أو الاستفسار أو الإلحاح تحكى وتفتح دفاترها القديمة بلا مقدمات أو محاذير. وتواصل حكى ما حدث مع زوجها الثانى وتكمل:«بعد كده هو لقى أن القفل ومنع الأكل عنى مش نافع، وأنا كمان سبته، كنت أقدر أصوت وألم الجيران ولا الناس فى الشارع يكسروا الباب، لكن أنا كنت أولاً مش عايزة فضايح، وثانيًا كنت عايزاه يفهم إن مفيش حاجة تقدر تكسرني، وإن لا هو ولا كل رجالة الدنيا يقدروا علىّ ولا يقدروا ياخدوا منى حاجة غصب عنى، وهو كان فاكر إن الحكاية إياها دى مهمة عندى يعنى اللى بيحصل بين الراجل والست، هى مهمة وزى ما قلت لك كانت السنة الأولانية كويسة، بس كنت بحس انها كده وبس كان دايمًا فى حاجة ناقصة، يعنى كنا بنبقى كويسين ومقفول علينا الباب بالأيام والليالي، لكن صدقينى كانت هى الحكاية دى وبس مع مرور الوقت وقبل ما يكشف وشه التانى كنت بحس إن فى حاجة



fb/mashro3pdf

ناقصة مش عارفه هى إيه. المهم يا ستى فى يوم قفل علي وغاب يومين تلاتة ورجع وفى إيده بت عيله بنت سبعتاشر سنة غلبانه فلاحة من بلدهم، قريبته وقال دى مراته، رحت راقعة زغروته حيانى من بتوع خالتك ملك وقلت له «مبروك عليك يا أخويا أهلاً وسهلاً مش كنت تقول علشان أحضر للعروسة نقطتها وأعمل لها فرح يليق بضرة الست ملك» ودى ولا هزتنى وقلت له فى وشه: «شوف يا حبيبى أعلى ما فى خيلك اركبه أنا مش حأتعب واللى يتعب الأول زى ما بيقولوا فى الحواديت يسلخ وش التاني» وهو اتجنن من برودى وهدوئى وقام يتهجم عليّ ويقول: «أنا حأعرف أربيك وأعلمك الأدب يا مره يا شايبه يا عايبه ده انتِ ولادك قدى، أنا أتجوزت عيله تخلف لى عيال، وتحسسنى انى متجوز وترجع لى عمرى وشبابى بعد ما مصتينى ويا ريته تمر فيكِ» عنها ورفعت أيدى فى الهوا وبالقلم على وشه ورفصته برجلى وفتحت باب الشقة وخرجت على بيت مديره قلت له: «الواد ده لازم يتربى ويطلقني» بعت له المدير أصله يعرفنى كويس، يقوم الوسخ يقول له: «نجوم السما أقرب لها من الطلاق، ولو مرجعتش بالذوق حاطلبها فى بيت الطاعة وابهدلها» رحت لرئيس المباحث هو برضه يعرفنى كل الكبار يعرفونى كويس، اتعاملت معاهم فى تجارتى وشغلى وكلهم أنا مجاملاهم كويس، بعت له رئيس المباحث وهدده يلبسه قضية حشيش ويبهدله يقوم الوسخ يرد بعين قويه: «ده أنا أعمل لكم مصيبة ليه هى البلد سايبة» قلت يا بت فكرى بهدوء شوية، أخدت بعضى ورحت على بيتنا القديم فى عزبة المرحوم الحاج، وقعدت أفكر بهدوء يومين، وخططت للى حأعمله، نقيت أربع فلاحين من اللى بيزرعوا الأرض، رجالة شداد ورجعت بهم على البلد، ووقفنا على الطريق



fb/mashro3pdf

بالليل، كانت الدنيا شتا والشوارع غرقانة بالمطر والطين فيها للركب، وما فيهاش صريخ ابن يومين ووقفنا نستناه وهو راجع ليلة الجمعة من بلدهم لأنه بيسافر الخميس بعد شغله ويرجع الجمعة بالليل. بس همه لحوه وطلعوا له من قلب الغيطان واتكاتلوا عليه، وفين يوجعك، رموه على الأرض وقعدوا يدهسوا فيه برجليهم، ويمرغوا وشه فى الطين، كل ده وأنا واقفه بعيد أتفرج، وبعد ما اتكيفت قوى من اللى بيحصل له، ظهرت ووقفت قدامه وقلت له: «قلت إيه حتطلق ولا لأ» يقوم الوسخ يقول: «نجوم السما أقرب لك من الطلاق يا مره يا شرموطة يا بنت الكلب» بس وعنها وقلت للرجالة: «يالله يا رجالة قلعوه هدومه علشان يشوف مين المره الشرموطة أنا ولا هو وخلونى أتفرج على كيفى». هجم عليه الرجالة وقلعوه هدومه من فوق الأول، وهو لما شاف إن الحكاية جد مش هزار بقى يجعر زى النسوان وماسك بايديه ومتبت على البنطلون، ويقول وهو بيفلفص منهم: «لا إلا دى أنا فى عرضك يا ملك، غيتونى يا هوه الحقونى يا خلق» والرجالة ولاد الأبالسة عمالين يضحكوا ويلاعبوه اللى يمد إيده هنا واللى يحط إيده هنا وهو عمال ينط فى وسطهم وإيده على البنطلون، والرجالة يشوفوا كده ويضحكوا واللى يقول له: «اقلعى لوحدك يا محاسن محدش حيقلعك يا حلوة» يا أختى مش عارفه جابوا محاسن دى منين، وهو يجعر ويقول: «أنا فى عرضك يا ملك» وأنا أقول له: «اخرس يا كلب اسمى ستك ملك، ملك هانم يا جربوع يا سافل» والرجالة الله يهد حيلهم مش حيعرضوا على جنة بهدلوه، وراحوا هجموا عليه قلعوه بنطلونه، قعد يترعش ويرفص فى الأرض زى إللى جاله صرع ومتبت على لباسه ماهو ده اللى فضل له والرجالة بايديهم على



fb/mashro3pdf

محاشمه مرة وعلى وراكه مرة ويقولوا له السفلة المفترين: «يا اللا يا حسنيه ورينا كده الحلاوة يا بت، يا مره اتدلعى ده إحنا حنبسطك قوى ياللا يا حلوة» لحد ما زحف على بطنه لحد رجليه وباسها وقال: «ارحمينى يا ست ملك أنا فى عرضك» وقعد يعيط زى النسوان زقيته برجلى وقلت له: «قوم يا وسخ وارمى يمين الطلاق، وتغور من البلد حالاً مش حتبات فيها الليلة دي» قام نط واقف ولم هدومه وهو بيلبسها قعد يتنطط زى ما يكون واقف على نار والعة ويقول: «حاضر حاضر يا ست ملك انتِ طالق انتِ طالق بالتلاته بس سيبينى أمشى» قلت له: «لا يا روح أمك زى ما أنت كده نوصل لحد المأنون وتخلص والرجالة معانا وإن لعبت بديلك حاخلى المأنون يكتب كتابك على واحد منهم» زى ما يكون عنده حمى مشى معانا والرجالة محوطاه وماسكاه من إيديه وهو ماشى يهلفط مفيش على لسانه غير «حاضر حاضر يا ست ملك انتِ طالق بالتلاته يا ست ملك».

●●●

fb/mashro3pdf

# الست المجنونة

فى طريق عودتى من البلد فى سيارة استأجرتها خالتى ملك لتوصيلى لعملى مباشرة استعدت تفاصيل ذلك اليوم البعيد الذى حكت فيه خالتى ملك وهى تضحك حتى دمعت عيناها أكثر من مرة كيف حصلت على طلاقها من زوجها الثاني. ركبت السيارة فى السادسة صباحًا ووصلت عملى فى الثامنة تمامًا وبمجرد أن نزلت من السيارة بحثت عنها بعينيَّ ولما تأكدت من وجودها فى المكان نفسه شكرت السائق وصعدت إلى مكتبي.

فوجئنا بوجودها منذ فترة جالسة آخر سور المصلحة خلف حائط الدفاع المدنى الذى انتشر فى مصر بعد نكسة ١٩٦٧، كانت موجودة كما قلت فى آخر سور المصلحة بعد البوابة بمتر واحد تقريبًا، وضعت أشياءها وجلست أو عاشت أمام سور المصلحة وخلف حائط الدفاع المدنى الشهير. امرأة تبدو فى الأربعين من عمرها، ولا يعرف أحد متى جاءت، فى صباح يوم ما وجدناها ولم ينتبه الموظفون فى الوقت نفسه لوجودها ولكن ومع بقائها أصبحت موجودة هكذا كما هى خلف حائط الدفاع المدني، تجلس على سجادة من قصاقيص القماش وحولها علب كرتون مفككة، وزجاجات بلاستيك فارغة وأكياس بلاستيك ممتلئة ومربوطة على ما بداخلها وأكياس أخرى فارغة، وفوقها طبق صاج وآخر ألومنيوم، هى ممتلئة وتبدو فى



fb/mashro3pdf

جلستها طويلة القامة، ترتدى جلبابًا أسود واسعًا وشعرها ملبد ورغم أن وجهها قذر وشعرها أشعث وقذر وكل الأشياء التى حولها قذرة لكنها مرتبة. تضع الزجاجات فى ركن بجوار بعضها والعلب الفارغة فى ركن أيضًا بجوار بعضها، والأكياس متراصة فى انتظام، تجلس فاردة ساقيها أمامها كاشفة عن جزء شديد القذارة أيضًا منها، كل هذه التفاصيل لمحتها كل واحدة على حدة فى خروجى ودخولى من وإلى المصلحة، حتى الشبشب الملقى بجوارها لمحته وأضفته إلى بقية ما لمحته، أما الطبقان فهما للأكل الذى لا أعرف من أين يأتى إليها أو من يعطيه لها، كما لمحت فى مرة أخرى قفص جريد به بقايا خبز.

تجلس تحت الشمس أو المطر ساندة ظهرها للحائط، وفاردة قدميها فى اتجاه حائط الدفاع المدني، تحتمى من الشمس أو المطر بوضع علبة كرتون فوق رأسها، لمحتها مرة تنظف المكان وتعيد ترتيبه، صامتة معظم الوقت، لا تحدث أحداً، وإن تحدثت فمع نفسها، حديثًا هادئًا، ومرات قليلة يصل الحديث إلى الشجار العنيف مع نفسها.

فى مرة من مرات ثورتها على نفسها وصلنى صوتها فوقفت فى مسافة تمكننى من سماعها، وفى الوقت نفسه قريبة من أمن المصلحة خشية أن تلمحنى وتثور على تلصصى عليها بدأ صوتها يرتفع بـ«أه أنا عارفه كل حاجة» رددتها عدة مرات وهى لا تتحرك ثم بدأ جسدها يهتز إلى الأمام والخلف وهى تخبط خبطات خفيفة على وركيها بيديها ثم ارتفع صوتها وقالت: «أنا عارفة أنا اللى عملت كده فى نفسى محدش جبرنى على حاجة أنا اللى اخترت، آه يا مرة يا وسخة انتِ اللى ضيعتى نفسك» ولما زادت حدة الخبط على وركيها خفت وتركت مكانى وصعدت إلى مكتبى وفى خروجى من المصلحة نظرت بعينى لأرى ما وصلت إليه فوجدتها جالسة فى



fb/mashro3pdf

هدوء كأنها قطعة حجر ورأسها منكس إلى أسفل، وتعبث بأصابعها بشيء ما.

فى صباح آخر كانت جالسة ترتب الأكياس وتمسح على بقايا الخبز وترصها فى القفص، ظللت واقفة بجوار البوابة فى المنطقة الآمنة أراقبها حتى قامت من مكانها ونفضت جلبابها وقطعة السجادة أعادت فرشها وأخرجت إيشارب من أحد الأكياس وربطته على رأسها وسكبت بعض الماء من زجاجة مسحت به وجهها ثم جلست وأخرجت أحد الأطباق من القفص وبدأت تأكل فى هدوء.

اعتاد البشر الذين يخرجون من بطون المكاتب والمصالح الحكومية على نوبات هياجها العنيف مع نفسها، فلا يلتفتون إليها وإن التفتوا إلى مصدر الصوت يقف حائل بينهم وبينه حائط الدفاع المدني، فيواصلون السير، حتى زملائى فى المصلحة يلقون التفاتة ثم يواصلون السير للحاق بأتوبيس المصلحة أو للحاق بأى شيء آخر أما أنا فقد وقفت أكثر من مرة فى منطقتى الآمنة، لأتابع حالة من حالات هياجها التى تبدأ بنزع غطاء رأسها فيظهر شعرها الأشعث يملأ رأسها ويقف كالأسلاك المتناثرة المتداخلة، ثم تدخل فى حالة الخبط بعنف على وركيها بيديها وعلى وجهها وتقول: «كان البيت بيتى والمال مالى أنا اللى فرطت فيه، أنا اللى ضيعت البيت وضيعت نفسى محدش ضربنى على إيدي» ثم تنتقل إلى الخبط على رأسها بكلتا يديها وهى تقول: «ليه يا وسخ تعمل كده، ليه يا وسخ تعمل كده ده بيتى وأنا اللى لميتك فيه يا معفن يا نتن، كده تاخد بيتى منى»، ثم تضرب بيديها فى الهواء وتقول: «سيب بيتى يا حرامى يا وسخ».

ومن الخبط على راسها وعلى وجهها إلى الخبط على بطنها وهى مكورة يديها، وعلى أسفل بطنها وهى تقول: «انت .. يا وسخ السبب فى كل اللى



fb/mashro3pdf

جرى لى، انتَ يا كلب اللى ضيعتنى» وتضرب رأسها فى الحائط مع اهتزازة جسدها للخلف.

فى مرة هياج رأيتها تمسك الشبشب وتفتح ساقيها وتضرب بين وركيها وتقول: «خد والله لأحرقك .: لسه بتحس يا وسخ، انت اللى ضيعتني، نار، حأجيب نار وأولع فيك، لسه بتحس وعايز "..." يا وسخ، عايز تضيع إيه تاني، مش كفاية ضيعت بيتى ومالي».

ثم تعود لهدوئها وتغيب فى عالمها الخاص.

●●●

الصور تتداخل وتتقاطع، منذ وصولى للبلد للعزاء فى خالتى روحية وحتى عودتي، تقفز حكايتها، تزاحمها حكاية طلاق خالتى ملك، يزيح الحكايتين صوت الست المجنونة الجالسة خلف حائط الدفاع المدنى.

●●●

أفتح باب البيت، أجرى على الدولاب، أخرج حقيبة الأوراق التى خصصتها أمى لحفظ الأوراق المهمة، أتأكد من وجود عقد الشقة المسجل باسمى منذ سكناها، وعقد ملكية بيتنا فى البلد الذى سجلته أمى باسمى، أتأكد من وجودهما، أعيدهما للحقيبة، وأعيدهما للدولاب، وأغلقه بالمفتاح.

●●●



fb/mashro3pdf

# عمى الأستاذ وديع

بمجرد دخولى مكتبى اليوم، اتصل بى الدكتور رئيس المصلحة طلبت منه الانتظار حتى أشرب فنجان القهوة الذى أطلبه بمجرد دخولى المكتب ولم أقل طبعًا وأدخن سيجارتى الأولى، ولكنه فاجأنى قائلاً: «تعالى اشربى القهوة عندى وهاتى سجايرك معاكِ علشان أخد منك سيجارة».

بحكم سنوات عملى بالمصلحة أنجح فى تخمين سبب استدعاء الدكتور لي، ويكون لطلب تقارير مفصلة عن حدث مشتعل فى المنطقة، وردود الفعل حوله فى المحافظات، وفى تناول كبار كتاب الصحف له، رغم أن الدكتور يتابع بنفسه كل ما يكتب بالصحف بأكثر من لغة ولكنه يحتاج لتقرير مكتوب فى نقاط محددة، ويهتم بالتقارير القادمة من مكاتب الهيئة فى المحافظات خاصة عندما يكون للحدث ردود فعل جماهيرية، وبعد أن أقدم له التقرير يضع هو تقريراً بتعليماته لمكاتب المحافظات، ولمكاتب المصلحة بالعالم، كإقامة مؤتمرات جماهيرية وندوات تثقيفية وإصدار نشرات توزع على المصالح الحكومية والمدارس ووسائل الإعلام بالموقف الرسمى من الحدث، لاحتواء ردود أفعال الجماهير و«تصويبها»-هذا هو التعبير الذى يستخدمه- ولا تنفذ كل تعليماته لأنه سرعان ما يفتر الحدث ويصبح معتاداً ويظهر حدث جديد.

أذكر أن هذه الدائرة الروتينية لم تتغير منذ الحرب الأولى فى لبنان



fb/mashro3pdf

وحتى حرب لبنان الأخيرة وفى العراق وفلسطين والسودان، كما قلت حدث مشتعل يتفجر ثم يهدأ ليس لأنه انتهى بل لأن حدثًا جديدًا اشتعل وتفجر فى بلد آخر. أو تقع أحداث فى مصر هنا تطغى على أحداث الخارج، حتى إنه أحيانًا يضع خططًا لزيارة مكاتب المحافظات ليتابع بنفسه أداءها فى التعامل مع حدث ما، فيفاجأ ونفاجأ نحن أيضًا أن موعد الجولة جاء مع صعود حدث آخر لبؤرة الضوء والاهتمام فلا يعدل برنامجه، بل يضع عنوان الأزمة الجديدة للزيارة وأسفل العنوان نفس ما خطط لفعله ولقوله تحت العنوان السابق للأزمة السابقة، يتم التعامل مع الخارج أو مكاتب الخارج كما نسميها فى المصلحة بنفس الآلية، ويسافر لمكاتبنا فى الخارج ويعود ويكتب هو أيضًا تقارير عن زياراته لمكاتب الداخل ومكاتب الخارج ويرفعها للوزير.

أكتب تقارير عن الصحف وأتابع تقارير مكاتب الداخل منذ ثمانية وعشرين عامًا، هذا هو عملى اليومي، الذى بدأت به حياتى العملية، وجميع من فى المصلحة يعمل ما بدأ به حياته العملية منذ أول يوم تسلم فيه الوظيفة وحتى خروجه للمعاش.

لا يوجد علاقة بين عملى ودراستى للقانون، ولم أبحث أصلاً عن هذه العلاقة، ولا يعنينى من العمل سوى أنه يوفر لى راتبًا شهريًا ويؤمن لى معاشًا عند بلوغى سن الستين.

لماذا الآن وبعد ثمانية وعشرين عامًا أسأل عن هذه العلاقة؟ هل أردت حياة أخرى لم أحققها ؟ وهل هو سؤال تأخر كثيرًا، ولم يعد صالحًا للطرح وفات أوانه ؟

لماذا ؟ أداة استفهام لو فتحت لها بابًا فى حياتى ستنطلق كل الأسئلة، لماذا ظللت فى هذا العمل ثمانية وعشرين عامًا ؟ لماذا بقيت فى هذا المكان



fb/mashro3pdf

ثمانية وعشرين عامًا ؟ من هم هؤلاء البشر الذين عشت بينهم ثمانية وعشرين عامًا ؟ لماذا لم أتزوج منذ ثمانية وعشرين عامًا ؟

إجابتى عن كل هذه الأسئلة ستكون وحيدة وهي: «لا أعرف هذا ما حدث» حصلت على ليسانس الحقوق وعملت بالمصلحة فور تخرجى وجَرّت الأيام والسنوات بعضها، كأننى مغماة أسير على خط مرسوم لي.

لم أفكر لحظة فى تأمل الخط أو الوقوف عند نقطة فيه لأنظر خلفي، لأري المسافة التى قطعتها منه، أو لأنظر أمامى لأرى المسافة الباقية وما فيها وهل أريد أن أواصل السير حتى آخر نقطة أم لا، لم أفعل حتى أننى الآن اكتشف أنه وطوال ثمانية وعشرين عامًا لم أدخل بيتًا من بيوت زملائى فى المصلحة إلا لأداء واجب العزاء أو لزيارة مريض فى المستشفى، وأكتشف الآن أننى لم أتبادل مع معظمهم كلامًا خاصًا أو حميميًا، وأعتقد أننى لو اختفيت لن يسأل عنى أحد منهم وهم كذلك إن اختفى أحدهم لن أسأل عنه إلا فى حالة الموت سأؤدى واجب العزاء فحسب.

لم أخطط لأن تكون علاقتى بزملائى هكذا، فقد كنت وقت استلامى العمل أصغر من أن أضع قوانين لعلاقاتى أو أطر، كان عملى هو بداية حقيقية لانفصالى عن عالم أمي، أو عالمنا معًا، رغم أننى دخلت العالم الجديد عن طريقها أو هى التى فتحت لى باب الدخول إليه، فبعد تخرجى كان أمامى طريقان إما العمل كمحامية فى مكتب عمى «الأستاذ وديع عريان» أو العمل موظفة وكان أن وجدت نفسى موظفة.

هى وعمى وديع ناقشا الأمر وبالمصادفة تطرق الحديث إلى مقال كتبه الدكتور فى إحدى الجرائد واقترح الأستاذ أن أقدم أوراقى للعمل فى المصلحة التى يرأسها الدكتور، وفى اليوم التالى زاره الأستاذ وأنهيا الإجراءات وتسلمت عملى بخطاب محول من القوى العاملة إلى المصلحة.



fb/mashro3pdf

العلاقة بين عمى الأستاذ وديع والدكتور رئيس المصلحة علاقة قديمة، منذ كانا زميلين فى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول، ومنذ كانا يهتفان معًا بسقوط الملك، والاحتلال الإنجليزي، وتزاملا أيضًا فى السجون فى كثير من المرات وكثير من السنوات، ولكن الدكتور خرج من السجن وسافر إلى الاتحاد السوفييتى للدراسة وعاد رئيسًا للمصلحة ولم يدخل السجن بعدها بل ظل رئيسًا للمصلحة حتى بعد خروجه للمعاش بقرار تجديد من رئيس الجمهورية، أما عمى الأستاذ وديع فهو من بلدتنا وكنت أعتقد أنه قريب أمى فى طفولتى وعرفت مصادفة أنه مسيحى هو الابن الوحيد للمقدس عريان لطيف، واكتشفت أو عرفت كونه مسيحيًا عندما سمعت جدتى تذكره لاحقه اسمه بابن المقدس عريان، وسألت أمى فشرحت لى ماذا تعنى «المقدس» ولكنه وحتى هذه اللحظة هو أبى الذى لم ينجبني.

حتى الجيران أو زملاء أمى فى العمل بعد ما انتقلنا للقاهرة وانتقل معنا يعتقدون أنه شقيق أمي، وفى فترة دراستى فى الجامعة دخل السجن أكثر من مرة ولكن لفترات قصيرة لم تتجاوز إحداها العام ونصف العام وبعضها كان لا يتجاوز الشهور، فكان البواب أو الجيران يسألون عنه أمى قائلين: «أمال الأستاذ أخو حضرتك فين ؟» فتقول إنه مسافر.

ولا أعرف تحديدًا هل العلاقة القوية بين الأستاذ وديع وأمى تعود لطفولتهما لأنهما أبناء قرية واحدة، أم لأيام الدراسة عندما كانت تسافر أمى فى القطار، إلى مدرسة المعلمات وهو إلى المدرسة الثانوية، ربما ولكننى لم أسمع منها ما يؤكد أو ينفى وجود علاقة بينهما فى هذه المرحلة المبكرة من عمريهما، ولكن ما أعرفه جيدًا أنه هو الذى تولى تسوية المتعلقات المادية بين أمى وأهل أبى بعد موته فى حادث طريق ولم تتعد هذه المتعلقات حق أمه وأبيه فى معاشه، فهو كان مدرسًا زميل أمى فى المدرسة وكان



fb/mashro3pdf

غريبًا وهى الصفة التى يطلقها أهل البلد على أى وافد إليها للعمل. أى من هم ليسوا من أبنائها، وتزوج أمى وعاشا فى بيت جدي، ومات فى حادث طريق قبل أن أولد، وانقطعت صلة أمى بأهله بعد موته حتى إننى لا أعرف أحدًا منهم ولا أعرف أين هم؟. كل ما أعرفه أنهم يعيشون أو كانوا يعيشون فى بورسعيد، وحرصت أمى دائمًا على ألا تذكرهم أمامي، لا أعرف هل كان حرصًا متعمدًا أم إنها نسيت وجودهم وأسقطتهم تمامًا من ذاكرتها، فقد عرفت من خالتى «ملك» ومن خلال كلام متناثر إنه لما مات ابنهم وذهبت أمى وجدى وجدتى وأخوالى وبقية أقرباء أمى بالجثة لدفنها، شككوا فى حمل أمى واتهموها بالكذب حتى تأخذ معاشه كله، ورفعوا دعوى قضائية ضد أمى تولى الدفاع فيها عمى الأستاذ وديع.

وبعد أن استقرت الأمور وطويت صفحة المعاش والقضية وألقى القبض على الأستاذ وديع ودخل السجن ثم خرج منه، وبقى خارجه سنوات قليلة ثم دخله مرة أخرى، وكانت أمى تزوره مع «تيته أم وديع» - هكذا كنت أناديها- كانت أمى تناديها بـ: «خالتى أم وديع»، هذه الفترة لا أذكرها جيدًا وكونت صورها من الحكايات ومن ذكريات أمى والأستاذ وخالتى ملك عنها، كان للأستاذ وديع مكتب للمحاماة ببلدتنا، أغلقه وانتقل معنا إلى القاهرة وفتح مكتبًا بها، ومازال من له قضية من أهل بلدتنا يأتى إليه.

ورغم انشغالات الدكتور الكثيرة فإنه يسألنى دائمًا عنه كلما رآنى وصيغة السؤال لا تتغير: «يا ترى بتشوفى الأستاذ العجوز ولا لأ ؟» - «أيوه بشوفه» .. «سلمى لى عليه».

اعتاد الأستاذ أن يزورنا مرة على الأقل كل أسبوع منذ انتقالنا جميعًا للقاهرة، كانت زياراته الأساسية تتم بمفرده للسؤال عنا والسهر معنا أى لقضاء الوقت، ولكن أحيانًا كنت أعود من عملى فأجده فى البيت مع أمى



fb/mashro3pdf

وكنت أشعر أنه كان بينهما كلام انقطع بوجودي، وأحيانًا أخرى كان يأتى وفى يده حقيبته التى يحملها دائمًا واضعًا فيها أوراقه الخاصة وملفات القضايا. حقيبة منتفخة من كثرة ما بها من أوراق، ولكن فى مرات كثيرة كان يفتحها ويخرج منها أوراقًا أخرى غير ملفات القضايا وأوراقه الخاصة ويترك الأوراق لأمي، ويعيد ملء الحقيبة بجرائد قديمة حتى تبدو بالحجم نفسه الذى جاء إلينا وهى عليه وكانت أمى تخفى الأوراق الأخرى بعد أن تضع كل مجموعة منها فى ظرف وتلصقه جيداً بلاصق ثم تضع كل الأظرف فى عدد من الأكياس البلاستيك وتخفيها خلف الدولاب فى حجرة نومها، فى تجويف مغطى بلوح خشب كامل، يبدو كأنه ظهر الدولاب ويفتح بتحريكه فى مجرى أسفل الدولاب، وتترك نسخة من الأوراق تقرأها ثم تحرقها، وتتخلص من الرماد بطرق مختلفة وتظل الأوراق فى مخبئها حتى يأتى الأستاذ ويأخذها على عدة مرات، وأحيانًا يأتى آخرون ليأخذوا الورق وإن رأيتهم تقدمهم لى أمى بأسماء، أعرف بعد فترة أنها ليست أسماءهم الحقيقية.

لم تبدأ حكاية الأوراق المخبأة مع انتقالنا للقاهرة، فقد كان الأستاذ يخبئ أوراقًا فى بيتنا فى البلد أيضًا، وكانت أمى تخبئها فى أماكن مختلفة وذلك لوجود تلك الأماكن الممكنة والمتاحة فى بيت البلد، وكانت تحرق ما تقرؤه أيضًا دون اهتمام بتنويع طرق التخلص من الورق المحروق.

كان أحيانًا أيضًا يأتى الأستاذ ومعه شباب آخرون وشابات فى مثل عمرى أو أكبر أو أصغر قليلاً، ومعهم من هم فى مثل عمر الأستاذ وأمي، وأقل أو أكثر قليلاً وكان بعض الصغار يدرسون معى فى الجامعة، وكانت أمى تعد لهم طعامًا شهيًا ومتنوعًا، يتغدون ويدخلون حجرة الضيوف ويغلقونها بالساعات، يتحدثون بأصوات منخفضة قد ترتفع من أحدهم أو



fb/mashro3pdf

إحداهن ثم تعود للانخفاض.

لم تكن أمي تشاركهم كل جلساتهم ولكنها في كل المرات كانت تعد لهم الطعام ونأكل جميعًا ثم أتركهم وأدخل إلى غرفتي، وبين الفترة والأخرى يخرج شابٌ أو شابة إلى المطبخ ليعد شايًا أو قهوة، وبعد عدة ساعات يخرجون من الحجرة وقد ملأها دخان السجائر، ويخرجون بالطفايات مملوءة بأعقابها، وقد استخدموا كل الأكواب الموجودة في متناول أيديهم وملأوا بها الحوض، وفي أسفلها تفل الشاي، وتنوة القهوة، وسجائر مطفأة.

وبعد أن تغسل أمي الأكواب تخرج لهم في الصالة تحمل «تورتة» بها شموع، وتشعل الشموع وتنطلق الأصوات: «بسنة حلوة يا جميل سنة حلوة يا مها» أو يا «عفاف» ليس الاسم مهمًا المهم هو أن تصل الأصوات للجيران تفسيرًا لوجود هذا العدد من الضيوف في بيتنا.

مرات كثيرة كان يأتي إلينا الأستاذ ومعه فتاة أو اثنتان وأحيانًا ثلاث ليقمن في بيتنا عدة أيام تطول أو تقصر لكنها لا تصل لحد الإقامة الدائمة، وكما جاء بهن يعود ليرتب خروجهن من بيتنا إلى أماكن أخرى وكانت أمي تقول للجيران إنهن أقاربنا وأحيانًا كان يأتي الأستاذ ليخبر أمي أن «فلانة» أو «فلانًا» ألقى القبض عليها أو عليه أو عليهما مع آخرين وعادة لا يذكر الاسم الحقيقي لأي منهم إلا بعد القبض عليه، وفي هذه الفترة وهي فترة دراستي في الجامعة وبعد تخرجي بعدة سنوات كان معظم من كانوا يأتون إلى بيتنا يدخلون السجن ومعهم الأستاذ وكان ذلك أيام كان السادات رئيسًا.

●●●

أحكي هذه الحكايات لأنني أردت أن أقول إن هذا ما حدث، فيما يتعلق



fb/mashro3pdf

بعملى وعلاقتى به فجرنى الحكى لتذكر حكايات أخرى كنت شاهدة على بعضها، كنت مجرد مشاهد من الخارج، لم أكن طرفًا أساسيًا فى أحداث الحكايات، بل لم أكن طرفًا أصلاً حتى يوم ماتت أمى كأن الأرض انشقت ليخرج من باطنها بشر عرفت بعضهم منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وبعضهم لم أكن قد رأيته إلا فى عزائها هم هؤلاء الذين كانوا يأتون مع الأستاذ وغيرهم، جاءوا ليعزوا بعضهم، لا أعرف كيف ماتت أمى أقول أيضًا هذا ما حدث كانت قد خرجت للمعاش منذ سنوات دون أدنى مشكلة من تلك التى يتعرض لها المعتادون على العمل، ولم تتغير عاداتها كانت تستيقظ فى الميعاد نفسه، تأخذ حمامًا وتعد الإفطار وبعد نزولى لعملى تقرأ الجرائد وتشرب قهوتها الصباحية مع أول سيجارة، ترتب البيت وتبدل ملابسها وتنزل بكامل زينتها وأناقتها ورشاقتها وفى قدميها الحذاء ذو الكعب العالى الرفيع تلتقى بالأستاذ فى مكتبه الذى هو بيته إن لم يكن فى المحكمة صباحًا، تزور أصدقاء وصديقات لها، تدخل سينما، وكانت تخرج أيضًا فى المساء فى أحيان كثيرة تحضر مؤتمرات وندوات فى أماكن مختلفة، لمناقشة أو إثارة موضوعات مختلفة، مثل دعم الانتفاضة الفلسطينية وضد الاحتلال الأمريكى للعراق، حرية الفكر والإبداع، وضد قانون الطوارئ، أقصد أنها تعاملت مع خروجها للمعاش الذى عاشت بعده حوالى عشر سنوات كحدث عادى لن يؤثر على سير حياتها التى كانت تحياها بنفس الشكل قبله.

وفى ليلة عادت من الخارج بدلت ملابسها وأخذت حمامًا وخرجت هادئة وجميلة وطلبت منى أن أتصل بعمى الأستاذ وديع، ودون أن تغادر الابتسامة وجهها قالت: «قولى له ماما تعبانة شوية تعالى حالاً».

وجاء ملهوفًا ومفزوعًا وليس على لسانه سوى «مالك يا عفاف ما أنا سايبك زى الفل يمكن يكون مشوار رفح تعبك شوية»



fb/mashro3pdf

وأفهم أنهما كانا مع قافلة تحمل تبرعات لدعم الفلسطينيين سافرا بها مع آخرين وسلموها فى منفذ رفح وعادوا.

أدخلناها إلى سريرها واستدعينا طبيباً من معارف الأستاذ ومعارفها فحصها وتحدث معها ولم يقل شيئًا، وظللت بجوارها أنا والأستاذ والطبيب وماتت.

حملناها إلى البلد فى سيارة نقل الموتى، التى سارت خلفها عشرات السيارات تحمل بشراً جاءوا ليعزوا بعضهم ويعزوا عمى الأستاذ وديع.

●●●

fb/mashro3pdf

# خالة هاجر

أنهيت يوم العمل فى موعده وعدت إلى بيتى فى الأتوبيس نفسه، الذى وقف فى الإشارات نفسها، ومر فى الشوارع نفسها، وتوقف أمام الأماكن نفسها، وأنا غارقة داخل نفسي، فى حالة من حالات الانفصال عن المحيط الخارجي.

حالة أسقط معها، فى منطقة فارغة سوداء مغلقة عليّ، منطقة ليس بها بشر أو أحداث.

ظللت فى المنطقة المغلقة المظلمة حتى بعد وصولى للبيت. أتحرك داخلها وأنا مفصولة عن الوعي. قمت بالطقوس اليومية نفسها الخاصة بالنصف الثانى من اليوم، قمت بها بآلية ودون إحساس بما أقوم به أو تركيز، ويبدو أننى أغلقت باب الشقة بالمفتاح بنفس الآلية والغياب عما أفعل. كانت أعضائى هى التى تفعل، يداى تتحركان، وساقاى تتحركان، وأصابعى تتحرك، أسير وأقف وأجلس، وأعاود الوقوف والسير، ثم أرقد فى سريرى وأحتضن مخدتى الصغيرة، وأسمع أزيز المروحة التى لم أنتبه إلى أننى أدرتها إلا بعد أن علا أزيزها، وبالآلية نفسها ضبطت المنبه، وأغلقت جرس التليفون والمحمول، حتى أننى لا أتذكر متى ضبطت المنبه وأغلقت جرس التليفون، والمحمول، ويبدو أننى تعاملت بعنف مع مفتاح الشقة التى أغلقت بابها قبل نومى ولا أعرف لِمَ أغلقت باب الشقة بالمفتاح، لأننى لا أغلقها



fb/mashro3pdf

بالمفتاح إلا قبل نومي في المساء ولم أشعر فعلاً وأنا أقوم بغلقها، ولا أعرف كيف تعاملت بعنف أو قوة مع المفتاح حتى أنني كسرته، ولم أخرج من المنطقة المظلمة التي كنت أسير فيها إلا على صوت المفتاح.

هزني الصوت وإدراكي لكوني «محبوسة»، وفي لحظة وقلبي يخفق بعنف قفزت من مكاني إلى الشباك أنادي البواب، ناديته بصوت يحمل فزع الاستغاثة ولهفتها، وكأن النيران تحاصرني من الخلف بينما باب البيت مغلق، وأنا لست قادرة على الخروج للشارع، فأنا أخاف وأرتعب من الأماكن المغلقة. الأماكن التي لا أرى أمامي، وفي متناولي مخرجًا منها إلى الشارع. وعندما أوجد فيها يتلبسني وهم أن نيرانًا مشتعلة تأتي من خلفي وتنتشر في المكان وتحاصرني.

الآن وبعد أن فتح البواب الباب وانتهت مشكلة الباب المغلق اكتشفت خوفي من دور السينما، انتبهت إلى أنني لم أدخل سينما أو مسرحًا منذ أكثر من عشر سنوات، بعد عدة سنوات من قرار إغلاق الأبواب الخارجية لدور العرض ومنع الخروج منها إلا بعد انتهاء الفيلم أو المسرحية لدواعي الأمن، بسبب حوادث الإرهاب التي شهدتها مصر في تسعينيات القرن الماضي.

كان القرار الأمني بإغلاق الأبواب قد اتخذ وتم تنفيذه دون إعلان، ومر وقت بعد تنفيذه، ونحن نذهب بشكل عادي للسينما، أنا وأمي أو أنا وأمي وخالتي ملك التي تضع الذهاب للسينما على رأس برنامج زيارتها للقاهرة - حتى الآن- تذهب للسينما مرة أو مرتين لتشاهد الأفلام الجديدة تحديداً الأفلام الأجنبية، وكنت مثل كل المشاهدين نذهب ونجلس ونتابع الفيلم حتى نهايته ونخرج، حتى عرفت بالمصادفة في مرة من مرات وجودنا في السينما



fb/mashro3pdf

وفى منتصف الفيلم أن الباب الحديد الخارجى لدار العرض مغلق بسلسلة حديد وقفل، ويمنع الخروج قبل نهاية الفيلم. كان الفيلم مملاً فاقترحت على أمى أن نخرج، فأخبرتنى أن خروجنا ممنوع.

وبمجرد أن سمعت أننى ممنوعة من الخروج من المكان شعرت بضيق فى تنفسي، وبنبضات قلبى تعلو وجسدى يهتز، وبدأت رأسى فى الاهتزاز للأمام والخلف فى حركة إرادية ولا إرادية. وبعد وقت قصير بدأت ألتفت خلفى فى دورات متتالية لأرى باب القاعة وأتأكد أن شعاع الضوء المتسرب إليها من الخارج مازال يتسرب مما يعنى أن الباب مفتوح وليس مغلقًا بالمفتاح، وقد هدأت قليلاً عندما دخل أحد المشاهدين من الباب.

لم يستمر هدوئى فقد تذكرت أن الباب الخارجى مغلق بسلسلة حديد وقفل ويجلس خلفه عسكرى يمنعنا من الخروج، هزنى الخوف والرعب بشكل أقوى، فقد تملكنى هاجس أن حريقًا سيشب فى المكان ونحن محبوسون خلف باب مغلق. وعاد جسدى للاهتزاز، وعدت للالتفات برأسى ونصف جسدى الأعلى كله لأراقب الضوء القادم من الخارج عبر فتحة باب القاعة. ثم تملكتنى وسيطرت علىّ فكرة أنه لا يوجد ما يمنع حدوث حريق فى المكان، لدرجة أننى وضعت تصورًا كاملاً لحدوثه بداية من الشرارة الأولى التى يليها عدة شرارات متطايرة تمسك بالألياف الصناعية التى تملأ المكان، وتشعل القاعة كلها، وتخيلت الدخان الذى غطى القاعة وحجب الرؤية، وتخيلت هلع الناس وهى تجرى فى اتجاه الباب، متخبطة لا ترى أمامها، وإن بعضهم سقط على الأرض وإن الأقدام تدوسه، وتخيلت أن صراخًا ينطلق يوشك أن يشق الجدران، وأن من وصل إلى الباب سيجده مغلقًا والحارس ليس موجودًا أو أن المفتاح فقد منه. هواجس وصور خيالية



fb/mashro3pdf

أنا التى أركبها، رغم أن الفيلم مستمر والناس يجلسون فى هدوء على مقاعدهم، لكننى لم أستطع أن أزيح عن عينيّ صورة الباب المغلق والعسكرى يجلس خلفه يمنعنا من الخروج.

ولما انكسر المفتاح فى باب الشقة وقضيت ساعة خلف باب مغلق، عشت كل صور الخطر المتخيلة، الخطر الذى قد يحدث، الخطر المحتمل والذى أعجز عن الهروب منه.

الهروب ذلك الفعل الذى اكتشفت وأنا «محبوسة» كم أحبه، نعم أحب فعل الهروب.وأكره فعل المواجهة، الهروب والمواجهة فعلان متناقضان أفضل الفعل الأول، والحقيقة إننى لا أفضل بل أفعل، أمارس فعل الهروب خاصة فى هذه المرحلة من عمرى وسوف أتمسك بهذا الاكتشاف «الهروب». الذى يعنى أننى أريد بشدة أن أعيش فى سلام، أن أعيش بلا صراعات أريد بشدة أن أقضى هذه الفترة من عمرى فى هدوء.

●●●

انفتح الباب المغلق والذى كنت محبوسة خلفه، وسمعت صوتها يدخل منه آتيًا من خلف الباب المغلق عليها، صوت لا ينطق سوى بسؤال «مين .. مين بيخبط ؟» كأنها لا تعرف بقية الكلام.

«خالة هاجر» زوجة ابن عم جدتى لأمى وكنت أناديه «بجدي». تزوجها سداد حق، تزوجها ولم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها. كانت جدتى تكرر ما تقوله دائمًا عندما تأتى سيرتها أو سيرته: «جابها عيلة البلد، ده حتى ظهرها جالها ونزلت عليها العادة بعد ما اتجوزت، كانت يا دوب بالعافية تجيب إتناشر سنة اشتراها من أبوها بحق شوالين تلاتة غلة الله



fb/mashro3pdf

يسامحه».

كان جدى «الشحات» فلاحًا وتاجر حبوب، وخالة «هاجر» من عزبة قريبة من قريتنا، اشترى أبوها منه حبوبا وعجز عن سداد ثمنها، وكان جدى الشحات متزوجًا من ابنة عمه ستى «الست» وهى أيضًا ابنة عم جدتي، ولم ينجبا أولادًا وحكاية زواجه من خالة هاجر توارثناها من الأفواه وأول من حكى الحكاية لنتناقلها جيلاً بعد جيل إلى بعد موتها هى ستى «الست» التى ظلت تكررها لتثبت أنه لم يتزوج عليها بل هى التى زوجته: «أنا قلت لابن عمى الشحات، لما الراجل أبوها اتأخر فى سداد الدين اللى عليه: «روح للراجل وخيره يا إما يسدد الكمبيالات يا إما نقدمها للمركز، وبعدين فكرت وضربت الحكاية فى دماغى وقلت له: بأقول لك إيه يا أخويا إذا كان الراجل ده عنده بنت صغيرة، مايجوزهالك سداد حق، وأهى تيجى تعيش معانا فى البيت، ويبقى هو خلص دينه اللى عليه، وانت لا حتدفع فيها لا أبيض ولا أسود، وأهى الفرشة موجودة، وربنا كريم يرزقنا بحتة عيل منها، بس شرط تبقى صغيرة علشان تملى البيت ذرية، مش ستة والتانية وعنقودها ينشف، نبقى ماكسبناش حاجة».

وتزوجت «هاجر ضرة الست» كان اسمها يذكر هكذا «هاجر ضرة الست».

ولم أكن أدرك معنى لهذا الاسم المركب من ثلاث كلمات كنت أطرق بابها مثل كل الأطفال وأجرى وصوتها يرد من خلف الباب المغلق ضعيفًا هزيلاً: «مين .. مين اللى بيخبط؟» ونجرى لنختبئ بعيدًا رغم إننا نعرف أنها لن تفتح فقد طرقنا الباب مئات المرات ولم يفتحه أحد.

أسمع صوتها الآن بوضوح، لم أسمع فى حياتى صوتًا بهذا الضعف



fb/mashro3pdf

وهذه الاستكانة، وأتبين الآن تعلق الصوت بطرقاتنا على الباب، الصلة الوحيدة لصاحبة الصوت بالعالم خارجه، هل كانت تنتظر طرقاتنا ؟ ربما فأنا الآن أتذكر أنها كانت ترد مع أول طرقة وكأنها جالسة خلف الباب المغلق عليها تنتظر خطواتنا وتسمع همهماتنا وهمساتنا، أشعر الآن بحنان دافق نحوها تلك التى كنا نسميها «الست المحبوسة».

قررت «الست» ووضعت شروطًا تحكى على الألسنة فى الحكاية: «المره اللى اسمها الست دى كانت مره مفترية وقادره اشترطت على الشحات يوم فرح البت العيلة ضرتها انه يروح يجيبها لوحدها من غير أبوها ولا أمها، وجت ماشية من عزبتهم على رجليها ورا الراجل لحد البلد، لابسه جلابية سودة، ومغطية وشها بالطرحة السودة، وشايلة على راسها يا بنتى سبت فيه عشاهم، ووصلوا لقيوا المره المفترية «الست» على باب البيت، وأول ما شافتهم وقفت على رجل ورفعت التانية سدت بيها فتحة الباب، علشان العروسة توطى وتدخل من تحت رجلها، وقال الراجل النطع الواطى يشخط فى العيلة دى ويقول لها: وطى يا بت بوسى على إيد ستك ووطى راسك وادخلى البيت من تحت رجل ستك. ودخلت يا ضنايا من غير زغروته ولا فرح، دخلت من الدار للنار، عيله ما تعرفش إيه اللى حيجرى لها، ولا تدرك يعنى إيه جواز، خدوها من حضن أمها ورموها فى دار «الست» لجل تسد دين أبوها وميدخلش السجن، البت دى صحيح مسكينة، لولاها كان المفترى دخّل أبوها السجن، ولا همه».

ودخلت «خالة هاجر» البيت الذى لم تغادره، ولم أرها ولا مرة، وكانت جدتى تصفها: بـ«بدر منور عيله وزى ما تكون مكبرتش، زى يوم ما جت من بيت أبوها، نحيفة وجسمها قليل، بس بيضة زى القمر وعينيها زرق ولا



fb/mashro3pdf

التراكوه وشعرها سبايك دهب وناعم زى الحرير وواصل لحد نص ضهرها، ومابتفتحش حنكها بكلمة، غير حاضر ونعم، لما كنت بروح أطل على الله يرحمها «الست» وهى عيانة وأدخل أسلم توطى على إيدى تبوسها كانت بتصعب عليّ قوي، نفسها مكسورة، بس يا سبحان الله فى جمالها، تقولى حورية من الجنة».

ألقت بها ستى «الست» فى حجرة فى آخر البيت ليس بها سوى حصيرة فوقها مرتبة وأغلقت عليها الباب وعادت إلى جدى «الشحات» إلى حجرتها، وفى الصباحية جاءت أمها وأبوها من العزبة، فلم تسمح لهما الست بالحركة بعيداً عن الصالة، ونادت لها لتأخذ سبت الصباحية للمطبخ، وتدخل حجرتها ولا تخرج منها، وقالت لهما: «البت دى تنسوها خالص ولحد ما تيجى لها العادة، حنبقى ناخد وشها، وإن شالت فى بطنها وحبلت أهى قاعدة وإن ما شالتش حنبقى نرجعها لكم زى ما جبناها».

وعاشت خالة «هاجر» كخادمة فى البيت تنادى «الست» يا: «أمه الست» و«الشحات» «أبه الشحات» تصحو قبلهما تغسل، وتنظف، وتجهز الحمام «للست» و«الشحات» وتضع الطعام للطيور، وتأكل ما تبقى منهما وما تضعه لها الست فى طبق، تأخذه وتجلس فى ركن بعيد لتأكله، حكايات مصحوبة بمصمصة الشفاة، حكايات يعرفها كل أهل البلد ويلوكونها، ويتناقلونها، مصحوبة بكلمات الشفقة على العيلة التى تضربها ضرتها إن أخطأت بالكرباج، وتحرقها بطرف سكين أو ملعقة محماة فى النار، أو تشدها من شعرها وتدعك وجهها فى الطين. ليس فى الطين فحسب: «وفى الجلة كمان، مرة المسكينة بعد ما لمت الجلة وطلعت بيها على السطح علشان تنشف، دخلت الست الزريبة فلقيت قرص جلة تحت الجاموسة، نادت للمسكينة



fb/mashro3pdf

وقالت لها: «إنت سايبة دى ليه» ردت عليها: «أنا يا أمه شلته كله بس الجاموسة شخت وأنا فوق «قامت المره المفترية جاياها من شعرها ودعكت وشها فى الجلة وقالت لها: «وكمان بتردى علىّ، إنت تقولى حاضر وخلاص».

كلهم كانوا يعرفون الحكاية سمعوها من «الست» وكلهم حكوها وردوا: «البت الغلبانة اتعذبت والولية الست دى مره كافرة مش حتعرض على جنة وربنا حيحرقها فى نار جهنم».

بعد عامين من زواجها جاءتها الدورة الشهرية: «البت جالها العادة أول مرة واستحمت منها، وخدت وشها وفتحتها، وقلت للشحات ابن عمى ياللا اتوكل على الله وإدعى ربنا يرزقنا بالذرية الصالحة».

«شفتوا المرة الست عملت إيه فى البت الغلبانة بعد ما دخل عليها الراجل الشايب وداق اللحمة الطرية الصغيرة وقايم مبسوط الصبح، قامت دخلت على البت كانت حتموتها وضربتها علقة موت».

«وهو أنا كنت حأسيبها كده، لا بحط لها فى الشاى بالليل تحويجة من عند العطار تهدها وتخمدها، أمال أسيبها تحس بطعم الراجل، ولو حست بطعمه تستقوى عليه والراجل كبير، ما يقدرش على عيلة زى دى والراجل من دول تملكه المره من بتاعه لو هى عفية وقادرة».

ويواصلون الحكي، أسمع أصواتهم، وأميز صوت خالتى ملك من بين الأصوات «المره المفترية اللى بتموت والمرض الوحش بينهش فى جتتها مش عايزة تتهد، البت الغلبانة حبلت وطرحت العيل الأولانى من الشقا والخدمة، وبرضه مرحمتهاش، ولما العيل التانى مات بعد أسبوع من ولادته، برضه تعايرها وتقول لها يا غولة انت بتاكلى عيالك».



fb/mashro3pdf

وتحكى لى خالتى ملك ما لا يحكيه غيرها: «هاجر كانت غلبانة، كانت زى المذهولة، كل اللى حكيته لك ده شوية من اللى حصل لها واللى سمعته، واللى البلد عارفاه، وفضلت تخدم «الست» لحد ما ماتت خدمة العبد لسيده .. المسكينة عقلها غاب ولا اتلحس من كتر ما شافت، ومن الهباب اللى كانت بتحطه لها «الست» فى الشاي.

كانت زى المذهولة طول الوقت، والراجل الناقص عم الشحات لما كان يعاشرها، وهى مش حاسه ولا فاهمه إيه اللى بيحصل كان صوته يجيب آخر الشارع ويضربها ويزعق، يقول لها: «ما تفوقى يا مره، انتِ مسطولة، ولا واكله تاتوره، يا مره حسي، يا مره هو أنا نايم فوق مرتبة، يا مره اتحركى تحتى، انتِ إيه جتة ميت، وكان يسيبها ويهج بالأيام والليالى محدش عارف بيروح فين، ويقفل عليها الباب بالمفتاح، ولحد ما يرجع وهى محبوسة».

تظل محبوسة، تنتظر طرقاتنا على الباب لتؤنس بها وحدتها وذهولها، كنا أطفالاً، وكنا نمارس مغامرة من مغامرات طفولتنا، وكانت المغامرة تكتسب متعة خاصة، عندما يتصادف وجود جدى الشحات فى البيت، فقد كان يفتح الباب، ويجرى خلفنا يسبقه سبابه: «يا ولاد الكلب، يا قلالات الربابة، والله العيل اللى حأمسكه، حأطلع مصارينه فى أيديه يا ولاد الكلب».

ونكون نحن قد اختبأنا فى الحوارى الضيقة أو خلف البيوت، يساعدنا فى الهرب ظلمة الشوارع، وضعف بصره.

لم تفتح الباب إلا بعد موته، فتحته وخرجت ولا يعرف أحد أين ذهبت، قالوا انهم رأوها تسير حافية. وكأنها نائمة فى اتجاه عزبة أهلها، وقالوا،



fb/mashro3pdf

لاحظنا أن الباب مفتوح، فدخلنا ولم نجد بالبيت سوى جثته.

●●●

اتصلت بي نهاد، وطلبت أن نلتقي اليوم، ولكنني اعتذرت لانشغالي مع أسرة الأستاذ نشأت جارنا الذي مات بالأمس، وسيقام عزاؤه الليلة في شقتهم.

لم تتصل بي نهاد منذ شهر تقريبًا مدة لم أعتد عليها، فقد كانت تتصل بي بانتظام على الأقل مرة كل أسبوع منذ موت أحمد ابن خالتي ملك، وبعد موت أمي زادت عدد مرات اتصالها، ولكنها انقطعت عن الاتصال بي، ولما شغلني انقطاعها اتصلت بها أكثر من مرة ولم ترد، كان دائمًا محمولها مغلقًا، وفاجأني اتصالها اليوم، وشغلني عليها إلحاحها في أن نلتقي، لاحظت أيضًا أن صوتها مهموم وحزين ولا أعرف ماذا حدث لها فهي تتحدث بصوت مرتفع نسبيًا، وبأداء سريع كأنها تلهث، تلقى سريعًا بما لديها لأنها بالفعل مشغولة ووراءها دائمًا كما تقول: «مليون حاجة عايزة تتعمل».

جاء صوتها في هذه المكالمة رغم حزنه هادئًا وبطيئًا كأنها تتحدث من مكان بعيد هادئ وآمن، وكأنها تخلصت من كل أعبائها وانشغالاتها الكثيرة.

●●●



fb/mashro3pdf

لم أتصل بنهاد فى أيام عزاء عمى الأستاذ نشأت الثلاث فقد انشغلت مع بنتيه وزوجته فى استقبال المعزين، وفى الترتيبات المعتادة فى مثل هذه الحالات، قضيت الأيام الثلاث تقريبًا فى شقتهم التى تعلو شقتنا، فهم جيراننا، منذ سكنا فى العمارة، كان يعمل موظفًا فى وزارة الزراعة.

بدأت علاقتنا بهم منذ أول يوم سكنا فيه شقتنا، بعد أن فرشناها وهدأت حركتنا داخلها، نزلت «طنط كوثر» زوجته بصينية مكرونة بالبشامل وفوقها فرخة وعرفتنا بنفسها وكانت قد عرفت من البواب أن السكان الجدد هم نحن، ولأنها قدرت أننا- أنا وأمى مشغولتين فى فرش البيت ومتعبتين من السفر و«الشيل والحط» فقد أعدت لنا غذاءً خفيفًا «على ما قسم».

لم تنس لها أمى هذه اللفتة الطيبة، وكانت دائمًا تذكرها، وبدأت علاقتنا بالأسرة واستمرت حتى الآن عمى الأستاذ نشأت وطنط كوثر وبناتهما الثلاثة «ألفت» الكبيرة تكبرنى بأربع سنوات، و«عفت» فى مثل عمرى و«عصمت» تصغرنى بعامين.

الأب موظف، كان أصغر سنًا يوم رأيته أول مرة متوجها إلى عمله فى الصباح، وظللت ألتقى به على درجات سلم العمارة فى الموعد نفسه صباحًا حتى خروجه للمعاش، مرتديًا بدلة كاملة وكرافتة معلقًا بها دبوساً، صيفًا بدلة شركستين وكتان بيضاء ورصاصى وبيج ولبني، وشتاءً صوف أسود وكحلى وبنى غامق ورصاصى غامق، وأحذيته فى الصيف بيضاء ورصاصى وفى الشتاء أسود وبنى وصيفًا وشتاءً أحذيته لامعة بلا ذرة تراب عليها، كان ينزل السلم تاركًا خلفه رائحة اللافندر، التى تعلن عن نزوله بمجرد أن يفتح باب شقته، كان طويلاً ولم يكن نحيفًا ولا ممتلئًا، ووجهه أبيض ليس أبيض فحسب بل به لمعة واضحة أعتقد أنه كان يضع



fb/mashro3pdf

عليه كريم، وشعره مرتب ومدهون بالڤازلين ومصبوغ باللون الأسود الداكن هو وشنبه مما يعطيهما لمعة دائمة، يخرج فى السابعة والنصف صباحاً فى يده منشة بيد عاج وشعر كثيف أسود، ويضع أيضًا أزرارًا - ليست بالضرورة ذهبًا أو فضة- فى أكمام قمصانه، ويضع منديلاً فى جيب چاكتة البدلة، من لون الكراڤتة نفسها، ويعود إلى البيت فى الثانية والنصف بعد الظهر.

لم يختل نظام البيت حتى فى أيام العزاء الثلاثة، فبيتهم من البيوت المنظمة النظيفة المرتبة، كل حركة فيه محسوبة، كل شيء فى مكانه ثابت بما لا يسمح بأن يختل وضعه لأى سبب من الأسباب. الستائر مفرودة على الشبابيك مغسولة ومكوية، والسجاجيد مفروشة وزاهية واللوحات الكنڤاه والايتامين شغل البنات معلقة على الحوائط، بجوارها صور العائلة، وأكبر الصور صورة أم الأستاذ نشأت وعلى الترابيزات الصغيرة فى الأركان مفارش أيضًا من تطريز البنات، وفوقها زهريات زجاج داخلها ورد بلاستيك والمقاعد والأرفف كل شيء منظم ونظيف.

أثار دهشتى تماسك «ألفت» أكبر البنات، كانت تجلس هادئة ومبتسمة ومرحبة بالمعزين، استقبلت كل من جاء سواء من الجيران أو زملائها فى العمل باهتمام شديد. زادها اللون الأسود جمالاً، فهى طويلة وجسدها ملفوف فى تناسق وتماسك، جسد مصنوع بمقاييس مضبوطة. سبب دهشتى من تماسكها معرفتى أنها كانت الأكثر قرباً من أبيها، ومع ذلك حرصت على تصفيف شعرها المصبوغ باللون الأصفر - بنفس الدرجة التى كان عليها وهى أصغر سنًا، قبل أن يبيض شعرها ووضعت «ماكياچ» خفيفًا على وجهها و«بارفان» رائحته ملحوظة، وطوال الثلاثة أيام ارتدت



fb/mashro3pdf

جيب أسود ضيقًا يصل إلى منتصف الركبة وهي عمومًا ترتدى هذا الطول لم تغيره حتى فى فترة اختفاء هذا الطول فى الفساتين والچيبات، وارتدت بلوزة نصف كم، صدرها مفتوح، حتى الجزء الأعلى من ثدييها، ولم يفتها أن تضع حول رقبتها عقد لولى أبيض وأسورته فى ذراعها الأبيض البض وفى أذنيها الحلق بقية الطقم، وعدة خواتم فى أصابعها، وفى قدميها حذاء أسود بكعب عالٍ رفيع، وهى عمومًا كانت ترتدى هذه الأحذية، ليس هى فحسب بل هى وأخواتها وأمها حتى فى البيت كن يرتدين شباشب بكعوب عالية وكن يفصلن ملابسهن بأنفسهن ولا يتركن أظافرهن بدون طلاء، ولا يخرجن من غرف النوم ويجلسن فى البيت بملابس النوم، بل بملابس الخروج، ولم يغطين شعورهن حتى أمهن لم تغطِّ شعرها مع موجة غطاء الرأس أو الحجاب التى انتشرت فى الثلاثين سنة الأخيرة.

وكانت «طنط كوثر» تؤكد دائمًا أن الأستاذ - لم تكن تنطق اسمه تقول فقط الأستاذ فنفهم أنها تقصد زوجها- يحب ألفت جدًا لأنها شكل المرحومة أمه، وهو كان مرتبطًا بها جدًا، فقد مات أبوه وهو جنين فى بطنها، وعاشت من أجله، كان عمرها يوم مات أبوه ١٨ عامًا وكدليل على شدة الارتباط تحكى «طنط كوثر» حكاية ليلة دخلتها على الأستاذ نشأت، تلك الحكاية التى تكررها فى مناسبات مختلفة أو لتستشهد بها على حكايات أخرى، المهم أنها تحكيها أو تلقى بها كأنها حجر راقد على قلبها: «احنا كنا جيران. كنا ساكنين فى شبرا، أنا كنت عايشة فى بيت خالى أصل أنا يتيمة أم وأب والمرحومة هى اللى خطبتنى واتجوزنا، وخلفنا ألفت فى الشقة القديمة فى شبرا قبل ما نعزل لشقتنا دى، وعشنا احنا التلاتة مع بعض لحد ما المرحومة ماتت، هو كان بيحب أمه قوى وهى كمان .. حتى يوم الدخلة،



fb/mashro3pdf

يعني ليلة الفرح، وبعد ما اتعشينا، «وكده» يعني حصلت دخلتنا أنا نمت، حسيت به قلقان ومش عارف ينام صحيت سألته: «مالك يا أستاذ» أصل أنا طول عمري من واحنا جيران بقول له يا أستاذ قال لي: «مش عارف أنام علشان غيرت مكاني، أصل أنا متعود أنام في الأوضة التانية، يقصد الأوضة اللي المرحومة نايمة فيها، مبقتش عارفة أقول له إيه اتلخبطت خالص، وعملت نفسي نايمة، لقيته قام اتسحب وراح نام جنبها وفضل كده لحد ما ماتت يادوب أنا أنام وهو يتسحب من جنبي ويروح ينام جنبها أصله كان بيحبها قوي، ولما ماتت انهار خالص وكنت أنا حامل في «ألفت» ولما ولدتها وجت بنت وسماها «ألفت» على اسم المرحومة، فاق شوية، ومن يوم ما ألفت اتولدت وهو اللي كان بيغير لها ويحميها، كان صبور، معاها بشكل، كان بعد ما يحميها وهي لسه مولوده يجيب زيوت كتير زيت زيتون وخروع وحبة البركة وزيت لوز ويخلطهم على بعض ويقعد يدلك لها جسمها، هي أصلاً شكل المرحومة وطباعهم زي بعض، ده من حبه فيها كان يخليني أرضعها وياخدها وينام جنبها على سرير أمه، أصله كان متعلق بأمه قوي».

لم تتزوج ألفت ووصلت في عملها لدرجة مدير عام، ورغم جمالها فإنها تبدو أكبر من سنها ليست في ملامح وجهها، أو لظهور آثار السن عليه، ولكن قوة جسدها وقوة شخصيتها وإحساسها الشامخ بكيانها يعطي انطباعاً بأنها كبيرة حتى ونحن صغار ونحن طلبة في الجامعة كانت تبدو كبيرة أكبر منا بكثير وليس ببضع سنوات، أداؤها يضع مسافة بينها وبين الآخرين، رغم رقتها وعذوبتها، وتعاملها اللطيف والمهذب.

أما «عفت» الابنة الثانية فهي الآن دكتورة في الجامعة، تزوجت بعد تخرجها من زميلها، وبعد شهرين طلقت ولم تعد لبيت أبيها عاشت في شقة



fb/mashro3pdf

بمفردها، ولم تقدم تبريراً لطلاقها السريع أكثر مما قالته أمها لأمي: «والله يا عفاف هانم ما أنا عارفة إيه اللى حصل كل اللى قالته: «مش قادرة، مش طايقة يلمسني، أو يحط ايده على جسمى» ورجعت زى ما راحت ده حتى ما تأخذنيش رجعت بنت زى ماهيه، سعرفش دى معمول لها عمل ولا نوديها لدكتور نفساني، يكون عندها عقدة من حاجة، حتى فاجأتنا انها خرجت بفرشها على شقة تانية، وجوزها هاجر، مشى من البلد كلها أصله كان بيحبها قوي».

وبعد فترة انتهت صدمة طلاق «عفت» السريع، وسارت الحياة، وانشغلت بدراستها العلمية وأبحاثها وهى فى تخصصها الآن متميزة، وطوال السنوات التى مرت بعد طلاقها لم تفكر فى الزواج، ولم تتوقف عن البحث العلمى فى الأدوية، ولا عن السفر فى مؤتمرات علمية فى كل بلاد الدنيا. «عفت» تشبه أمها كثيراً، فهى متوسطة الطول وليست ممتلئة ولا نحيفة، بيضاء وشعرها طويل وناعم ترفعه وهى ذاهبة للجامعة، وهى أيضاً أنيقة وحريصة على التفاصيل الدقيقة لأناقة مظهرها وجماله، ونادراً ما تزور أسرتها، ومعظم زيارتها تتم صباحاً عندما لا يكون بالبيت أحد إلا أمها.

وثالثتهما «عصمت» التى هاجرت منذ أكثر من خمسة عشر عاماً بعد تخرجها فى كلية الألسن، سافرت للعمل فى بنك فى دولة خليجية ومنها إلى سويسرا للعمل مترجمة فى منظمة دولية، ومنذ سفرها لم تعد إلى مصر، ونادراً ما يذكر اسمها فى البيت، أو يذكر إنها اتصلت بالتليفون أو أرسلت رسالة، وإن كانت صورها تنشر أحياناً فى الجرائد مع أخبار تتعلق بمعونات ومنح صحية لمصر من المنظمة التى تعمل بها، وتكون هى طرف فى



fb/mashro3pdf

المنحة أو المعونة، وتبدو فى الصور المنشورة أكثر نحافة عما كانت قبل سفرها، وأكثر عملية، فقد رأيت لها صورة مرة مع وفد مصرى فى سويسرا كانت ترتدى بدلة كاملة وحذاء بكعب عريض.

بيت الأستاذ نشأت محكوم بنظام لا يختل، فهم جميعًا يستيقظون فى السادسة صباحًا، كنت أشعر بوقع أقدامهم ومازلت أشعر بأقدام من تبقى منهم فى هذا الميعاد، وقع أنتبه له، ثم أواصل نومي، يفطرون معًا ويرتبون حجراتهم، وتخرج البنات وأبوهم وتبقى أمهم، ويعودون فى الثانية والنصف يتجمعون حول مائدة الغداء، ويستيقظون يشربون الشاى ويأكلون معه كيك أو تورتة يصنعنها بالتناوب، وأعمال المنزل الأساسية تتم يوم الجمعة، وتتم وفق جدول بتقسيم العمل يحدده أبوهم، وفى يوم الخميس يخرجون جميعًا للسينما أو المسرح أو للسير على النيل، ويتعشون فى أحد المطاعم ويعودون، ولا يتفرقون إلا للمذاكرة وقد كن متفوقات فى دراستهن ولم يكن يسمع لهن ولا لأبيهن وزوجته صوت، زوجته التى لم تكن تتزاور مع أحد فى العمارة سوى مع أمي، كانت تتصل بالتليفون لتستأذن فى زيارتها، وكانت وبمجرد أن تدخل الصالة وتسلم، تستأذن فى خلع حذائها، وتجلس وهى تأخذ شهيقًا عميقًا وفى كل مرة بعد أن تخلع الحذاء أو الشبشب، تتنهد وتهدأ ثم تقول: «بحس إن روحى مخنوقة بالكعب العالى ده طول النهار لابساه، بحس إن فى مسمار فى دماغي، بس أعمل إيه الأستاذ مابيحبش نلبس فى البيت شباشب بيتى، واطيه معرفش ليه» وترفع أمامها قدميها اللتين تحررتا من خنقة الكعب العالى.

قد يكون موت زوجها نهاية لعذابها من ارتداء أحذية بكعوب عالية ومن طلاء أظافر قدميها بالمانيكير الأحمر، فأنا لم أر أظافر قدميها ويديها هى



fb/mashro3pdf

وبناتها بدون مانيكير طوال معرفتى بهن.

لم يكن الرجل يهتم بالكعوب العالية والمانيكير فقط، بل كان يهتم بالكريمات أيضًا، كان يشترى لكل واحدة علبة كريم خاصة بها ورأيت اهتمامه وأنا فى بيتهم كنا جالسين فى الصالة وأنا مع أمى وقال لهن: «فين الكريم ؟ مش عايز أشوف واحدة منكم ما معهاش علبة الكريم بتاعتها» ودخل حجرة البنات ثم حجرته هو وزوجته وعاد بعلب الكريم ووزع على كل واحدة علبتها وقال: «ياللا حطوا على كعوب رجليكم وعلى كيعانكم وعلى طول عايزكم تحطوا كريم طول ما انتوا قاعدين».

سمعت «طنط كوثر» تشكو لأمى من فرض طقس الكريم عليهن ومن طقس آخر وهو طقس يوم الجمعة: «والله يا عفاف هانم أنا والبنات اتخنقنا من يوم الجمعة ده».

فقد كان يجبرهن فيه على دهن أجسادهن وشعورهن بخليط من الزيوت وعسل النحل، حتى يحافظن على نعومة جلودهن، وكان هو الذى يتولى دهن جسد زوجته بنفسه وكانت تكرر أمام أمي: «أنا بزهق وبتخنق من الحكاية المقرفة دي».

لا أعرف هل انتهى طقس الكريم اليومى وزيوت يوم الجمعة بموته وتحررت طنط كوثر للأبد من الكعوب العالية ومن «تلزيقة» الجسم كل يوم جمعة كما كانت تقول لأمى ؟.

●●●



fb/mashro3pdf

تجاهلت صوت الحركة الذى سمعته فى أدراج مكتبي، وواصلت قراءة الجرائد، وشرب قهوة الصباح مع سيجارتى الأولى.

ليس تدخين النساء فى المصلحة سلوكًا مرفوضًا، فقد سبق جيلى والأجيال الأصغر مني، أجيال أكبر من النساء المدخنات عملن فى المصلحة، ومعظمهن مازلن على قيد الحياة، معروفات الآن كشخصيات عامة، مسئولات فى مواقع مصرية ومواقع دولية، نساء هذا الجيل ممن عملن فى المصلحة بعضهن خريجات جامعة فؤاد الأول، وبعضهن درسن فى أوروبا، وكان يطلق عليهن هوانم المصلحة، أو هوانم الاشتراكية، لأنهن كن من المؤسسات للمصلحة فى حكم عبد الناصر وكن من المدافعات عن الاشتراكية، رغم أصولهن الثرية. طبعًا المصلحة والعاملات فيها اختلفن الآن.

اختفى الصوت الذى سمعته فى أدراج مكتبي، مع ارتفاع أصوات الموظفين وحركاتهم فى المكتب، وأنا انشغلت فى قراءة الصحف ووضع ملاحظات أمام الموضوعات التى سوف أشير إليها فى التقرير اليومى الذى سأقدمه للدكتور، ولكن وبمجرد أن فتحت الدرج الأول لأخرج منه الأوراق التى سأكتب عليها حتى فوجئت بعشرات الصراصير من كل الأحجام تجرى لتختبئ داخل الأوراق، وفوجئت أيضًا بصف طويل من النمل يسير من أسفل لأعلى فى أركان الدرج.

أغلقت الدرج، وقفزت من مكانى، من شدة القرف، والخوف من أن يقفز صرصار علىّ، وقفت بعيدة عن المكتب، لا أعرف ماذا أفعل، ولا كيف أتصرف مع جيش الصراصير والنمل الذى أغلقت عليه الدرج، كما أننى خجلت من أن أنادى الساعى ليأخذ الأدراج وينظفها، خجلت من أن يعرف



fb/mashro3pdf

أن فى أدراجى صراصير ونمل، وأن يعرف أحد غيره بوجودها، وأنا التى تهتم جداً بالنظافة، وبيتى ليس به نملة ولا صرصار، لأنه نظيف، ولأننى ومن شدة اهتمامى بالنظافة أرشه أسبوعياً بالمبيدات، بعد أن تنتهى زوجة البواب من تنظيفه، أرش عدداً من أنواع المبيدات حسب أنواع الحشرات، وأضع فى ماء مسح البلاط كلوراً وفينيكاً وسائل دعك الأرضيات، وبعيداً عن تنظيف يوم الجمعة الذى تقوم به زوجة البواب، فأنا لا أترك كوباً فى الحوض ولا أترك بقايا طعام فى الأطباق، فكيف أترك جيشاً من الصراصير فى أدراجى وما أصابنى أكثر بالقرف أننى رأيت صرصاراً لونه أبيض فى وسط الصراصير.

لما طالت وقفتى بعيداً عن المكتب سألنى زميلى عن سبب وقوفي، فقلت له: «لقيت صرصار فى المكتب وخايفة منه». ضحك وقال «صرصار واحد، يا شيخة قلبك أبيض، ده أنا ساعات بحس أن درج مكتبى فيه فار ولا تعبان، اقعدى بس، دلوقتى يهرب أو يستخبى فى الدرج التحتاني، يا شيخة دى المصلحة كلها عايزه تتهد ولا يترمى فيها مية نار علشان تنضف، انتِ مش شايفة دورات الميه عاملة ازاي، ولا الكراكيب اللى فى الطرقات وعلى السلالم، وفوق السطوح وفى الحوش اللى ورا، المهم أن المدخل نضيف، يقوموا يرموا المكاتب اللى اتكسرت، ورا وفوق السطوح عشان محدش يشوفها، ولما نقول طيب ماترموهم، يقولوا لا دى عهدة. وحييجى حد من الوزارة يستلمها، وموت يا حمار، لما عشش فيها الفيران والعرس والتعابين، هى دى مصلحة دى خرابة، فين المصلحة، كانت زمان، كانت نضيفه على الأقل، انتِ محضرتيش الأيام دي، كانت قصر، اقعدى ما تخافيش عادى، يعنى إيه صرصار، جمدى قلبك».



fb/mashro3pdf

شعرت بالراحة، وأسعدنى وجود صراصير فى أدراج مكاتب زملائي، بل وفئران وعرس فى المصلحة كلها، إذًا ليست المسألة متعلقة بي، ولا بكونى مهتمة بالنظافة أو غير مهتمة، فى الحقيقة أنا لا أهتم بتنظيف أدراج مكتبى ولا إعادة ترتيبها، فمنذ سنوات لم أفتح الدرجين الآخيرين، لأنهما تكدسا بالأوراق، ودائمًا عندى نية فتحهما للتخلص من الأوراق القديمة بهما، وفى معظمها رسائل من المحافظات وتقارير، قدرت وقت وصولها أنها غير مهمة، وأننى لن أعرضها على رئيس المصلحة، وأجلت التخلص منها لعدة سنوات، بل أضفت عليها حتى انحشر بعضها بين الدرجين وبين ظهر المكتب فلم يعد فتح الدرجين سهلاً. فتوقفت عن محاولة فتحهما، واستبدلتهما بمظاريف كبيرة أضع فيها الرسائل والتقارير حتى أصبح فوق مكتبى تل من الأظرف المتلئة، والتى لم أتخلص منها بل أضع القديم كما هو فوق شئن بالحجرة لأبدأ فى ملء مظاريف جديدة، تشكل تلاً جديداً.

ناديت الساعى وطلبت منه سحب الأدراج وتنظيفها فى الخارج، وتنظيف الأوراق وإعادتها لي، ورش الأدراج بمبيد حشري، والتأكد من عدم وجود حشرات أخرى غير الصراصير والنمل، أو وجود بيض صراصير بها.

غسل الساعى الأدراج ورشها بمبيد حشرى بعد أن جففها، وبعد وضعها فى المكتب، أعاد الأوراق، وضعها كومة على مكتبي، بعضها مكرمش وبعضها بهت الحبر المكتوبة به فلم أستطع قراءتها، بدأت فرزها بحثًا عن سبب احتفاظى بها.

ما أثار دهشتى أننى وجدت بين التقارير رسائل سجل أصحابها تاريخ إرسالها، يعود لسنة ١٩٩٠، وبعضها لسنة ١٩٩٥، والمجموعة الأكبر مرسلة سنة ١٩٩٦.



fb/mashro3pdf

تخلصت من التقارير القديمة فهى تعود أيضًا لسنوات مضت، وقد استرجعت معها أحداث عشر وخمس عشرة سنة مضت، كان أبرزها تقارير حول أحداث الإرهاب، وخطط فروع المحافظات فى مواجهتها.

وضع الدكتور الخطط ونفذها مديرو الفروع فى ذلك الوقت، وركزت خطط العمل آنذاك على إقامة الندوات فى نوادى القرى والمراكز وفروع المصلحة، ندوات ومؤتمرات تحدث فيها كُتاب ومفكرون وفنانون كان بعضها يُلغى فى اللحظات الأخيرة بأوامر من طرفين لهما نفس قوة الفعل، الطرف الأول هو الأمن، والثانى هو الجماعات الإسلامية نفسها.

ألقيت تقارير المحافظات فى سلة المهملات وأخذت الرسائل التى احتفظت بها لسنوات بعضها يصل إلى خمسة عشر عامًا.

أخرجت الرسائل التى وصل عددها لأكثر من عشرين رسالة بعضها مكتوب على صفحة واحدة وبعضها عشر صفحات وبعضها مكتوب على أربع ورقات فلوسكاب - وجه وظهر- وهى الرسائل التى استوقفتنى ويوجد منها حوالى عشر من الشخص نفسه الذى كتب اسمه كاملاً وعنوانه على الظرف الخارجى وفى الصفحة الأولى من الرسالة موجهة منه إلى رئيس المصلحة، أول رسالة سجل تاريخها فى أغسطس سنة ١٩٩٣، وآخر رسائله فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٩٦، ثم انقطعت رسائله التى كتبها كلها على ورق فلوسكاب مسطر بالقلم الحبر الأزرق وبخط مرتب وواضح وجميل، ويعرف نفسه فى بداية الرسائل ذاكرًا اسمه كاملاً وعنوان سكنه نفس البيانات المكتوبة على الظرف وبأنه أحد المؤسسين للمصلحة ويتحدث عن نفسه قائلاً «الشخص» ويذكر رقم بطاقته الشخصية وأنه من مواليد ١٩٢٦ وعمره ٧٠ عامًا ثم اهتماماته البحثية وهى نصاً من الرسالة: «البحث فى مجال



fb/mashro3pdf

الرياضيات قسم الحساب الجبرى والتفاضلى تخصص المعادلات الجبرية، البحث أيضًا فى نفس المجال - قسم الهندسة المستوية تخصص البرهان المنطقى على بطلان الهندسة اللا إقليدية».

وفى كل رسائله يطالب بحقه فى عقارات متناثرة فى عدة أحياء قديمة بالقاهرة - بالمناسبة يحمل لقب عائلة عريقة-، ويصف سكان العقارات بصفات محددة منها المنحطون المبتذلون، وبين أقواس المرادف لتلك الصفات بالإنجليزية والفرنسية، ويؤكد دائمًا انه يصفهم بهذه الصفات، لأنهم يسبونه ويعتدون عليه، وفى إحدى الرسائل سجل رصدًا لملاحقات سكان أحد العقارات الذى يعد أحد ورثته والذى يعيش فى شقة من شققه طوال شهر كامل مؤكدًا أنهم يراقبونه ويرسلون له أصواتًا عبر أجهزة متطورة للتجسس. لقد أدهشتنى دقته ودأبه الشديدان، خاصة أن الرسالة مكتوبة عام ١٩٩٣ بينما سجل ملاحظاته طوال شهر سبتمبر سنة ١٩٨٩، وذكر بدقة وبخط جميل هذا التوضيح: «ما يلى منقول عن النوتة» ووضع خطًا تحت الجملة ونقل الملاحظات بالترتيب. الجمعة ١ سبتمبر ١٩٨٩: سماع صوت جهاز كهربائى صادر من الشقة ٢ بدأ فى الثانية عشرة، استمر حتى الخامسة فجرًا، الأحد ١ أكتوبر: سماع صوت قوي، الزمن الواحدة وأربعين دقيقة، سقوط النور على شرفة الدور الثالث من العمارة المجاورة يسقط النور بشكل مائل على قطعة خشب على الزجاج. الزمن السابعة رؤية امرأة لابسة جلابية سوداء تقف منتظرة أمام حائط عمارة (ذكر اسم صاحب العمارة) تمسك كيسًا بشكل أسطوانى، الكيس يتدلى من شقة بالعمارة بالدور العاشر.

المثير فى هذه الرسائل أنها كلها سبق كتابتها وإرسالها لشيخ الأزهر



fb/mashro3pdf

والنائب العام فى أوقات مختلفة ذكرها فى رسائله ومؤخرًا أرسل نصًا لرئيس المصلحة، «فالشخص» كما يطلق على نفسه - رغم أنه ذكر اسمه- ليس له أى مطالب فى رسالته سوى إزالة العمارات المجاورة لعمارته، وإزالة العمارات القديمة بصفته أحد الورثة، وتطهيرها من السكان. من الحثالة: الغرض من الرسالة وتحت هذه النقطة ينقل أجزاءً من مقالات للدكتور محمد عصفور، والعقاد، ود. زكى نجيب محمود وآخرين من فلاسفة أوروبا بعضها يعود لأوائل القرن العشرين وبعضها مترجم عن لغات أجنبية كما ذكر. الرسائل العشر التى أرسلها خلال عامين تكرار لرسالة واحدة، أو لنفس الفقرات من نفس المقالات، ويذكر تاريخ أول مرة كتب الرسالة نفسها ولمن أرسلها كأن يذكر: سبق إرسال هذه الرسالة إلى جريدة الأهرام عام ١٩٧٧، كما أنه ينقل فقرات كاملة من مقالات باللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية دون ترجمة والفقرات المكتوبة بالعربية أوغيرها من اللغات لا رابط أو علاقة بينها.

ترددت كثيرًا فى التخلص من رسائل «الشخص» فقد أعجبنى دأبه ونظامه فى كتابة الرسائل، أعتقد أن دهشتى من دأبه وإصراره هى السبب الوحيد لاحتفاظى برسائله كل هذه السنوات.

فكرت كثيرًا فى «الشخص» وفى مصيره أتصور أنه لم يعد حيًا فآخر رسالة أرسلها كان عمره ٧٠ عامًا، ورغم ترددى فى التخلص من رسائله لكننى تخلصت منها. وخطر ببالى مكتبته التى ذكر ما بها من كتب أكثر من مرة ترى من تخلص منها وهو كان وحيداً لم يذكر ولا مرة أن له علاقة بأقرباء أو أصدقاء، وكان قد ذكر أنه لم يتزوج لانشغاله بالعلم والمعرفة.

●●●



fb/mashro3pdf

سجلت العنوان الذى أملته علىّ نهاد، ووصف الطريق إلى بيت أبيها فى عابدين، لم يكن الوصول إليه صعبًا، ركبت «تاكسي» ونزلت أمام قصر عابدين، وسرت بمحاذاة القصر حتى وصلت للشارع الضيق المتفرع من شارع القصر، الشارع ضيق به عدد من البيوت القديمة لا يزيد عدد أدوارها على أربعة أدوار، وبعضها دوران فقط، البيوت كلها فى الشارع لا تتجاوز العشرة بيوت.

البيوت قديمة متلاصقة تتساند أكتافها محتمية ببعضها من السقوط، نوافذها مفتوحة وقريبة جدًا من بعضها، أمام بعض البيوت، عدد من الأشجار، من بينها شجرتان عتيقتان وصلتا إلى ارتفاع البيتين المزروعتين أمامهما.

هى الحارة التى وصفتها لى نهاد، ولكن بدون طفولتها، بدون أطفالها الذين كانوا يلعبون فيها، ويملأونها ضجيجًا، وبدون أطفال آخرين، فالأطفال الذين كانوا أطفالها، كبروا وخرجوا منها وأنجبوا أطفالاً فى أحياء وشوارع وبيوت أخرى بعيدة، ولم يبق بها سوى آباء وأمهات لم يعودوا قادرين على إنجاب أطفال جدد يملأونها، الحارة هادئة ونظيفة، ومرشوشة بالمياه.

عندما دخلتها كان رجلٌ عجوزٌ يرشها هو الذى سألته عن البيت، رحب بى وكأننى ضيفته، وكانت زوجته جالسة فى بلكونة شقتها تتابعه وهو يرش الماء، عرفت أنها زوجته لأنه بعد أن رحب بى قال لها: «اقفلى الميه يا حاجة» وسار معى بضع خطوات حتى باب البيت وسبقنى للداخل بخطوتين مصفقا بيديه مناديًا: «يا باش مهندسة ضيوف يا بنتي» جاء صوتها من خلف باب الشقة قبل أن تفتحه: « اتفضلوا اتفضل يا عم الحاج اطلعى يا مها» فتحت



fb/mashro3pdf

الباب ووقفت تنتظرنى على بسطة السلم. اطمأن الرجل أو أظهر اطمئنانه عليّ وعليها وأستاذن وخرج.

البيت ثلاثة أدوار، فى كل دور شقتان، شقتا الدور الأرضى مغلقتان، لم يكن أحد بالبيت سوى نهاد، شقتهم فى الدور الثانى وبقية الشقق مغلقة، تركها سكانها بعد زلزال أكتوبر سنة ١٩٩٢، هربوا تاركين شبابيك البيوت مفتوحة - مازال بعضها مفتوحاً حتى الآن معظم سكان الحارة الذين هربوا لحظة اهتزاز الأرض والجدران، تركوا حى عابدين وقصره إلى أمتار وأسقف وجدران بعيدة، استقروا فيها، بعضهم لم يحتمل الحياة فيها، وعاد إلى البيوت القديمة بمجرد أن حصل على ورقة مختومة بخاتم النسر تسمح بالعودة والعيش تحت هذا السقف وتلك الجدران إن تم ترميمها، هذا ما سبق أن حكته لى نهاد لتؤكد ارتباط أهل الحارة بها، ولكن ما لمحته من مظاهر الحياة خلف هذه الجدران المتهالكة لم يتجاوز ثلاث أو أربع شقق فرأيت فى بالكونة غسيلاً منشوراً، وفى أخرى امرأة واقفة، ولمحت إيريال تليفزيون معلقًا فى بالكونة شقة.

صعدت السلالم المتهالكة وخلفى صوت المياه المتسربة من ماسورة مكسورة فى مدخل البيت، وعلى بسطة السلم وقفت نهاد التى أخذتنى فى حضنها الذى لم أشعر فيه بهذا الدفء والحنان من قبل.

دخلت الصالة وبها بقايا سفرة ومقاعد متهالكة ومكومة على الأرض وبجوار الحائط ومنها دخلنا حجرة الصالون، أيضًا المقاعد قديمة وهابطة مغطاة بالكسوة التقليدية التى كانت الأسر تضعها لتحافظ بها على الصالونات من عبث أطفالها، كانت الكسوة ممزقة، والسجادة أيضًا ممزقة



fb/mashro3pdf

وألوانها باهتة، وطلاء الجدران متساقط، والجدران نفسها مشققة فى مواضع مختلفة.

تطل البلكونة الملحقة بالحجرة على الشارع، كانت مغلقة فبانت الثقوب فى ضلفتيها التى يدخل منها شعاع الشمس حاملاً ذرات لا متناهية.

لاحظت نهاد تجول عينيّ فى المكان، فقالت: «ماتخافيش البيت متين، أنا فحصته بنفسى وعملت تصريح بتنكيسه وترميمه، بحلم أرممه يمكن سكانه يرجعوا له تانى بعد ما يترمم، أنا فحصت كل بيوت الحارة فى بيت عمى إبراهيم اللى وصلك دلوقتى هو ومراته قاعدين فيه، وفى شقة تانية فى البيت قاعدة فيها خالتى إيڤون لوحدها، أصل أولادها كلهم هاجروا وهى لما وقع الزلزال راحت عند أختها فى الظاهر وأول ما سمحوا لها ترجع رجعت على طول البيت ده كويس، ممكن يعيش خمسين سنة لو اترمم وفى كام بيت فى الحارة ممكن يترمموا كويس على كل حال كتير سابوا الحارة وكتير رجعوا ما قدروش يعيشوا بعيد عنها».

كنت أنظر إليها وهى تتحدث، أنتظر إجابة عن سؤالى لماذا هى هنا الآن، وقطعت عليّ فرصة السؤال وقالت: «ياه أنا مش عارفة إزاى عشت السنين اللى فاتت دى كلها بعيدة عن البيت ده، أنا كنت مسروقة أو تايهة، لكن الحمدُ لله رجعت».

قالت كلامها ومسحت وجهها بكفيها، كانت هادئة، تتحدث ببطء واكتسى صوتها بنبرة عمق، لم يعد ذلك الصوت المرتفع، ولا المتعجل الذى ومن خلاله تطلق حديثها المتعجل دائماً، وتعبر به عن انشغالها الدائم وعن أشياء كثيرة تنتظرها وأعمال لا تنتهي، وقبل أن أسألها: «لماذا أنتِ هنا ؟» قالت: «قومى نحضر الغدا».



fb/mashro3pdf

رشح المياه فى جدران المطبخ واضحٌ رغم الشمس التى تملأه آتية من بلكونة صغيرة ملحقة به، كان مثل كل المطابخ القديمة، به نملية خشب قطعة واحدة بضلفتين علويتين ومثلهما أسفلها وبينها درجان، ورف عريض معلق على الحائط مرصوص فوقه حلل ألومنيوم غطيانها مطبقة، ومعوجة، و«قعورها» سوداء، طاسات قلية معلقة على مسامير مدقوقة فى الحائط، مطبقية خشب معلقة فوق الحوض معلق فيها بضعة أطباق ميلامين ملونة، وأخرى صينى مرسوم عليها روميو وچولييت، حوض صينى قديم لم يعد لونه أبيض صار مبقعًا أجزاء منه أصبح لونها بنى وأخرى رمادي، وبقايا اللون الأبيض، أسفل الحوض باستلة قديمة تتلقى المياه المتسربة من خرم فى كوع الحوض، وبوتاجاز «المصانع الحربية» تقشر بعض من طلائه الأبيض كان عليه حلتان واحدة بها أرز غرفت منه طبقًا كبيرًا، وحلة بها فاصوليا خضراء باللحم غرفت منها طبقًا آخر، ووضعتهما فوق صينية صاج كبيرة مطلية بالأبيض بها بعض القشور، مرسوم عليها ورد كبير أحمر، وضعت عليها طبقين فارغين وملعقتين ستانلس ستيل محفور على أيديهما سنبلة قمح، حملت الصينية وسارت بها وأنا أمامها إلى حجرة الصالون، وضعت الصينية على الأرض، وقالت: «تعالى نقعد على الأرض أريح من قعدة السفرة، بس يا دوب أنا لسة متوازنة ارتاح شوية وأبدأ فى توضيب البيت وإن شاء الله أرممه وحيبقى كويس».

لم أعلق ولم أسأل أى سؤال حتى انتهينا من طعامنا، وأخذت الصينية إلى المطبخ وأنا خلفها، فى أداء عادى يحدث بين الأصدقاء، وقفت معها حتى غسلت الصحون ووضعتها فى المطبقية، وأخذت من فوق ترابيزة



fb/mashro3pdf

صغيرة بجوار النملية براد الشاي، وضعت فيه ماء وأشعلت البوتاجاز ووضعته فوق الشعلة.

على الترابيزة برطمانات زجاج كانت برطمانات مربى، وضعت فيها الشاى والسكر والملح والفلفل الأسود والكمون، وبجوارهم صينية صغيرة وضعت عليها كوبين، وصبت الشاي، وخرجت للصالون وأنا أمامها.

واصلنا جلستنا على الأرض، نشرب الشاى وندخن.

لم أتحمل تأجيل سؤالى وقتًا أطول فسألتها: «انتِ هنا من امتى يا نهاد، وليه ؟».

فردت ساقيها أمامها وأسندت ظهرها على أحد المقاعد وأشعلت سيجارة وقالت: «من شهر تقريبًا».

لم تتركنى أسألها لماذا، لأنها وبالهدوء الذى أصبحت عليه واصلت كلامها «اتخنقت .. حسيت انى مخنوقة فعلاً فى القصر بتاع محسن وأبوه، اتخنقت من صوت الكلاب وفحيح التعابين، والنظام المحكم اللى الحاج عامله فى الشغل وحنان عاملاه فى البيت، ومحسن مش موجود تقريبًا، وعلى فكرة أنا كنت مرتاحة لأنه مش موجود، وإن تواجدنا مع بعض فمفيش بينا غير الكلام فى الشغل، اتخنقت».

صمتت لحظة ثم واصلت: «مش عارفة أقول لك إيه، موت أحمد هزني، كسر حاجة جوايا، أو خلانى أحس ان الدنيا فضيت عليّ، صحيح أبويا مات قبله وحزنت عليه، وأمى ماتت بعده وحزنت عليها لكن موت أحمد وهو فى عز شبابه وفجأة كده زلزل الدنيا تحت رجليه».

قاطعتها قائلة: «أحمد مات من كام سنة يا نهاد وجايه بعد موته بسنين



fb/mashro3pdf

تقولى الكلام ده ؟».

قالت: «إحساسى بالغربة فى القصر كان بيزيد يوم بعد يوم، كل واحد فينا كان عايش لوحده، تعبت وتهت كتير دورت على نفسي، حطيت كل طاقتى فى الشغل سنة واتنين، ومفيش فايدة، كان إحساسى بالغربة بيزيد، كنت محتاجة أرتاح كنت بحس ان حتى جسمى غريب عليّ.

تعبت لحد ما أخدت القرار، وخلاص سبت لهم القصر ورجعت، أنا كده مرتاحة أكتر».

– طيب والأولاد ولادك ؟

– رفضوا ييجوا معايا اختاروا يقعدوا مع أبوهم وعمتهم حنان فى القصر وده أفضل لهم، هناك حيعيشوا فى نفس المستوى، وقرب مدارسهم، على فكرة أنا كان ممكن آخد لهم شقة أو حتى ڤيلا فى أفخم مكان بس، أنا عايزة أرجع هنا، عايزه أعيش فى بيت أبويا، وارتحت لما رجعت أنا كنت على وشك الإصابة بانهيار عصبي، مش قادرة أوصف لك حالتى قبل ما آخد القرار ده، وأتفق أنا ومحسن على الطلاق، كان القرار سهل خصوصاً ان علاقتنا الخاصة انقطعت تماماً، ياه حاسة إنى كنت فى مشوار طويل وصعب ورجعت منه».

– طيب وشغلك ؟

– أنا لقيت شغل خلاص وبشتغل مفيش مشكلة.

– إزاى كل ده يحصل فجأة أنا كنت معاكِ من شهرين تقريباً إزاى فجأة وانتِ كنتِ عادية.

– كنت فى صراع مكتوم، وكنت بهرب من القرار هربت بالشغل مرة، ومرة بالصلاة والصوم، ومرة بالسهر والخروج والسفر، لحد ما سقطت فى



fb/mashro3pdf

الاكتئاب واليأس، القرار كان صعب وأنا فجأة اكتشفت انى لازم آخذ قرار فى حياتى لازم أغيرها أو أرجع لنفسي، أنا نفسى مكنتش عارفة، وكنت متصورة ان ده العادي، ياه يا مها انت ما تقدريش تعيشى فى القصر ده يوم واحد. المهم إن الإنسان يكتشف نفسه أو يعرف هو عايز إيه. ويكون عنده الشجاعة إنه يفرض اللى هو عايزه، يمتلك شجاعة اتخاذ القرار أيا كانت تبعاته.

تركت نهاد على وعد بتكرار الزيارة، وبتأكيدها احتياجها لوجودى معها فى هذه الفترة، ألحت فى أن أبيت معها، لكننى اعتذرت لعدم استعدادى للمبيت خارج البيت ووعدتها بيوم كامل نقضيه معًا والمبيت معها أيضًا.

خرجت من الحارة للشارع العمومي، ركبت الأتوبيس إلى بيتي، كنت أسير بقوة الدفع الذاتى كأننى مغيبة، فقد استغرقت فى تفاصيل ما سمعته من نهاد، وما لم تقله أبدًا منذ موت أحمد، أكدت أنها حاولت التماسك والاستمرار بدون وجوده، حاولت استعادة مشاعرها وعلاقتها القديمة بزوجها محسن، وصارعت - كما قالت- ضغط أسوار القصر على روحها التى لم تنطلق كما كانت تنطلق فى علاقتها بأحمد، العلاقة التى وصفتها بأنها كانت بلا أسوار ولا حواجز، حاولت أن تستعيد حلمها القديم بالارتباط بمحسن والانتقال من عابدين إلى القصر الملقى على حدود الصحراء الواسعة التى ضاقت عليها كزنزانة، لم تنس رائحة أحمد ولا صوته. غرقت فى العمل، هربت فى كتب الدين المنتشرة فى هذه الأيام، ارتدت الحجاب وخلعته، دخلت بقوة عالم زوجها الجديد بحفلاته وصفقاته، وكانت تشعر أو هكذا قالت أن عيون أحمد تتطلع لها من خلف الأبواب المغلقة أو المفتوحة حزينة ومشتاقة، كانت تسير خلف صوت يأتى إليها من



fb/mashro3pdf

أماكن التقيا فيها، وعيناه اللتان تراهما تمدان خيوط ضوء الطريق إليها، أقسمت انها كانت تسمع صوته وتشعر بحركته فى حجرتها واقتراب أنفاسه من وجهها، أقسمت أنها باتت ليالى فى حضنه، ووصفت التصاق جسديهما وسخونة جسده وطعمه الذى ما عرفت طعمًا مثله ولا تسللت سخونة لما تحت جلدها مثل سخونته، ولما وجدت أنها على حافة الانهيار، اعترفت لنفسها أن الأحلام ليست أبدية، وأن الأحلام - هكذا قالت- ليست زنزانة مغلقة علينا، فأحلامها منذ عشرين عامًا ليست هى أحلامنا الآن، وأكدت انها لن تسترد نفسها إلا بترك القصر الذى كان حلمًا ولم يعد هو الحلم، فتركته وعادت لبيت أبيها فى عابدين، فعلت ما اعتقدت أنه إنقاذ لها، أكدت أيضًا أنها بدأت تتعامل مع موت أحمد بحرية، قالت ببساطة «رجل عشقته ومات، أستطيع الآن أن أحزن عليه دون رقيب أو تأنيب ضمير، أن أحزن عليه وأتذكره بمفردي، لا يشاركنى فى ذكراه أحد فقد كانت حنان تشاركنى حزنى عليه وشوقى إليه بل كانت هى صاحبة الحق فى الحزن، أما الآن فأنا وهو معًا، عاشقة وذكرى عاشق ملك لى وحدي».

لا أعرف هل أحسدها على هذا العشق، وهل أحزن لأن جسدى عاش وسيرحل دون أن يحتفظ بذكرى حب وسخونة جسد ؟ دون أن يحتفظ ببقايا طعم حياة دبت فيه وأسعدته، هل انقضى الوقت وليس على جسدى ولا فى ذاكرتى سوى طعم الأسى من بقايا علامات وبصمات أتمنى محوها من فوق جلدى ومن ذاكرتى ؟

لم أعد أنتظر الآخر أو لنقل بشكل أبسط الرجل - الحب - فات الوقت، لم يعد جسدى يحس بالحنين لندى الحياة، لحضن دافئ لتقلب الجسد فوق الجسد والتصاقهما فى نوبات جنون العطش والارتواء، لم يعد حتى جسدى يشتاق.



fb/mashro3pdf

هل أنا سعيدة أم حزينة لهذه النتيجة التى أعرف أن خلفها أسبابًا وأعرف الأسباب، تلك الأسباب التى وضعتها على جسدى كدرنقة السلحفاة بوعى وإصرار.

كم مرة انتظرت وتمنيت أن أعيش حالة خالتى روحية، أن أعيش انتظار جسدها الليلى لرجل، كم مرة بحثت مثل خالتى ملك عمن يروى جسدى كما روى شوقى جسدها فى الأحلام، ولم تصل ولم أصل للارتواء ولا للإشباع.

تجاوزت خالتى ملك السبعين من عمرها ومازالت تحلم بشوقى وتسبه ولا تنطق اسمه إلا مسبوقًا بالكلب، وتوقفت منذ سنوات عن ذكر رغبتها فى الذهاب لطبيب يجرى لها عملية لشد جلد وجهها، الرغبة التى كانت تلمح لها أحيانًا وتلح عليها كثيرًا فى أحيان أخرى، وكانت أمى تسخر منها أحيانًا وتعنفها أحيانًا أخرى وتقول لها: «ليه يا ملك عايزة تشدى وشك، انت ناوية تتجوزى تانى ولا إيه ؟» فترد عليها: «وحياتك يا عفاف لو أنا عضم فى قفة ولقيت راجل يبل جسمى حاتجوزه، ومش حأخاف من حد ولا حيهمنى الدنيا كلها».

لم تعد تنتظر الرجل الذى انتظرته وبحثت عنه سنوات طويلة، اكتفت فى السنوات العشر الأخيرة بصحبة الرجال، مجرد الصحبة، أقارب فى مثل عمرها وأصغر منها قليلاً، ومعارف من خلال أعمالها التجارية ومشاريعها التى مازالت تديرها وتتحكم فيها، بداية بتحصيل إيجارات الشقق والمحلات وحتى قروض البنوك التى تستثمرها فى تربية المواشى ومزارع الطيور والأرانب وشراء الأراضي.

وهؤلاء الرجال القريب منهم والغريب هم ضيوفها الدائمون تستقبلهم فى شقتها وتقضى معهم الوقت يدخنون الشيشة ويلعبون الطاولة ولا يجرؤ أحد



fb/mashro3pdf

من أولادها على الاعتراض، وأهل البلد اعتادوا أن يتقبلوا ما تفعله «الست ملك» بقوة مالها، ثم لتقدمها فى العمر الذى أعطاها حرية هى مقدمة من المجتمع عن طيب خاطر للنساء اللواتى تنقطع عنهن الدورة الشهرية.

وآخر ما شغلها واستغرق منها وقتًا كان تجهيز سطوح العمارة التى تقيم فيها لنقل لقاءاتها وسهراتها فى الصيف للسطوح، اتصلت بى وأبلغتنى بما فعلت ووصفته بـ: «ولا أحلى كازينو على النيل يا مها تعالى بس انت اقضى معايا يومين ده أنا خليت السطوح جنة بنيت مصاطب وفرشتها وحطيت قصارى زرع وعملت تعريشة عليها لبلابة وحطيت تليفزيون وراديو وكاسيت وجبت كل شرايط أم كلثوم وليلى مراد وعبد الوهاب وأسمهان، وطلعت بوتاجاز وعدة الشاى والقهوة» قاطعتها ضاحكة: «طيب والشيشة يا طنط ؟» فردت ضاحكة أيضًا: «موجودة يا بت بس تعالى انت دى القعدة ترد الروح».

ماذا يرد لخالتى ملك الروح ؟ وهى لم تعترف أبدًا أنها عاشت تبحث عن روحها المفقودة، بل على العكس كانت تؤكد أنها أقوى من الدنيا كلها بل إنها تملك الدنيا وما عليها. هل القوة بديل عن الروح؟

طول الطريق وأنا عائدة من بيت نهاد الجديد أو من بيت أبيها فى عابدين، والصور لم تتوقف عن الحركة أمام عينيّ، ولا الأسئلة، شريط طويل عمره سنوات طويلة - يتحرك، صورة تسلمنى لأخرى، صور تتقاطع وتتشابك وترتبط بعلاقات مع صور أخرى، بشر يتدفقون وذكريات تتزاحم، لتفسح لنفسها مكانًا فى الشريط، تنطلق من الثقب الذى انفتح فى ذاكرتى لتنسكب تفاصيل قديمة كان من المنطقى أن أكون قد نسيتها، والحقيقة أننى لم أكن أعرف حتى إنها محفوظة فى ذاكرتي، فوجئت بها تنطلق من القمقم



fb/mashro3pdf

الراقد فى منطقة ما فى جمجمتي، فوجئت بها بعد أن عدت وحيدة إلى بيتى بدون أمي، كأنها كانت قد وضعت ذكرياتها وذكرياتى فى خزائن دماغى واحتفظت بمفاتيحها طوال حياتها، وكان غيابها هو المفتاح، الذى فتحت بها الخزائن التى سأعيش على ما بها من حكايات بعضها كامل وبعضها ناقص.

والناقص من الحكاية تكمله خالتي ملك، أعرف أنها تعرف بقية كل حكاية لا تقترب منها أمى وإن اقتربت أنا بحذر ترد بحزم: «دى حكايات قديمة يا مها انتهت ومفيش ضرورة نضيع وقتنا فى الكلام عنها» هذه الجملة كانت إشارة الصمت بعد مرحلة الطفولة، وفى طفولتى كانت إشارة الصمت هي: «البنات المؤدبات ما يسألوش الأسئلة دي. ومايتكلموش فى كلام الكبار» وإذا كانت الأسئلة محتملة ومقبولة ومع ذلك لا تريد الإجابة عنها تقول: «ياه يا مها أنا مش فاكرة نسيت» وكنت لا أصدق أنها نسيت لأننى كما سبق وذكرت أعتقد ومازلت أن إدعاء النسيان حيلة اخترعها الإنسان ليهرب من أشياء ما، وكنت ومازلت لا أصدق أن ننسى أيامنا وقطعًا من وجودنا الحى فى الدنيا. ولكننى كنت أنسحب صامتة لأننى «بنت مؤدبة وتربية أبلة عفاف».

وتتوقف الصور عند صورة لأمى وهى حامل بي.

خرجت الصورة من حقيبة صور أمى القديمة لتملأ عينيّ وظلت حتى بعد أن أغمضتهما، جاءت الصورة ومعها سؤال لا أعرف كيف خرج أو من أى منطقة فى عقلى خرج سؤالى الذى أزاح صورتها وهى حامل بى وانكتب على سطح عينيّ: «كيف حملت بى أمي؟»

هل خلعت ملابسها كاملة وخلع أبى ملابسه كاملة ومارسا الجنس معًا؟



fb/mashro3pdf

كيف لامرأة فى مثل عمرى أن تسأل هذا السؤال؟ بالتأكيد هذا ما حدث؟ لم أقصد أن أسأل هذا السؤال، ولكننى بهذا السؤال كنت أهرب من أسئلة أخرى، من تركيب صورة لأمى وأبى تشبه صوراً ركبتها من حكايات خالتى روحية عن لياليها مع زوجها، أو من حكايات خالتى ملك عن لياليها الأولى مع زوجها الثاني، وصور ركبتها أيضًا لنهاد وأحمد، صور مملوءة بالشهوة صور تصدر منها أصوات عالية وتصرخ باللذة، صور يتقلب فيها جسدان فوق بعضهما، جسدان يقبضان على بعضهما بكل قوة وعنف، جسدان يلهثان حتى يصلا إلى أقصى اشتعال، اشتعال يحلمان بأبديته، وببقائهما داخل ذروته بلا انطفاء، جسدان يستعذبان الألم وسخونة العرق المتفجر من مساماهما، جسدان يهبطان إلى بئر عميقة، لحظة أن تلقى بهما إليها ارتعاشة واحدة يعلنان عنها بصرخة الوصول إلى قاع البئر الأبدى الذى لا يوجد لحظتها فى الكون سواه.

لا أقدر أن أركب صورة لأبى وأمى معًا، بأى شكل من الأشكال، حتى لو كانت صورة ممارسة جنسية سريعة وهما بكامل ملابسهما.

أتصور كأنها أخذت حيوانه المنوى ورشقته فى رحمها، ليلتحم ببويضة جاهزة ومستعدة لاستقباله وأجىء أنا فى التحام آلى ومقصود لحيوان منوى وبويضة مستعدة للتلقيح.

فلم تكن أمى تتحدث عن علاقتها بأبى ولا فى إشارة عفوية، لم أر شوقًا له فى عينيها ونحن نمارس طقس إخراج الصور من حقيبة صورها القديمة حتى صور زفافهما لم تكن تقف عندها، ولم أسألها، هل أحبته قبل أن يتزوجا.

كانت تخرج من عينيها إشارة ما توقفنى عند حدود التطلع للصور



fb/mashro3pdf

وإعادتها مكانها دون كلمة أو تعليق، ولم أستطع ولا مرة أن أبدى إعجابى بفستان زفافها الذى مازال موجوداً فى بيتنا فى البلد. مشاهدتى معها لصور زفافها وهى الصور الوحيدة لأبى جعلتنى لا أتأمل ملامحه جيداً ولم ينطبع شكله فى ذاكرتي، ولا أستطيع أن أقول أن أبى يشبه فلاناً أو أن فلاناً يشبه أبي، عموماً هو ليس له وجود داخلي، فهى لم تجعله جزءاً من ذكرياتي، ولم تلعب معى لعبة تأليف نموذج الأب المثالي، تلك اللعبة التى تلعبها الأمهات مع أولادهن الذين يفقدون آباءهم، وهى لم تترك فى حياتى فراغاً كان يحتاج للامتلاء بوجود أب.

مرة عارضة قالت خالتى ملك إن أمى لم تتزوج إلا لتنجب ولولا رغبتها الشديدة فى الإنجاب لما تزوجت، مرت الجملة عابرة أمامى لأنها قالتها فى حديث عن صفات تخص أمي: «أمك عمرها ما اهتمت بحاجة غير بدراستها وشغلها حتى الجواز ماكانش له ضرورة عندها إلا علشان تخلف، كان نفسها فى طفل وخلاص، علشان كده لما اتقدم لها أبوكى وهو غريب عن البلد وافقت عليه».

أحاول تركيب أجزاء الصورة لأراها كاملة، ولكن تظل بها أجزاء ناقصة.

●●●

لم يبق عمى الأستاذ وديع سوى عدد من الساعات بمعسكر الأمن المركزى بالدراسة هو ومنِ أُلقى القبض عليهم وهم فى طريقهم إلى جامعة الدول العربية لتقديم مذكرة احتجاج لعمرو موسى الأمين العام للجامعة



fb/mashro3pdf

للمطالبة بمساندة قطاع غزة بعد الحصار الذى فرضته إسرائيل عليه وبمجرد أن وصل الخبر للدكتور رئيس المصلحة اتصل بى وطلب منى الذهاب إلى مكتبه.

كنت قد رأيت فى الصباح وأنا فى طريقى للمصلحة عربات الأمن المركزى واقفة فى قلب ميدان التحرير وأمام الجامعة العربية وفى الشوارع الرئيسية والجانبية، ورأيت صفوف ضباط وعساكر الأمن المركزى تشكل حوائط بشرية بطول الشوارع ورأيت مجموعات متفرقة من الأمن بالملابس المدنية موجودة على مقربة من العربات والعساكر، تذكرت أمى وابتسمت لثقتى أنها لو كانت موجودة الآن لكانت فى طريقها إلى ميدان التحرير.

لم أكن أعرف أن عمى الأستاذ وديع قد ألقى القبض عليه رغم تأكدى أنه شارك مع الوفد المتوجه للجامعة العربية والذى أخبرنى بإلقاء القبض عليه هو الدكتور عندما ذهبت إليه فى مكتبه وبسخريته المعتادة قال: «عاجبك عمايل قريبك العجوز يا مها، ده صحته مساعداه قوى علشان يروح يمشى فى مظاهرة، أهو اتقبض عليه يا ستى مع شوية عيال صيع فاضيين وأنا اتصلت بالوزير علشان أشوف الأخبار قال لى انهم فى معسكر الأمن المركزى فى الدراسة وحيخرجوا النهاردة مش تقولى للراجل ده يعقل بقى».

كان مزهوًا عندما ذكر اتصاله بوزير الداخلية وأنا استفزتنى طريقته فى الحديث عن المقبوض عليهم، رغم اعتيادى على طريقته فى الحديث عن الآخرين أو عن أى قضية مهما كان حجمها أو أهميتها فإنه يتحدث باستهزاء واستخفاف من أى قيمة، إنسانًا كان أو موضوعًا، رددت عليه ربما لأول مرة فأنا عادة لا أعلق على كلامه ولكننى قلت: «وهو فى صيع



fb/mashro3pdf

بيتظاهروا يا دكتور؟» قاطعنى قائلاً: «دول مش فاهمين حاجة أصلاً وقريبك العجوز كمان مش فاهم حاجة ده عايش فى الوهم، الدنيا اتغيرت والشيوعية خلصت فى بلادها وهو لسه شيوعي».

تحركت فى اتجاه باب مكتبه وأنا أقول له: «وهو الأستاذ وديع عريان ومش حيتغير بعد إذن حضرتك أنا رايحة أستناه فى بيته لحد ما يرجع».

عاد عمى وديع إلى بيته قبل أن أذهب إليه وجدته بمفرده فتح لي، وأخذنى فى حضنه وقال: «إيه يا مها ده لعب عيال ساعتين حجز مش حكاية يعني».

عدت إلى بيتى وفى الطريق رأيت سيارات الأمن المركزى مازالت واقفة فى أماكنها كالتوابيت المرصوصة، واقفة وحيدة بدون العساكر والضباط الذين غادروا الشوارع، وتركوا السيارات. شعرت بفراغ رهيب داخلى كأننى جسد مجوف من الداخل، أخاف من استمرار هذا الإحساس داخلي، الإحساس بالوحدة والخوف من شيء غامض غير محدد. وعندما يصيبنى أراه ممددًا أمامي، راقدًا بطول الطريق من لحظة إحساسى به مع اقتراب الليل وحتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى ماذا سأفعل فى هذه الساعات وكيف ستمر، والخوف من نخر الوقت داخلى يهزنى بقوة، ويصيبنى باضطراب، وخوف من الوقت ومن المسافات ومن الفراغ؟

حملت أمى عنى السنوات التى مضت ووعدتنى بحمل السنوات القادمة، وَعْد لم تصرح به لكنها مارسته، مارسته وهى تؤمن حياتى ماديًا فقد سجلت بيت البلد باسمي، ووضعت مدخراتها فى البنك باسمي، والشقة التى أعيش فيها الآن من البداية استأجرتها باسمي، فعلت كل ذلك دون أن تعلنه لى أو لغيرى كانت تنقله كخبر لأعرف فحسب، هى التى اختارت أن



fb/mashro3pdf

أعمل فى المصلحة، تحت رئاسة الدكتور زميل عمى وديع الدكتور الشيوعى السابق كما كانت تطلق عليه، ويرد عليها عمى وديع قائلاً: «لا يا عفاف الدكتور يحيى حيفضل طول عمره من جواه شيوعى ومناضل بس هى الظروف وارتباك الواقع ممكن ينعكسوا علينا فى اللى يقدر يتجاوز، وفى اللى بينسحب وفى اللى بيفكر غلط وبيعتقد انه هو الصواب، انتِ متعرفيش يحيى اتعذب فى السجون والمعتقلات قد إيه، ده كان أصغر معتقل فى مصر كلها، الحكاية ان قراءته خاطئة للواقع وللظرف السياسي» لم تقبل أمى ولا مرة دفاعات عمى وديع عن الدكتور، ومع ذلك كانت مطمئنة لعملى فى المصلحة لأنه موجود، لم تتحدث فى هذا الأمر ولكننى اكتشفت هذا الدافع الآن، كان داخلها إحساس بأنه لن يخذلها معى رغم كل إحساسها بالخذلان منه خاصة عندما تقرأ له مقالاً فى جريدة أو تراه فى التليفزيون بجوار المسئولين فتصب غضبها وخيبتها على الأستاذ وديع وتبدأ التعبير عنها بقول: «شفت صاحبك اللى انت بتدافع عنه وبتلاقى له مبررات بيقول إيه، يا خسارة، يا خسارة عمرنا كلنا، خلاص يا وديع يحيى بالنسبة لى مات وانتهى».

لم أكن أقبل ثورتها أو أتفهمها، لأننى لم أعرف حتى الآن تاريخ علاقتها بالدكتور ولا عمر وتفاصيل هذه العلاقة حتى تثور لمجرد إنه أبدى رأيًا يلمح فيه من بعيد وبذكاء أنه ضد بيع القطاع، «ولكن»، ولكن تلك يقول بعدها آراء تعتبرها أمى مراوغة وانتهازية، وتؤيد بيع القطاع العام أو أن يهاجم مظاهرات العمال، هو لم يكن يهاجمها صراحة هى التى كانت تسمى كلامه هجومًا على مظاهرات العمال، كان يقدم رؤية لعدم ملاءمة الوقت لتلك المظاهرات، أو عدم فهم العمال للواقع وينهى كلامه بالتأكيد على حق العمال



fb/mashro3pdf

فى الإضراب والتظاهر والاعتصام «ولكن»، وكانت هذه الـ«ولكن» تشعل رأس أمى بالغضب. ومع ذلك كانت مطمئنة لعملى تحت رئاسته بالمصلحة.

لذا لم أشعر لا بالسنوات التى مرت، ولا السنوات القادمة فقد قدمت لى الحماية، ولكن غيابها ردنى طفلة خائفة تبحث عن الحماية، فقد انفصل عنى الجزء الأقوى والأكثر صلابة، ولم يتبق سوى الجزء العادى لن أقول الأضعف، ولكن العادى والطبيعى المعرض للخوف والاهتزاز والارتباك.

هل كنا اثنين فى واحد، هل كنا شخصًا واحدًا له وجهان واسمان وعمران، شخص يفكر ويفعل وآخر لا يفعل لأن جزءًا منه يفعل؟.

●●●

رتبت كل ما يخصنى مع عمى وديع الذى يشبه الرهبان، ضئيل الجسد دقيق الملامح، نباتى لا يأكل اللحوم ولا يقدر على رؤية الطيور المذبوحة والمطهوة، كانت تحكى عنه حكاية لا تمل من تكرارها وتذكره بها دائمًا، وهى إنه عندما حاول والده أن يطعمه قطعة دجاج قال له: «هات لى لحم أسد وأنا أكله لو قدرت تذبح أسد حأكل منه، لكن تتشطروا على فرخة ضعيفة لا يمكن أقرب منها»، كان إذا وجد قميصًا زائدًا عنده يشعر بالذنب وتأنيب الضمير ويبحث عمن يعطيه له، وطلب من أبيه وهو طالب فى الجامعة توزيع أرضه على الفلاحين، باع أبوه الأرض ليس هربًا من توزيعها على الفلاحين، ولكن ليدفع ثمنها أتعابًا للمحامين الذين تولوا الدفاع عنه فى مرات اعتقاله الكثيرة خاصة فى خمسينيات القرن العشرين، هو دائمًا يذكر هذه الحكاية فيقول: «أبويا باع الأرض مش علشان خاف أوزعها على الفلاحين لا باعها علشان يدفع أتعاب المحامين، أصل زمان غير دلوقتي، زمان مكنش فى محامين متطوعين زى دلوقتي». وأنفق أبوه بقية ثمن



fb/mashro3pdf

الأرض وهذا ما عرفته من أمى وليس من عمى وديع، عرفت أنه فى مرة من مرات صدور قرار باعتقاله لم يكن موجوداً بالبيت فاعتقلوا أباه حتى يسلم نفسه، وذكرت أمى أنه تعرض لتعذيب بشع أصيب بسببه بالشلل، فصرف بقية ثمن الأرض لعلاجه ولتغطية مصاريف زيارات السجن لعمى وديع.

لم تترك لى أمى شيئًا أهم من الحكايات، فبمجرد أن انفتحت ذاكرتى وخرجت من الثقب المغلق الذكريات التى تخص فى الحقيقة أمي، وأنا مجرد شاهد عليها، شاهد على حكايات لم أعشها ولكننى سمعتها، أقول بمجرد أن دخلت فى الحكاية، أو بمجرد أن بدأت الحكاية فى الخروج، هدأت وزال اضطرابى وخوفي، ذلك الاضطراب والخوف الذى فكرت معه أن أعود إلى بيت عمى وديع وأبكى أمامه وأعترف له أننى خائفة، ترعبنى المسافة بين بيتى وبيته، ترعبنى الساعات التى تبدأ بعد غياب الشمس وحتى الساعات الأولى للصباح، يرعبنى أن أتصل به فلا أجده، تنتابنى منذ موت أمى هذه الحالة من الخوف، وبعد أن أتخلص منها أخاف من عودتها، أى إننى أخاف من الخوف.

وفى كل مرة أقاوم الحالة، بالتفكير فى وجود عمى وديع لأطمئن، وخالتى ملك، ونهاد، وطنط كوثر زوجة عمى الأستاذ نشأت، أكرر لنفسي، «إن لم ينته خوفى وأتغلب عليه سوف أتصل بعمى وديع، أو خالتى ملك فى البلد أو نهاد، أو أنزل لشقة الأستاذ نشأت لأقضى الوقت مع زوجته، لم أفعل أيًا من اقتراحاتى على نفسى ولا مرة، لأننى أخرج من خوفى إلى حكاياتهم، تأخذنى أصواتهم وحركاتهم، ويعودون يملأون البيت كما كان فى وجود أمى.

●●●



fb/mashro3pdf

# لواحظ

أقسمت خالتى ملك أن «لواحظ» خنقت جنينها، خوفًا من الفضيحة، ودفنته فى زريبة البهائم، ولكنها عادت وأكدت أنها لم تقصد خنقه، وضعت يدها على فمه بعد انزلاقه من بين فخذيها إلى الأرض وبعد أن قطعت الحبل السرى بقطعة زجاجة، مدت يدها لتحمله فوجدته ساكنًا، كان جسده مازال ساخنًا إلا أنه لا يتنفس هزته، وخبطت على مؤخرته عدة مرات ولم يتحرك كان قد مات، قربت لمبة الجاز من وجهه لتتعرف على ملامحه لم تر سوى لونه الأزرق، وعيناه المغمضتان المنفوختان .. تحسست جسده كان قد بدأ يبرد، وضعت يدها إلى ما بين فخذيه فوجدته ذكرًا، أعادته للأرض ونظفت ما بين فخذيها من الدماء وبقايا ما قذفه رحمها بالماء و«بروة» الصابون التى أحضرتها معها، بللت قطعت قماش بالسبرتو مسحت بها بين فخذيها ووضعت قطعة قماش أخرى بينهما، وارتدت سروالها الذى يصل لما تحت ركبتيها وثبتت قطعة القماش بدبوسين فى السروال واحد من الأمام والثانى من الخلف، كان جسمها يرتعش خاصة نصفها الأسفل، وكانت تشعر أنه قد انخلع منها، ولا تعرف هل كان يؤلمها أم كانت تشعر أنه يرتعش فحسب، ولكنها شعرت به يعود إلى جسمها، لما دب وجعٌ شديدٌ فى ساقيها جعلها تحركهما فردًا وثنيًا دون إرادة منها، وذلك بعدما اشتد ضغطها على بطنها،



fb/mashro3pdf

لتخرج ما لم يخرج من رحمها، ولم تتوقف عن الضغط إلا بعد أن أوشكت على الصراخ من شدة الألم، وشعرت بطعم الدم يسيل فى فمها فقد جرحت شفتها السفلى وهى «تكز» بأسنانها عليها حتى لا يخرج منها صوتٌ.

همدت قوتها وارتخت يداها بجوارها. سحبت قطعة قماش كانت على مسافة من ذراعها التى امتدت إليها، جففت بها العرق الذى غطى وجهها وعينيها، تركت قطعت القماش فوق وجهها، وأوشكت أن تغفو، لكنها تنفست بعمق، ودست قطعة القماش فى فتحة جلبابها، لتجفف صدرها وتمسح رقبتها، وأخذت كوز الماء الذى كان بجوارها ورشته على وجهها حتى تفيق، زحفت بمؤخرتها حتى اقتربت بظهرها من الحائط وأسندته إليه، فتحت عينيها لترى على ضوء اللمبة ما حولها رأت عينى الجاموسة الكبيرة تتطلعان إليها، فأجهشت فى البكاء، ووضعت قطعة القماش فى فمها حتى تكتم صوت بكائها، الذى شق صدرها ليخرج منه فكتمته.

ظلت تبكى لا ترى سوى الجاموسة الراقدة أمامها تتطلع إليها، لم تبتعد عينا الجاموسة عنها ولم تطرف، كانت الجاموسة تبكى أيضاً، رأت دموعها تسيل من عينيها.

مدت يدها إلى «كوز» الماء شربت ومسحت وجهها بكفها الذى ملأته بالماء. وبدأت تستعيد وعيها بتفاصيل ما حدث، شعرت أنها خرجت من بئر عميقة كانت غارقة داخلها وخرجت منها، شعرت انها غابت لفترة من الوقت بعيدةً عن الدنيا الموجودة خارج باب الزريبة المغلق عليها، وأنها عادت وأن الباب سينفتح لتخرج منه إلى الدنيا الموجودة خارج الزريبة، دنيا مفتوحة على بعضها بدون باب مغلق عليها هى والجاموس الراقد، وقد اقترب موعد استيقاظه، وخروجه من الزريبة.



fb/mashro3pdf

توقف بكاؤها، هدأت تقلصات أحشائها، سكن الألم، وارتعاشة جسدها، قامت من مكانها، والتقطت المنديل الذى تربط به رأسها من جانبها ولمت شعرها أسفله وربطته بعقدة فوق جبهتها ودون تردد سارت بضع خطوات، أمسكت بالفأس الملقى فى مكانه الذى كانت ستصل إليه حتى بدون الضوء الخافت الصادر عن شريط لمبة الجاز، حفرت فى الأرض حفرة عميقة، وضعت فيها الجنين الميت وخلاصه، وقطع القماش التى استخدمتها، ثم ردمت الحفرة، وخرجت من الزريبة إلى حجرتها المبنية بجوارها كان أولادها مازالوا نائمين، أشعلت الكانون وسخنت عليه ماءً. استحمت ورقدت فى فرشتها على الأرض بجوار أبنائها. «الخوف من الفضيحة أكبر من الخوف من الموت».

بهذه الجملة علقت خالتى «ملك» على قولي: «دى كان ممكن تموت كده».

مازلت أتذكر لواحظ لم أنس شكلها كنت أراها وأنا طفلة فى بيت خالتى ملك القديم فى العزبة، امرأة ضخمة كل شيء فيها ضخم أو ربما كنت أراها هكذا مقارنة بحجمى وقتها وحجم أمى وخالتى ملك، طويلة وهذا الطول مكسو بكتل من اللحم الطرى البارز، بطنها كبيرة ومتكورة أمامها ومؤخرتها كبيرة ومتكورة خلفها، لم تخف الجلابية السوداء الواسعة وجودهما الضخم، ولم تخف الطرحة السوداء المنسدلة على صدرها حجم ثدييها الكبيرين أيضاً، وكانت تسير حافية القدمين، بينما تضع «الكتلة» تحت إبطها، قدماها كبيرتان ومفلطحتان وكعباهما مشققان، مملوءة شقوقهما بالأتربة التى أصبحت جزءاً من جلدهما، كفاها أيضًا كبيرتان ومفلطحتان ولم أكن أراها إلا وفى يدها شيء تأكله، وفى «سيالة» جلبابها تضع دائماً أشياءً تمد يدها وتخرج بشيء منها تضعه فى فمها مرة واحدة



fb/mashro3pdf

وتغلقه عليه فيكون قطعة حلاوة طحينية، تضعها فى فمها وتلوكها ببطء وكأنها تستحلبها، وتغمض عينيها وهى تبتلعها بسعادة تغمر وجهها، مرة أخرى، تخرج «زر خيار» تمسحه فى جلبابها ثم تقضمه باستمتاع وهى تقول «ياه الخيار ده بيطرى على الجلب بشكل» جاءت مرة إلى بيت خالتى ملك وفى يدها «شقة» بطيخ ظلت تقضمها حتى وصلت إلى بياض القشرة التى ظلت أيضًا تنحتها بأسنانها حتى قالت لها خالتى ملك: «جرى إيه يا لواحظ حتاكلى القشرة، قومى اقطعى لنفسك حتة بطيخ من المطبخ» ردت عليها: «يا ست ملك البطيخ ده ربيع البنى آدم» ضحكت خالتى ملك وهى ضحكت ضحكات متواصلة حتى دمعت عيناها وأنهت ضحكتها بالجملة التى تنهى بها ضحكها دائمًا: «ضحكتينى يا ست ملك والنبى ما كان على جلبى ضحك».

رأسها كبير ليتناسب مع حجم جسدها الضخم ولكن ملامح وجهها دقيقة بشكل لا يتناسب مع حجمها. فمها صغير ولها شفتان ممتلئتان وأنفها صغير، وعيناها واسعتان سوداوان وزموشها طويلة وحاجباها كالهلالين فوق عينيها اللتين لم تكن يفارقهما الكحل، الذى كانت تأخذه من خالتى ملك: «والنبى يا ستى ملك إدينى فى الجزازه دى غبارة كحل أصل عينيه بتوجعني» فترد عليها خالتى ملك: «عنيكى برضه بتوجعك يا مرة يا مهروشه». فتضحك حتى تدمع عيناها وتقول: «ضحكتينى يا ست ملك وأنا والنبى ما كان على جلبى ضحك» وتنطق «ضحك» بضم الضاد فتنطقها «ضوحك».

كانت «لواحظ» أرملة مات زوجها وترك لها ثلاثة أبناء، بنتا وولدين،



fb/mashro3pdf

عاشت معه قبل موته فى بيت مبنى بالطوب النى مكون من حجرتين وحوش صغير به دورة المياه و«طلمبة الميه» والكانون وفرن الخبيز، كان عمرها ستة عشر عامًا يوم تزوجته، وخمسة وعشرين عامًا يوم مات، وقبل أن يرقد رقدته الأخيرة وينتفخ بطنه، لم يعد يظهر منه تحت الغطاء سوى بطنه المنفوخ كانت صحته «على قده» وكانت هى التى «تجري» عليه وعلى العيال، من غيط لغيط تنقى الدودة وتجنى القطن، وتشتل الأرز وتحمل غلة البيوت لتطحنها فى وابور الطحين، وتخبز لمن يطلبها وتنظف الزرائب وتتربت تحت البهائم وتعود آخر النهار بأجرتها نقودًا ودقيقًا وأرزًا وبقايا طعام، وأسعد أيامهم هى التى تطلبها فيها خالتى ملك، فلم تكن تطلبها لأداء عمل لأن بيتها به من يعمل فيه، ولكنها تطلبها لأنها تحبها وتستأنس بها وفى آخر النهار تعطيها أجرة يومها وطعامًا وملابس قديمة لأولادها ولزوجها.

لا تذكر خالتى ملك متى تملكت «لواحظ» خمسة فدادين من الإصلاح الزراعي، ولكنها تذكر يوم عرفت بالخبر منها، جاءت إليها فى الصباح وهى تكاد ترقص، وهى تنادى عليها من مدخل البيت: «يا ست ملك، افرحى لى يا ست ملك» وصوت خالتى ملك يرد عليها: «اطلعى يا مرة يا هبلة واصطبحى على الصبح فيه إيه».

حكت لها «محمود أفندى أبو محمد جالنا البيت امبارح وقال انه حيقدم أوراق عند الحكومة علشان يبونى خمس فدادين من بتوع الإصلاح، خمس فدادين هنا فى بلدنا من أرض الباشا اللى الحكومة حطت إيديها عليهم ورحت معاه النهاردة طلعت بطاقة عائلية وعملت ختم علشان نخلص بقية الأوراق، يا سلام يا ست ملك حيبقى عندى أرض ملك أزرعها أنا والعيال وربنا يرحمنا بقى من المرمطة والبهدلة، إلهى يا ست ملك ربنا يكرمه جمال



fb/mashro3pdf

عبد الناصر، ويوسع رزقه وينصره على مين يعاديه، لا وحناخد الأرض فين، فى أرض الباشا، دى ياما سرقت منها ذرة وخيار وطماطم، والنبى يا ست ملك كنا زمان وأنا لسه بنت بنوت أنا واخواتى ياما اشتغلنا فى الأرض دي، وشربنا فيها المر ودقنا الذل، وكنا نفرح ونضحك واحنا بناخد كوزين ذرة ولا ملو حجر باميه من ورا الخولى قال سرقنا الجمل والحكاية كلها طبخة بامية وحبايتين طماطم».

أنهى لها الإجراءات محمود أفندى وتسلمت عقد الخمسة فدادين فى عيد الثورة من المحافظ وبمجرد أن انتهى الاحتفال أخذ منها محمود أفندى عقد الأرض والختم والبطاقة الزراعية، وختمت على أوراق بطلب قرض من البنك بضمان الأرض والمحصول، وفى يوم وليلة بنى محمود أفندى فى حوش بيتها زريبة واشترى عجلين وجاموسة وربطهم فى الزريبة، بعد أن جهزتها وتربت تحت البهائم، وفرشت الأرض بالتبن والقش ووضعت العلف والماء فى «الطوالة» وحشت البرسيم من الأرض وأطعمته بيديها للبهائم، مر العام ولم تر من المحصول سوى شوالين أرز ومثلهما قمح، والبهائم تلد أو تولدها بيديها و«الولده يا دوب تشد حيلها إلا ويجى محمود أفندى ويسحبها على السوق ويجيب غيرها يعشرها ويستنى لحد ما تولد ويبيع الولدة وأنا زى الأطرش فى الزفة، باشتغل أنا والعيال فى الأرض بلقمتنا زى ماكنا بنشتغل عند الناس بلقمتنا برضه».

تنقل خالتى ملك ما حكته لها لواحظ وتضيف من عندها: «محمود ده وسخ بيشتغل فى الإصلاح وعارف خبايا كل حاجه وعلى حس الأرض خد قروض من البنوك وعمل مشروع المواشى ووسعه، ولما الغلبانة جت تطالبه بالورق وبحقها وحق عيالها قال لها، الأرض مديونة وانتِ مش حتعرفى



fb/mashro3pdf

تتصرفى وكلمة من هنا على كلمة من هنا ميل عقلها وحبلت منه فى الواد اللى نزل فى السابع ويا عالم نزل ميت زى ما هى بتقول ولا هى اللى كتمت نفسه علشان ما يصرخش فمات غصب عنها، بس المعفن اللى اسمه محمود ماكانش بيجيها إلا فى الزريبة، هى اللى حكت لي، كان يخليها واقفة بتنضف ولا بتشوف البهايم، وينط عليها ويتدحلب لحد ما يلينها وعلى كوم القش ياخدها وياخد غرضه، وهى صغيرة ومحتاجة، العادة قطعتها شهر واتنين لحد ما حست بالعيل بيلعب فى بطنها، قالت له، يقوم الفاجر يقول لها نزليه أنا مش مسئول عنه، ولما قالت له طيب ادينى ورق الأرض وختمى يقول لها ملكيش حاجة عندي، كان خاتم بختمها وصولات أمانة، وهددها لو فتحت حنكها حيقدم الوصولات للنيابة ويسجنها، وهى جاهلة، كتمت فى قلبها وسكتت دى لو كانت قالت لى كنت خليت الشبشب أعلى منه قيمه، كنت شردته وسجنته، بس المرة الهبلة ما قالتش، ومعرفتش إلا فى اليوم المشئوم اللى ولدت فيه، الصبح كنت صاحية ورايحة أشقر على الفلاحين فى الغيط، لقيتها بتخبط على الباب وبتطلع من غير ما تنادى من تحت زى عادتها، وأول ما شافتنى اترمت فى حضنى وقالت لي: «غيتيني يا ست ملك أنا فى عرضك أنا فى رقبتى كوم لحم عايزة أعيش علشانهم».

حكت لخالتى ملك ما حدث كله ولم تخف عنها شيئًا: «والله يا ستى ملك ده اللى حصل وما بزود إلا النفس، وبعد ما استحميت نمت فى وسط عيالي، محستش بنفسى إلا لما العيال قاموا، زى ما أكون كنت فى حلم، النوم كان تجيل وأنا غرجانه مش حاسة بنفسي، يمكن أكون سخسخت، وفجت على صوت العيال جبل ما يطلعوا الغيط، فتحت عينيه وافتكرت أن أنا كنت حبلى وجالى الطلق، جلبى انخلع، ومصارينى من جوه اتجطعت



fb/mashro3pdf

جريت على الزريبة بشعرى منكوش فتحت ودخلت، العيال كانوا سحبوا البهايم وطلعوا على الغيط، والزريبة فاضية، ومفيش أثر لأى حاجة، وكل اللى كنت فاكراه جبل ما أجى هنا أنى حسيت بالطلج ودخلت الزريبة، وحسيت انى دايخه وحأجع من طولي، وجتتى جايده نار، وبتشر عرج وبردانه جوي، جفلت الزريبة وجريت عليكى ولحد ما جه الدكتور وكشف عليّ وأدانى الحجنة ونمت، وصحيت وأنا مش فاكرة حاجة لحد ما ابتديت أحكى لك، والله العظيم يا ست ملك إنشالله ما أوعى أجوم من مطرحي، أنا ما خنجت العيل، أنا بس كنت خايفه صوته يطلع، وكنت ناوية ألفه وأرضعه، وأخدوا وأحطه جدام الجامع يعنى كنت حأعمل إيه، يا ست ملك، ما أنا وليه غلبانه ومش حمل فضايح ولا حنك زيادة ينفتح فى البيت».

أقسمت خالتى ملك مرة أخرى أن لواحظ حتى إن لم تخنق جنينها فقد ارتاحت لأنها تخلصت منه، لم تسكت خالتى ملك وكما قالت: «النار ولعت فى جسمي، وحسيت بغل الدنيا كله فى قلبى من الكلب ابن الكلب محمود أبو محمد الصايع، بعت له، وقلت له يرجع عقود الأرض للوليه الغلبانة رفض، وقبل ما يبجح ويعلى صوته عليّ، قلعت له الشبشب، وقلت له: «شوف يا حرامى إن رفعت حسك على ستك ملك هانم حانتف الشبشب ده على وشك» ومشيت مش عارفه أعمل إيه رحت واخده فى وشي وجيت لأمك والحاج حسين الله يرحمه ورايا، وحكيت لأمك اللى حصل كله، انت كنت صغيرة فى الوقت ده كنت دخلتى المدرسة مش فاكرة بس كنت قاعدة فى وسطنا، أمك بطريقتها الهادية الرايقة دى قالت: «نرفع قضية البلد فيها قانون» أنا كنت ناوية أطلق عليه الرجاله بتوعنا اللى بيزرعوا أرضنا بس أمك على طول اتصلت بعمك وديع كان له سنة ولا أكتر شوية طالع من



fb/mashro3pdf

المعتقل، وفتح مكتب محامي، مسك القضية واكتشف بلاوي، كانت يا بنتي عصابة مش الواد محمود بس لا وغيره كبار قوى وواصلين زوروا عقود تمليك وبطاقات زراعية، وسجلوا حيازات صورية، وكانوا بيتاجروا في الكيماوى والبذرة والمبيدات، وخربوا البنك والواد محمود ده كان أخيب واحد فيهم، كان طعم يصطادوا به الغلابة اللى فى البلد، المهم اترفعت القضية، والجرايد كتبت مش فى بلدنا بس فى بلاد تانية كتير، وفى ناس اتقتلت فى الحكاية دي، الحرامية دول قتلوا وحرقوا، وأمك كانت خايفة على عمك وديع بس هو راجل جدع، ولا همه، هو وزمايله اللى كانوا معاه فى المعتقل شالوا القضية، كل واحد فى بلد، بس قبل ما يتحكم فى القضية للغلبانة لواحظ كانت ماتت كان عندها الكلى، جالها فشل كلوى واترمت فى المستشفى الأميرى لا علاج ولا غيره وماتت بس الأرض رجعت لعيالها وأرض كتير رجعت، بس محدش من الكبار اتحاسب، دخلوا السجن كام واحد من الصغيرين وقلت منها الواد محمود إزاى مش عارفة مع انه شيخ منصر ووسخ».

هذا ماحدث، جاءت خالتى ملك لزيارتى ولقضاء يومين معي، ذهبت للدكتور للاطمئنان على صحتها، وقال لها كالعادة: «صحتك زى البمب يا ملك هانم، انتِ صحتك أحسن من صحتى قومى وعيشى وماتخافيش» وكالعادة فردت أصابعها الخمسة فى وجهه وقالت: «صلى على النبى يا دكتور، انت عايز تحسدني». ضحك وضحكت، وخرجنا من العيادة منتظرة اقتراحاتها لقضاء الليلة، فاقترحت أن نأكل آيس كريم فى جروبي، ثم ندخل فيلمًا أجنبيًا فى السينما.

سألتنى عن عمى وديع أخبرتها أنه مشغول فى قضايا الفلاحين الذين



fb/mashro3pdf

تملكوا أرض الإصلاح الزراعي، ويطردون منها الآن لأن الحكومة أصدرت قانونًا يعيدها للباشوات القدامى، وقبل أن أشرح لها كيف أن الحكاية وصلت لحد قتل الفلاحين فى الأرض وحرق بيوتهم وطردهم منها، واعتقالهم، قاطعتنى قائلة: «أنا عارفة يا مها كل اللى بيحصل من الجرايد والمجلات، والدش كمان، زى ما يكون الدنيا وقفت، ومفيش حاجة اتغيرت، أسمع عن حكايات الأرض دي، أفتكر لواحظ الله يرحمها».

وبعد أن حكت حكاية لواحظ، وأكدت أنها لولا معرفتها بالدكتور الذى جاء وأنقذها، لماتت بفضيحة، لكن ربنا ستر والدكتور «طلع شهم وجدع»، والسنين عدت، والباشا أخذ أرضه، وعيال لواحظ، سابوهاله وطفشوا من البلد كلها، قولى لعمك وديع يريح نفسه مفيش فايدة، وهو لسه صغير على هدة الحيل دي، ولا صحته مساعداه قوي».

حاولت أن أهون عليها فقلت: «عمى وديع مش لوحده معاه محامون كبار من زملائه فى المعتقل، معاه كمان محامين ومحاميات كانوا زملائى فى الكلية، ومعاه كمان شبان صغيرين، لو شفتيهم يمكن تفتكريهم، كلهم كانوا ماشيين فى جنازة ماما».

●●●

fb/mashro3pdf

# عمتى نعيمة

جئت إلى القاهرة فتاة فى الثامنة عشر من عمري، ومضت السنوات حتى وصلت بى للمعاناة من تبعات سن اليأس و«انقطاع الطمث»، وقع الكلمتين معًا على أذنى مضحك: «انقطاع الطمث». جملة لها موسيقى داخلية خاصة.

مرحلة جديدة فى حياتى بدأت بتوقف دورتى الشهرية وحل محلها حالات السخونة التى تهب من جسدي، من داخله، من جوفي، من أصابع قدمى ومنابت شعري. من أذني، يخرج صهد ساخن أيًا كانت برودة الجو يسمون هذه الحالة «هبو» - هكذا قالت لى خالتى ملك- ومن كل مسامى يخرج عرق لا يجف أو أحسبه لن يجف، ثم وبعد دقيقة أو دقيقتين يتوقف خروج العرق من مسامى خاصة من رأسى ووجهي، ويجف وبجفافه تلف جسدى برودة شديدة تصل لحد القشعريرة، يوقظنى الصهد الخارج من جوفى ومن جلدى ومن فتحات جسمى كلها من نومى ضاغطًا على معدتى وأحشائى فى تقلصات بدون ألم لكنها خانقة وثقيلة، أزيح الغطاء عنى فى ليالى الشتاء الباردة إلى أن تنتهى نوبة «الهبو» ويبرد جسمى فأعيد الغطاء، دورات بلا توقيت تدهمنى فى المواصلات وفى العمل.

ينز العرق من وجهي، وكما يهاجمنى الصهد والعرق فجأة، فإنهما يتوقفان فجأة، فى نوبات متتالية المسافة بين النوبة وتوقفها قصرت فى



fb/mashro3pdf

الفترة الأخيرة، فلم أعد أنام، نومًا متصلاً، فالنوبة تأتى مرات كل نصف ساعة، ومرات كل عشر دقائق، وتأتى أيًا كان الجو المحيط بى حتى لو كنت أجلس فى مكان مكيف.

لم أعد أصاب بالحرج والارتباك عندما تداهمنى نوبة «الصهد والعرق» أمام الناس، كما كان يحدث لى فى بداياتها، وكان المحيطون بى خاصة زملائى بالمصلحة يلاحظون ضجرى المفاجئ، وشكوتى من «الحر» التى تبدأ بـ «أف إيه الحر الفظيع ده» وأبدأ فى تجفيف عرقى الذى ينز بشكل واضح، مع احمرار شديد فى وجهي، لم أكن فى البداية مدركة أن هذه أعراض انقطاع الدورة فكنت أعبر عن الحالة بشكل عادي، فيعلقون: «الجو مش حر مالك انتِ تعبانة؟» ولما عرفت أنها أعراض انقطاع الدورة توقفت عن التعبير عن حالتي، ولكنهم لم يتوقفوا عن التعليق «مالك يا مها انتِ وشك أحمر قوى وعرقانة كده ليه؟» فأرد: «لا أبدًا يمكن يكون ضغطى عالى شوية».

تخلصت من حرجى وارتباكى بالاعتياد واستمرار الحالة، والتعليقات، لم يحدث لى ما قرأته عن إصابة النساء بالاكتئاب بعد انقطاع الدورة، قرأت أن الارتباكات النفسية المصاحبة لانقطاع الطمث أسبابها إحساس المرأة بنهاية حياتها، بفقدان قدرتها على الإنجاب، وفقدان أنوثتها، أعتقد أن اختزال معاناة المرأة من انقطاع الدورة بإحساسها بفقدان أنوثتها، اختزال فيه تسطيح، واستسهال، فنساء كثيرات لا ينجبن، أو توقفن عن الإنجاب قبل انقطاع الدورة بسنوات، لأنهن اكتفين بطفل أو اثنين وكان أمامهن فرص لإنجاب خمسة أطفال آخرين وأكثر، كما أن ربط إحساس المرأة بأنوثتها بالدور الشهرية ربط ساذج، فنساء كثيرات يفقدن إحساسهن



fb/mashro3pdf

بأنوثتهن وهن فى سن الشباب، وغيرهن يحتفظن ليس بالإحساس بالأنوثة بل بالتباهى بها وإبرازها حتى بعد انقطاع دوراتهن الشهرية، الحقيقة التى عشتها من خلال تجربتي، هى الألم العضوي، الذى يسببه توقف هرمون فى الجسد، كأى هرمون آخر. فى النهاية هو ألم ومعاناة عضوية وليس خللاً نفسيًا وهذا ما حدث معى.

بعد ما اعتصرت نوبة من نوبات السخونة أو «الهبو» أعضائى وأحشائى من الداخل، هدأ جسمى وارتخى، جففت عرقى الذى خرج من مسامى وخرجت معه صورة عمتى «نعيمة» هى ليست عمتي، بل عمة أمى واعتدت أن أناديها عمتى كما كانت تناديها أمي، وكانوا يطلقون عليها فى غيابها: «نعناعة» أضفت أنا إلى الاسم «القطة الشجاعة» ماتت بعد السبعين من عمرها، وهى تؤكد أن «العادة بتتعبها» تقولها تعليقًا على شكوى أى بنت من بنات العائلة من الدورة الشهرية.

عمتى «نعيمة» ضئيلة الحجم جداً خمسة «سنتي» فى طولها أنقذوها من أن تكون قزمة، وكانت نحيفة، وتدارى نحافتها بارتداء جلابيب بوسط «مكشكش» واسع، «فينفش»القماش حول جزئها الأسفل فتبدو دائمًا كعروسة المولد الحلاوة، خاصة أنها ترتدى جلابيب ملونة بألوان زاهية وواضحة وصريحة، الأصفر أصفر فاقع والأخضر مثله، والورد الأحمر منتشر بطول وعرض القماش أما جزؤها الأعلى فمسطح أملس، يتدلى عليه من عنقها عقد زجاج أسود لا تخلعه أبداً، كما إنها لا تخلع حمالات الصدر، اللاتى تحشيها قماشًا أو قطنًا حتى يظهر لها ثديان ممتلئان أسفل العقد الزجاج، والذى تقف حباته عند فتحة صدر الجلباب الذى تهتم «بتقويره» من



fb/mashro3pdf

أسفل العنق وحتى نقطة التقاء ثديين مفترضين، تخيط لهما حمالات من القماش عند الخياطة التى تخيط لها جلابيبها، ورغم تكرار الخيَّاطة رفضها، خياطة حمالات جديدة، فإنها كانت تصر، وترضخ الخياطة لطلبها فى النهاية.

عمتى نعيمة سمراء، أقرب إلى اللون البني، ووجهها صغير كأنه دائرة بها عدة فتحات ونتوء هى عيناها الضيقتان وفمها الذى لا يمكن وصفه إلا بأنه شريط مفتوح فى وجهها، إن أغلقته يسيح مع بقية مساحة وجهها أسفل النتوء الذى هو أنفها، أنف فى حجم الزيتونة له فتحتان ضيقتان لأداء مهمة التنفس، شعرها لا يظهر منه سوى جزء صغير من ضفيرتين أسفل منديل الرأس الذى يميل فوق جبينها، بالقرب من حاجبيها المرسومين بالقلم. لم يكن شعرها ينمو، توقف نموه، فلم أر الضفيرتين أطول مما كانا منذ أن وعيت وحتى وفاتها.

لم أر فى حياتى امرأة اشتهت الزواج وانتظرته بهذه القوة والاستغراق فى اشتهائها وانتظارها له، ورغم سطوة الاشتهاء وعنفه، وطول الانتظار فإنها لم تفقد الأمل.

اعتمدت لتحقيق أملها فى الزواج على عواطف الخياطة، وصفية البلانة، وعطيات الخبازة. كانت كل واحدة منهن تغيب أسبوعًا أو أسبوعين، وتأتى إلى بيت جدى الذى عاشت فيه أخته عمتى نعيمة بعد وفاة زوجها الأول والوحيد، تأتى كل واحدة منهن على حدة بخبر عن عريس، تختلى بها بعد إشارة تعارفن عليها، وكنت أندس بينهن فى مكان قريب وأسمع، تبدأ أول خيوط الحلم فى جملة: «مبروك يا ست نعيمة المرة دى خير إن شاء الله»



fb/mashro3pdf

وتبدأ حاملة البشارة فى استكمال نسج خيوط الحلم وفردها باتساع وهى تجيب عن أسئلة عمتى نعيمة «يعنى هو عنده أرض ولا تاجر، طيب هو من بلدنا ولا من العزب اللى حوالينا، عنده عيال كتير، وكبار ولا صغار؟».

دائمًا يكون العريس أرمل وعنده أطفال يحتاجون للرعاية، ومن العزب المجاورة لبلدتنا، ودائمًا ترحب عمتى نعيمة وتبدى استعدادها للانتقال معه حيث يكون، وتؤكد إنها ستضع عياله فى عينيها، وإنها لن تطلب منه لا أبيض ولا أسود، وإنها ستترك له التصرف فى أرضها التى ورثتها عن أبيها والتى يزرعها ويرعاها لها أخوها الحاج - تقصد جدي- ويظل باب الحلم مفتوحًا فى انتظار الرد، وتخرج حاملة البشارة بعد أن تدس فى حمالة صدرها «الحلاوة» التى منحتها لها عمتى نعيمة، ومعها قطعة قماش أو قمع سكر أو باكو شاي، المهم أنها تخرج بالمبلغ الذى دسته فى صدرها ولفة قماش بها بقية «الحلاوة» تناولها لها من الشباك بعد أن تخرج للشارع حتى لا يراها من فى البيت.

وتظهر أعراض الحلم على وجهها فيبدو محتقنًا، تسير فى البيت كأنها نائمة، لا تشعر بمن حولها، غارقة داخل نفسها فى حوار طويل صامت، تزم شفتيها وتضغط عليهما، كما لو كانت تخشى خروج صوتها، وكما لو كانت تبلع الكلام وتحشره فى بلعومها، وكل ما يدور داخلها يظهر على شكل تقلصات وارتعاشات تظهر وتختفى على وجهها، فترتعش أرنبة أنفها، وتغمض عينيها، وتبتسم، وتقطب جبينها، وتحرك أصابعها، كمن يتحدث لأحد، وتضع يديها فى حجرها كمن يستمع بإنصات لأحد، وفجأة تنهى حوارها الداخلي، وتدخل الحمام تستحم بماء شديد السخونة، وتخرج أشد



fb/mashro3pdf

احتقانًا، وخلفها البخار الذى تراكم داخل الحمام، ومن الحمام لحجرتها، تفتح دولاب ملابسها تخرج ما به، وتبدأ الفرز، تضع القديم فى جانب والجديد فى جانب، تعيد القديم للدولاب، والجديد تفرد ملاءة سرير وتضعه فيه وتربطها وتلقى بها فوق ظهر الدولاب بجوار ربطات أخرى، أو فى قاع الدولاب بجوار بقية الربطات، أو تحت السرير بجوار علب الكرتون التى بها أطباق صيني، وأكواب زجاج وأوانى مطبخ، وملاعق، وأمشاط، وغوايش وعقود وحلقان بلاستيك وزجاج، أما علبة الذهب فهى فى أحد أدراج الدولاب المغلق بقفل وقد علقت مفتاحه بدبوس فى حمالة صدرها.

تتصرف كمن تجهز أشياءها وتعدها انتظاراً للرحيل إلى بيت زوجها.

لم يكن أحد بالبيت يعرف شيئًا عن مقتنياتها، هى لم تسمح لأحد باقتحام حجرتها، والاطلاع على محتوياتها، فهى التى تنظفها وترتبها وهى مغلقة عليها، وبعد أن تتسلم نصيبها فى بيع محصول، أو جاموسة من جدي، تضع جزءًا من الفلوس فى علبة الذهب، وتقسم الجزء المتبقى لشراء أقمشة وفوط وملاءات وأطباق وأدوات للمطبخ، وتكلف صديقاتها الثلاثة بالشراء، وتحدد معهن مواعيد لاستلام ما اشترته من شباك حجرتها المطل على الشارع.

وبعد مرور أسبوع أو أسبوعين تفتر همتها، حتى تأتى لها واحدة من صديقاتها بخبر جديد عن عريس جديد، لتبدأ طقوس الاستعداد للزواج من جديد، وأحيانًا يأتين تباعًا وهذا يعنى أن لديها وفى أسبوع واحد ثلاثة عروض للزواج، عليها أن تفاضل بينها وتختار مما يوقعها فى حيرة، يزداد معها اختلاؤها بنفسها فى حجرتها، واستدعاؤها المتكرر لصديقاتها



fb/mashro3pdf

للتشاور حتى تحسن الاختيار.

ويأتين لها بعروض جديدة أفضل من التى سبقت، لتبدأ دورة جديدة، أو يأتين لها بأخبار عن العرسان أو العريس، تدفعها للرفض، مثل «يا ست نعيمة سألت عليه قالوا ده راجل بخيل وماسك على الدنيا، قلت للمرسال لا يفتح الله مفيش نصيب»، أو: «ده طلع عيان وصحته على قده، وعايز واحدة تخدمه هو وعياله، ومخلص من بدرى من قبل ما مرته تموت، وكل يوم والتانى فى المستشفى، وبيطرش دم، وبطنه علو كده قدامه» أو: «سألت عليه قالوا إنه فلاح بيزرع بإيديه وعايش فى بيت عيله، حتى نسوان اخواته بيطلعوا الغيط معاه، قلت للمرسال لا ده إحنا عروستنا ست، إيديها مابتشلش الياسمين من مطرحه، حواليها اللى بيخدموها بدال الواحدة خمسة».

تسمع عمتى نعيمة وترفض بقوة، وتتحدث معهن عن «العريس اللى رفضناه»، عاشت مقتنعة وتردد: «ده أنا تلاتين راجل جريوا عليه وأنا رفضتهم».

أيضًا دعمت محاولاتها فى تحقيق حلمها بالزواج بالأحجبة التى وجدناها تحت مخدتها والمعلقة فى فراغات الطوب أسفل شباك حجرتها، مع بقية مقتنياتها التى لم تُكتشف إلا بعد موتها، وبالنذور لأولياء الله الصالحين.

قطعت المسافة بين زواجها الأول والوحيد وموتها فى أكثر من خمسين عامًا.

دبر لها جدى زوجًا، كان قارئًا للقرآن، كفيفًا، كان يكسب قوته من قراءة



fb/mashro3pdf

القرآن على «الترب» والمأتم وفى ليالى الذكر التى تقام فى البيوت لختم القرآن، خاصة فى شهر رمضان، وكان دخله أو أجره أو «حسنته» وهى الكلمة المستخدمة فى الإشارة للأجر الذى يتقاضاه، يتنوع بين قروش قليلة، وفطائر الرحمة التى توزع على روح الأموات، وحبات من فاكهة الموسم، أو كيلة دقيق أو أرز أو ذرة، مضافًا إليها عشاؤه فى بيت المتوفى المكون من طبق أرز وطبق خضار وقطعة لحم، عادة - أو غالبًا- ما يكون طبق الخضار بطاطس «بالدمعة» أو لوبيا أو فاصوليا «ناشفة»، و«الدمعة» هى «التسبيكة» المكونة من البصل والثوم المحمرين فى السمن وعصير الطماطم، الذى يترك على النار حتى تتبخر ماؤه تمامًا حتى تنفصل السمن عن الطماطم أو الصلصة، وتطبخ فى قزانات كبيرة على كانون إن لم يكن موجودًا فهو يبنى فى حينه، من عدة قوالب طوب توضع فوق بعضها وبجوارها نفس العدد من قوالب الطوب، وبينهما مسافة تتسع لارتكاز القازان أو الحلة الكبيرة على جانبيه، وتشعل النار فى الفراغ من حطب القطن ومع الكوانين تستخدم «بوابير الجاز» الكبيرة، التى تخرج من المخازن فى المناسبات وتنظف وتملأ بالجاز لاستخدامها حتى مع وجود البوتاجازات مؤخرًا فى البيوت، فالبوابير من المقتنيات التى لا تفرط فيها بيوت بلدتنا، وتخرج بوابير بيوت الجيران أيضًا من مخازنها لتقديمها لبيت المتوفي، وكما تطبخ أسرة المتوفي، تطبخ بيوت الجيران والأقارب وتخرج منها صوانى الطعام إلى بيوت المتوفى لعشاء المشايخ - أى القارئين- ولنساء المعزين، أما إذا كان المتوفى «جاهل» أى صغير السن، فالنار لا تشتعل فى بيته، تقدم بيوت الأهل والجيران الطعام على صوانى مغطاة



fb/mashro3pdf

بشوط وبشاكير للمعزين لمدة ثلاثة أيام، وفى الخميس الأول أو الخميس الصغير تخرج الأسرة وجيرانها وأقاربها «للترب» صباحًا لتوزيع الرحمة وقراءة القرآن على روح المتوفي، كل حسب مقدرته على المجاملة يخرج بسبت فيه فاكهة الموسم، وآخر به الفطائر المصنوعة من الدقيق والسمن واللبن والماء، والتى تعتبر دليلاً على كرم البيت الذى خرجت منه وليس دليل ثراء فقط، مازالت بعض البيوت فى بلدتنا تقوم بهذا الواجب حتى الآن.

أما فى ليالى الذكر فقد يكون العشاء قطعة لحم أو ورك وزة أو بطة أو قطعة طرية من لحم الصدر، وقد تنقضى الليلة بأطباق الأرز باللبن، والقرفة وهى المشروب الرئيسى فى كل ليالى الذكر وختم القرآن غنيها وفقيرها.

ولما كبرت عمتى «نعيمة»، ولم يطرق بابها عريس، وأدرك جدى معاناتها، تشاور مع جدتى التى تشاورت مع نفسها وفى ليلة من ليالى الذكر لمحت الشيخ «سيد أحمد» ولم يكن ينطق اسمه مجزأً «سيد» و«أحمد» ولكن اسمه بمفرده كلمة واحدة ينطق «سيد أحمد» بكسر السين وعدم نطق الياء، ألمحت لـ«أم مبروك» الداية تلميحًا هو أقرب للتصريح مدعمًا بالجملة السحرية التى تفتح الأبواب المقفولة وهي: «إحنا مستعدين لكافة شىء، ومش حنكلفه خيط فى إبرة».

وتزوجت عمتى نعيمة الشيخ «سيد أحمد» انتقلت من بيت أبيها إلى بيته الذى رممه جدى وطلاه وجهزه وجهزها، عاشت معه عشر سنوات تقول عنها «عداهم باليوم وكل يوم عشته معاه أحلى من اللى قبله، من يوم ما دخلت بيته، وفى يوم دخلتنا عمل اللى محدش عمله فى البلد كلها، وطى على أخويا الحاج وقاله بأدب: «بعد إذنك يابا الحاج أنا عايز أخد حلالى بنفسى

fb/mashro3pdf

وعلى راحتى وراحة الست بنت الرجالة وأخت الرجالة، يعنى لو تسمح وبعد إذن حضرتك تخلى الهوانم والستات اللى جوه ياخدوا الداية ويتفضلوا من غير مطرود، وأنا والست بتاعتى براحتنا الوقت معانا، والدنيا مطارتش، وشرفك منصان يا حاج بإذن الله».

ولا تتوقف قبل أن تنهى الحكاية، حتى لو لم تسألها واحدة من مستمعاتها «هيه وبعدين يا ست؟» أخويا الحاج قاله: «إزاى يا شيخ أنت عايز الناس تاكل وشى، عايز تخالف عاداتنا وتقاليدنا، واللى اتربينا عليه؟»، رد عليه الشيخ سيد أحمد وقاله: «وإيه دخل الناس يابا الحاج بخصوصيات الراجل ومرته، دى عادات فاسدة لا هى من الشرع ولا الدين، وأنا قارئ القرآن وعارف لو الشرع قال نعمل كده مش حتأخر، طلع طبنجتك واضرب طلقتين خلى الهيصة اللى تحت دى تنفض، ولا أطلع أنا للناس أقول لهم متشكرين ومع السلامة، وقام اتسند على الحيطة وخبط على باب أوضة النوم، ودخل وقال للنسوان متشكرين يا جماعة نجاملكم فى الأفراح، كل مره طلعت بكلمة، اللى تقول: «عشنا وشفنا» واللى تقول: «عيب يا شيخ ده حق الرجالة، وحق اخواتها» مردش على الكلام، وأنا كنت قاعدة فى وسطهم زى الفرخة الدايخة، خايفة وجتتى بتترعش، الشيخ الله يرحمه كان مؤدب، وهادي، وطيب، مشى لحد السرير قعد جنبى وقال: «خلاص اللى تشوفوه أنا قاعد جنب الست بتاعتى إنشالله لحد الصبح وانتوا معانا ومنورين، النسوان جريوا على بره، وكل واحدة بكلمة، والحكاية لفت البلد، وعملوا منها مثل وحكاية».

هذه هى أحداث الساعة الأولى فى السنوات العشر التى قضتها عمتى



fb/mashro3pdf

«نعيمة» مع الشيخ «سيد أحمد» أما بقية الساعات والسنوات فهى حكايات علاقتهما الجنسية التى كانت مصدر فخرها الأساسي، وأقرب ذكريات عمرها إلى قلبها، كانت تحكى كأنه كان معها بالأمس، تخرج الحكاية من فمها طازجة وندية، يمتلأ وجهها بابتسامة ليس مصدرها شفتيها فقط بل عينيها أيضًا تبتسم، وأرنبة أنفها ترتعش ووجهها يضئ بلمعة تغطى بشرتها الداكنة، وتطلق تنهدات الرضا بين جملة وأخرى، وصديقاتها أو إحداهن يتربعن بجوارها على الكنبة الموجودة فى حجرتها، وتستغرقهن الحكاية فلا يشعرن بوجودى، يطلقن ضحكات، وهمسات، وتعليقات تقطع الكلام إن تطرقن لموضوع آخر، مدعية أن الموضوع الذى يتحدثن فيه ذكرها، وبمجرد أن تتذكر لا تتوقف، وتبدأ كلامها بـ: «فكرتونى ده كان الشيخ الله يرحمه» وتحكى دون أن يحمل صوتها أى أسى «لكان»، بل تخرج الحكاية بصوت فرح، ومنتش، حتى وهى تصف أول دخوله بها: «بعد ما النسوان خرجوا وبقينا لوحدنا قرب منى وقال لي: «يا ست الستات، يرضيكى حد يقطف شهد العسل غيرى، ولا بعد ما حد يمد صباعه فى وش اللبن ويعكره فى المترد، يصح بعد كده يقول لى تعال اشرب، دى ناس ما بتفهمش، أفتح أنا باب الجنة وأدخل، ولا حد يفتحهولي، ويقول لى ادخل أنا فتحت لك الباب؟، يبقى لازمته إيه، ما البيبان المفتوحة كتير، وإزاى أسيب إيد غريبة تتحط على الكنز بتاعي، لا يا ست عصفورى أول ما يحس، يحس بإيدى أنا، وراح حاطط إيده فيّ من تحت، وبالهوى على الكلام اللى سمعهولى، لحد ما خلانى مش قادرة خالص، ولا على بعضي، سحت خالص، وإيه قعد يبوس كل حتة فى جسمي، زى ما يكون عينيه فتحت



fb/mashro3pdf

ونظره رجع له وبقى شايف بيحط إيده فين، وبشويش قلعنى فستان الفرح، وأنا مش مستحملة، وهو يقلب فيه يقلبنى على ضهرى نوبة وعلى وشى نوبة، ويعض فى رقبتي، ويبوس فى ضهرى لغاية صوابع رجليه قعد يبوسها ويعضها، وأنا بقيت زى حتة العجينة فى إيده، ومحستش بروحى إلا وأنا بقول «آي» خدنى فى حضنه وقال لى: «سلامتك يا نور العين من جوه آى دى وجع ولا إيه يا ست الستات» وضحك الراجل اللئيم كان عارف ومتأكد انى مبسوطة وإنى محستش بوجع وهو بياخد وشي، والنبى لو كان طلبنى تانى ليلتها ما كنت قلت لأ بس هو قال: «ارتاحى علشان الجرح ما يتعبكيش، ونمت فى حضنه للصبح وأنا عريانة».

كانت تخلق المناسبات وتدير الكلام لتنطلق منه إلى حكى حكاية أخرى لم تحكها من قبل عن علاقتها بالحاج، فإن قالت لها البلاَّنة بعد أن تنزع لها شعر جسدها «خلاص يا ست جسمك بقى زى الحرير» يكتسى وجهها بطعم الرضا والانتشاء وتقول: «آه أمال ده كان الشيخ يضحك ويقول لى يا ست الستات، أنا حأتزحلق من فوقك كده، زى ما أكون نايم فوق حرير، تعالى انتِ فوقى».

بعد شهر واحد من زواجها حملت عمتى «نعيمة» وبعد تسعة أشهر، أنجبت خمسة توائم وحكاية توائمها الخمسة من الحكايات التى مازالت تتردد بين نساء بلدتنا، وتحكيها «أم ياسمين» الداية الأصغر سنًا فى بلدتنا والتى ورثت المهنة عن أمها التى ورثتها عن جدتها «أم مبروك» الداية التى ولدت عمتى نعيمة، أتوا بها بعد أن جاءتها آلام الوضع فى الفجر، وأقسمت وتقسم من تحكى الحكاية بعدها إن: «الست نعيمة كانت تحذق الحذقة ينزل



fb/mashro3pdf

عيل، لحد ما وصلوا خمسة، وكانت عجيبة من العجايب، والغريبة انها ماتعبتش، كان وجعها خفيف وساعتها سهلة، الداية واللى حواليها خافوا، حتى أم مبروك الداية بتحلف، انها يدوب كانت تمد إيدها تلقط العيل» وتفتح من تحكى صدر جلبابها وتبصق داخله وتقول: «بسم الله الرحمن الرحيم زى ما يكون مخاويها جن، عمرنا ما شفنا ولا حنشوف».

الأجنة الخمسة وكانوا ذكوراً كما قالت أمى التى كانت شابة صغيرة وقت ولادتهم كانوا بحجم القطط المولودة، وأنهم ماتوا بعد ساعتين من الولادة.

حكاية أولادها الخمسة هذه من حكاياتها التى سمعتها منها، وكانت تحكيها بفخر وهى تخبط على بطنها وتقول: «أهى بطنى دى شالت خمس عيال، وكان الشيخ الله يرحمه يحط راسه عليها ويقول، البطن دى شالتنى وشالت عيالي، ويمرغ وشه فى سوتي، ويلحسها بلسانه، ويقول: بكره تشيل غيرهم».

عاشت فى المسافة ما بين زواجها وموتها، فى حالة نشوة مسائية باستعادة ذكرياتها مع الشيخ، وفى حالة انتظار نهارى لزوج يضع جسدها تحته ويأخذها من ارتحالاتها الليلية إلى حضن الشيخ وجسده. عاشت بيقين إنها أجمل نساء الأرض وأكثرهن قدرة على إمتاع رجلها وتكرر قوله لها: «إيه دى بلطية تحتي، ولا حورية من الجنة، بحرها غويط، وموجها دافئ، وطريقها حرير فى حرير».

عاشت تردد: «ده أنا ياما جرى عليَّ رجالة وأنا اللى رفضتهم».

●●●



fb/mashro3pdf

أنا أيضًا أستطيع أن أقول مثل عمتى «نعيمة»: «أنا جرى عليه رجالة كتير وأنا اللى رفضتهم» ولكنهم كانوا رجالاً موجودين، وليسوا وهمًا كرجال عمتى «نعيمة» كانوا رجالاً من لحم ودم، كانوا جزءًا من سنوات عمري، ومراحله، رجل العشرينيات، ليس كرجل الثلاثينيات، ويختلف عنهما رجل الأربعينيات وبالضرورة رجل آخر هو رجل الخمسينيات، ليس عندى لا الرغبة، ولا النية فى أن أقضى معهم ساعات ليلتى، ولا أن أملأ بحكاياتهم الوقت. فقد أخذوا ما يكفى من الساعات، والوقت.

لن أستعيد الحكايات فهى حكاية واحدة، تكررت فى مراحل مختلفة من عمري، وبأسماء مختلفة، ولكن بنفس التفاصيل.

هذا ما كان، وهذا ما حدث، أن انتهت كل الحكايات ولم تترك سوى طعم النهايات المريرة.

●●●

لم يسبق لى أن زرت الأستاذة شافكى فى بيتها، رغم أنها كررت دعوتى أكثر من مرة وبإلحاح، مؤكدة فى دعوتها أنها لا تستقبل أحدًا من موظفى المصلحة - وحريصة على وضع مسافة بينها وبينهم - بعد أن خلت المصلحة من مؤسسيها العظماء، واحتلها «الواغش» أنصاف المتعلمين، ومعدومو الموهبة، هذا من وجهة نظرها، التى تضيف عليها أحيانًا، وعديمو التربية أيضًا، تضيف صفة عدم التربية وانحطاط الأخلاق مصحوبة بالكثير من مفردات اللغة الإنجليزية والفرنسية المعبرة عن الاستنكار والاستياء، مع قلب شفتيها تأكيدًا للقرف، من المصلحة ومن المستوى الذى وصلت إليه،



fb/mashro3pdf

وأكثر من يستفزها ويستدعى علامات وتعبيرات الامتعاض على وجهها سماعها لصوت «فوزية» زميلتنا فى المصلحة، ووقع خطوات قدميها وصوت حذائها وهو يحك الأرض يعلن عن قدومها، ثم وقبل أن تدخل المكتب وهى فى الممر المؤدى إليه تنادى بصوت مرتفع وغليظ لعامل البوفيه: «يا زفت يا اللى اسمك كامل، صباح الطين على دماغك أنا جيت هات لى الاصطباحة يا منيل خلينا نعرف نفتح عينينا ونشوف شغلنا» وتنهى جملتها بضحكة عالية متقطعة، لتعطى لكلامها مسحة تبسط تسميها الأستاذة «شافكي» ابتذال وإسفاف، ثم تدخل المكتب متلفتة علينا: «صباحكو زى وشكو» فيردد الزملاء بضحكات متقطعة وتعليقات متكررة «صباحك فل يا فوز» أو «هبت زعابيب أمشير، بس المصلحة من غيرك ملهاش حس» أو: «اصطبحنا وصبح الملك للمالك لازم تعملى الغارة بتاعتك دى على الصبح» وترد على كل تعليق بتعليقات مختلفة فتقول لمن قال لها: «يا فوز» أيوه يا منحنح انت يا مسهوك» أو تقول للآخر: «زعابيب لما تلمك انت ومصلحتك الفقر دي، أشوف فيكو يوم» وتنتهى التعليقات والضحكات العالية بجلوسها على المكتب، ووصول صينية الإفطار لها ولمن لم يفطر فى المكتب وهى دائمًا ساندوتشات فول وطعمية وأكواب الشاي.

التحقت فوزية بالعمل فى المصلحة بعد حصولها على دبلوم التجارة، ثم حصلت على منحة دراسية بأحد المعاهد العليا التى تمنح شهادة البكالوريوس، ويخصص عدد منها لموظفى المصلحة كل عام من حملة الشهادات المتوسطة كانت شديدة النحافة فى بداية عملها بالمصلحة، وقد تم تعيينا معًا فى العام نفسه، التحقت بالإدارة المالية ثم انتقلت إلى إدارتنا



fb/mashro3pdf

المسماة بإدارة الخبراء والمتابعة، بعد عودتها من الاتحاد السوفييتى - قبل انهياره- ورغم نحافتها القديمة فقد أصبحت الآن سمينة، ووضحت ضخامة حجمها بعد أن امتلأت قامتها الطويلة باللحم.

كثيراً ما أجدنى مستغرقة فى تأمل فوزية، تأمل لون بشرتها الكالحة لا هى سمراء ولا بيضاء، بشرة باهتة بلا لون، خاصة عندما أبيض شعر رأسها وانعكس بياضه على بشرتها، تضع نظارات سميكة، بإطار بلاستيك مربع يملأ نصف وجهها، ولأنها من أصول فلاحية فهى تمط شفتيها للأمام وهى تتحدث، وتمط نهايات حروف كلامها الذى تنطقه بلكنة قرية أهلها. ترتدى جيبات واسعة، وطويلة وفوقها قمصان رجالى بكم طويل صيفًا، وتضع شباشب فى قدميها، سمعت زميلاً مرة قال عنهما كخفى الجمل واعتقد أنهما كذلك، وفى الشتاء ترتدى جيبات واسعة وطويلة فوقها بلوفر فوقه چاكيت وفوقهما شال صوف بحجم كبير تلف به أكتافها ويتدلى ليصل إلى خصرها، تبدله مع شال آخر شقيق له، أحضرت الشالين معها من الاتحاد السوفييتى الأول أرضيته بنى فاتح والثانى أرضيته سوداء، والاثنان مطبوع عليهما ورد كبير بنفس الألوان الزاهية والواضحة والصريحة الأصفر أصفر كهرمانى، والأحمر أحمر قانى، والأخضر أخضر زرعي.

تؤكد دائماً وتتحدث بفخر عن «الشيء والشويات» التى أحضرتها معها من الاتحاد السوفييتى: «من كل حاجة اتنين وتلاتة أجهزة، وفضيات، وكريستالات، وكلها برخص التراب، سواء اللى اشتريتها من المحلات، ولا الحاجات الممتازة اللى اشتريتها من المحلات المخصصة للجنة المركزية



fb/mashro3pdf

للحزب الشيوعى هناك حملت كراتين وشحنت على مصر كل اللى إيدى طالته ده أنا عندى كراتين لسه مافتحتهاش ونسيت فيها إيه. أهو الاتحاد السوفييتى اتطربق على دماغ صحابه وأنا كراتينى وحاجتى موجودة، ده غير اللى بعته بسعره هنا، ولسه عندى هم ما يتلم، كنت كل أسبوع والتانى أشحن وأبعت، وأهو رزق الهبل على المجانين».

كانت قد سافرت للاتحاد السوفييتى فى منحة دراسية بعد حصولها على منحة المعهد العالى فى مصر وانتقالها لإدارة الخبراء والمتابعة، وكان الاتحاد السوفييتى قبل انهياره يخصص عدداً من المنح الدراسية للمصلحة بعضها قصير لمدة سنة أو أقل تسمى منحة تدريبية، ومنح أخرى لنيل درجة الدكتوراه، حصلت هى على منحة تدريبية، ولزوجها على منحة للحصول على الدكتوراه، وحتى انهيار الدول الاشتراكية، كانت المصلحة ترسل مبعوثين من موظفيها للتدريب أو للحصول على الدكتوراه وللعلاج، وكان الدكتور هو الذى يختار بنفسه المبعوثين، والمرضى، وهو أيضاً الذى يوزعهم على الدول، بعض من سافروا عادوا، وبعضهم لم يعد ومنهم الدكتور محروس زوج فوزية الذى استقر فى روسيا، وينتقل بين رومانيا والمجر، وتشيكوسلوڤاكيا أو الدولتين اللتين أصبحتهما الآن. يقال إن له مشاريع تجارية متشابكة فى هذه البلاد، وفى يوغوسلافيا قبل وبعد أن أصبحت عدة دويلات، حتى أثناء حروب تقسيمها كان له فيها أعمال لم توقفها الحرب بل يقال إن الحرب قوت وأنعشت أعماله هناك.

تزوجت فوزية وهى فى الثلاثين من عمرها، وكان محروس وقتها قادماً من قرية من القرى ليعمل مدرساً للغة العربية، وسكن حجرة فوق سطوح



fb/mashro3pdf

المنزل الذى تملكه أسرتها فى السيدة زينب، انتقل بعد زواجه منها إلى شقة من شقق البيت، ولأن أسرة فوزية من نفس قرية أسرة الدكتور، وسبق أن أخفاه أحد أقاربها عن البوليس فى وقت كان مطلوب القبض عليه بسبب نشاطه السياسى، فأنه ظل مدينًا للأسرة كلها، ويتذكر أنه هرب من «البوليس السياسى أيام الملك فى بيت أهل فوزية فى السيدة زينب» وأقام فى الحجرة التى سكنها محروس فيما بعد فوق السطوح، لذلك لم «يتأخر» عندما سعت فوزية لنقل محروس للعمل فى المصلحة، ولم «يتأخر» عندما طلبت منه إرسالهما فى بعثة الاتحاد السوفييتى.

سافرا وبقى محروس، وعادت هى وفى بطنها ابنتها الوحيدة وهى الآن طالبة فى الجامعة.

ورغم أنه لم يعد فهى تذكره فى اليوم أكثر من عشر مرات، وكأنه يعيش معها، وتسبق اسمه بلقب «الدكتور» ولم تخطئ مرة بنطق اسمه دون اللقب، مما يدفع بعض الزملاء للسخرية منها أحيانًا «هو الدكتور بتاع دار العلوم ده خد الدكتوراه من الاتحاد السوفييتى فى إيه فى حتى، هو عندهم هناك حتى ولا بما أن؟»

بعد أن تفطر وتشرب الشاي، تنطلق إلى المكاتب الأخرى تقتحمها على من فيها بنفس الطريقة: «صباحكو زى وشكو إيه الأخبار؟» وقبل أن يأتيها الرد من خلف أحد المكاتب: «الأخبار عندك انت يا جميل» تكون قد سحبت كرسيًا وجلست فاتحة قدميها ومسندة ظهرها على ظهر الكرسي: «جميل فى عينك انت حتعاكسني» وتقطع كلامها بضحكة عالية: «جميل دى يقولها لى الدكتور محروس جوزى بس» وتنتقل من حجرة إلى حجرة لتنشر أخباراً



fb/mashro3pdf

وشائعات عن زملائها وزميلاتها، وتلمح تلميحات تشعل رأس الأستاذة شافكى بالغضب وتصيبها بالاشمئزاز ليس من فوزية فحسب بل من المصلحة كلها: «شفتى المره اللى فى الأرشيف، من يوم جوزها ما مات وهى ماشية تحك روحها فى الحيطة، وبيقولوا إنها ماشية مع واحد جارهم بيعدى ياخدها بالعربية كل يوم» و: «الوليه العضمه الزرقا اللى جوزها هج على كندا وسابها مولعة، وقال إيه حيبعت لها هى والعيال، تبقى تقابلنا لو عبرها، بس سمعت إن بنتها الكبيرة اتخطبت لمهندس قريبهم، تلاقى جوزها اتجوز هناك، حاكم النسوان هناك بيض وملطين، مش النسوان الجربانين المقشفين اللى عندنا هنا» وتضحك بصوت عال ويبادلونها الضحك والقفشات، لتواصل: «بس الواد الصايع طلع واد نمره بصحيح، فضل لابد لخالتك لحد ما وافقت تجوزه أختها المدرسة العانس، وأهو حيقعد فى شقة أبوها وعلى فرشته ومش حيغرم مليم أحمر، وحيتمرغ فى الخير كله» ويكون المقصود «بالصايع» أحد الزملاء، والمقصودة «بخالتك» واحدة من الزميلات، كما يعرفون من المقصودة بـ«المره الى جوزها مات والعضمة الزرقا».

لا تحتمل الأستاذة شافكي، الصوت المرتفع ولا الألفاظ النابية، لدرجة أنها وبمجرد أن تسمع وقع خطوات فوزية تقترب من الحجرة التى يوجد بها مكتبها تلملم أوراقها وتخرج من الحجرة، حتى تنهى فوزية زيارتها اليومية وتخرج، وإن حدث والتقيا تباغتها فوزية بأقوال تعتبرها شافكى سخرية منها وهى كذلك بالفعل، كأن تقول لها: «بانجور يا أستاذة شافكي، يا برنسيسة، يا هانم على فين، طبعًا ما هم الناس الهاى لايف اللى زى حضرتك لهم نظام غيرنا، بس يسعدنا وجودك والله معانا، ولا احنا مش قد



fb/mashro3pdf

المقام» فترد شافكى ردوداً متقطعة ومرتبكة وهى تكاد تجرى من أمامها: «بردون أنا طالعة المكتبة» وما أن تختفى شافكى حتى تبدأ السخرية منها مع من تقابله أيًا كان: «الوليه الكركوبة دى رايحة فين، ما تقعد فى بيتها وتريحنا منها، هو الدكتور حيفضل يمد لها فى الخدمة لحد امتى؟».

أحيلت شافكى للمعاش وهى رئيسة قسم الترجمة، وهى واحدة ممن أسسوا المصلحة، ومن أسسوا قسم الترجمة، وعلمت أجيالاً، وأدخلت تخصصات جديدة فى القسم، لأكثر من لغة غير الإنجليزية والفرنسية، وللبحوث باللغات الأجنبية، كما ساهمت فى إنشاء مراكز للبحوث تابعة للمصلحة وفروعها فى العديد من الدول الأجنبية، التى تنقلت فيها مع زوجها الدبلوماسي، هى خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية جامعة فؤاد الأول - القاهرة حاليًا- هكذا تعرف مؤهلها العلمى.

ولما أحيلت للمعاش مد لها الدكتور خدمتها بالمصلحة كمستشارة بقسم الترجمة، وهو المنصب الذى تقول عنه: «مستشارة لمين يا مها لشباب ما بيعرفوش ينطقوا اللغة صح، وبيغلطوا فى الإملاء، وبعدين هو فين الشغل ولا البحوث اللى كنا بنعملها، ولا فين متابعة الخارج وشغلهم، كل حاجة خربت، وهو ده منظر ولا شكل مترجمين، كل واحدة جاية بجلابية وحاطة على راسها طرحة، قال زى إسلامي، المترجمين كانوا، فى غاية الأناقة والرقي، والالتزام، والجدية، وأنا تلامذتى بيشتغلوا دلوقتى فى هيئات دولية، لكن الموظفين دول، يا دوب يشتغلوا مدرسين ابتدائى يعلموا الحروف الأبجدية ده لو عرفوا يعلموها للتلامذة أصلاً».

انتقلت من مكتبها الخاص بعد إحالتها للمعاش إلى حجرة كبيرة



fb/mashro3pdf

تشارك فيها شباب المترجمين المتدربين، وعدداً من القدماء الذين سبق ودربتهم فى بداية حياتهم الوظيفية، وكان مبرر نقل مكتبها أن تكون بين الشباب، والمبرر الحقيقى هو إخراجها من المكتب، لتجهيزه لرئيس القسم الجديد، وليس مبرر مد خدمتها هو الاستفادة من إمكاناتها، ولكن إدراك الدكتور لاستحالة إبعادها عن المصلحة، فهى ليست مستشارة بالمعنى الحقيقى الذى نعرفه ونقرأ عنه فى الصحف، المستشارون الذين لهم أوضاع متميزة، ولهم مخصصات مالية ضخمة، من ضخامتها توضع فى دائرة الفساد الحكومى.

أما هى فلم يتبق لها من وضعها السابق سوى نسخة الصحف والمطبوعات التى كانت مخصصة لها قبل إحالتها للمعاش، ومكافأة شهرية لا تتعدى مائتى جنيه كما قالت لي، مقابل مراجعتها للأخبار المترجمة عن الصحف يومياً والتى لا تتجاوز الخمسة أخبار، وتقريباً هذا هو عمل القسم كله الآن.

مع بداية عملى بالمصلحة، كانت تبهرنى أناقة الأستاذة شافكي، وكنت أنتظر وصولها لأدقق فى طريقة هبوطها من سيارة المصلحة المخصصة لها، طريقة ليست مثل بقية الناس، تتحرك ببطء وتسقط قدمها اليمنى للأرض بهدوء ثم يظهر جانبها الأيمن، ثم تظهر هى واقفة منتصبة، مفرودة الظهر، فى يدها حقيبة اليد الصغيرة بلون حذائها ذى الكعب العالى الرفيع، وخلفها أحد السعاة يحمل حقيبة الأوراق من السيارة إلى مكتبها، لم تكن ترتدى سوى التايير ات صيفاً وشتاءً، وترتدى بالطو فى الأيام الباردة، وكان يثير إعجابى اهتمامها بالإكسسوارات التى لا تظهر بدونها حتى الآن،



fb/mashro3pdf

والإيشاربات التى تربطها ربطات مختلفة حول عنقها أو على صدرها، أو تلقيها على كتفها، مع لمسات من المساحيق الخفيفة على وجهها الأبيض المشرب بحمرة هادئة، تلون بشرتها الناعمة الرقيقة التى يظهر تحتها شعيراتها الدموية الدقيقة. وكانت تترك شعرها مسترسلاً على أكتافها، كان لونه أصفر، أما الآن فقد أصبح لونه فضيًا وليس أبيض. ولأنه خف كثيرًا فهى ترفعه لأعلى بمشبك شعر. لم يختلف جسدها فمازال بحجمه الذى كان فهى متوسطة الطول وأقرب للنحافة، وأقول مازال كما هو لأنها ترتدى ملابسها التى كانت ترتديها منذ بداية عملى بالمصلحة، التاييرات والبلاطى الفرو والصوف نفسها، والإيشاربات والخواتم والأقراط والعقود حول عنقها. ولون المانيكير الأحمر نفسه الذى كانت تطلى به أظافر يديها.

بهتت ألوان ملابسها، وأصابها القدم بوضوح، وتخلت عن الأحذية ذات الكعوب العالية لكنها لم تتخل عن طلاء الشفاه الأحمر، ولا عن رسم حاجبيها بالقلم الأسود، ولا عن خواتم أصابعها التى صدأ بعضها ووقع وتقشر طلاء البعض، وتظهر القشور فى مساحات أكبر على الأساور التى تضعها فى معصميها، حتى الحقائب هى حقائب اليد القديمة نفسها. والعطر نفسه الذى كان سائدًا فى شبابها، وكانت أمى تستخدمه وغيرته لأنه لم يعد موجودًا، ولا أعرف أين تجده حتى الآن؟.

نجح شركاؤها فى المكتب فى إخراجها منه، واضطروها لقضاء معظم ساعات العمل إن لم يكن كلها فى كافتيريا المصلحة فى الدور الأخير، لم يكن مطلوب منها عمل يلزمها بالحضور اليومي، ولكنها لا تحتمل البقاء وحيدة فى البيت اليوم كله، هذا ما قالته للدكتور بعد أن تردد ووصل إليه



fb/mashro3pdf

حجم المضايقات التى تتعرض لها منهم، والتى حكتها لى تفصيلياً، ونحن جالستان معاً فى الكافتيريا.

جاءت هذه الجلسة التى أتت بالمصادفة، وكنت أتعرض لمضايقات فى العمل من فوزية وغيرها، ولم أكن أحكى لأمى عن هذه المضايقات، إشفاقاً عليها وخجلاً منها، فما أتعرض له فى عملى، لا يمكن أن تتوقعه أو تتقبله، كما إننى لم أعد طفلة لأجرى وأشكو لها، وقد مرنت نفسى على التعامل مع الصغائر بالترفع عنها، وأن أؤكد لنفسى مراراً أن كل الناس يتعرضون لمثلها فى الشارع والمواصلات والعمل.

لا أقصد أن أتحدث عن نفسى ولا عن نصف يومى الأول، والساعات التى أقضيها فى المصلحة، لأننى أمرن نفسى على نسيانها بمجرد خروجى من باب المصلحة، أو لنقل الهرب منها فهى ليست ساعات حميمة، وكثيراً ومنذ سنوات وأنا أحلم بالهرب من هذا المكان، ولكننى أقف أمام حائط سميك لا يتزحزح ولا يمكن اختراقه، يصدنى الحائط ويوقفنى بالسؤال: «أترك المصلحة! وأين أذهب؟» لذا حاولت أن أمرن نفسى على تقبل المكان وما فيه، ليس بينى وبينه علاقة أكثر من علاقة العمل الذى أقوم به وأنا محملة منه بميراث البشرية من السخرة والقهر، ومع ذلك فأنا ملتزمة تماماً بكل قوانينه التى تبدأ بالالتزام بموعد «دق» كارت الحضور فى الساعة المعلقة فى حجرة زجاج فى مدخل المصلحة، ويجلس موظف بجوارها لا عمل له سوى دق كروت الموظفين لتسجيل مواعيد وصولهم صباحاً، ودقها لتسجيل ساعة انصرافهم، ودق كارت من يخرج أثناء ساعات العمل، مع تسجيل مبرر خروجه، وإبراز الإذن الذى حصل عليه من رئيسه المباشر



fb/mashro3pdf

بالخروج، وموعد عودته إن كان سيعود قبل نهاية يوم العمل وذلك أيضًا يسجل فى إذن الخروج، ثم دق الكارت عند العودة، وتسجيل ما إذا كان مطابقًا لما هو مسجل فى إذن الخروج، وتجمع كل دقات الكروت حضوراً وانصرافًا فى دفتر خاص بكل موظف، ثم تفرغ المواعيد فى دفتر منفصل أمام اسم كل موظف ويعرض الدفتر فى اليوم التالى على رئيس المصلحة الذى يبدأ عمله فى السابعة صباحًا هو ومسئول الساعة، وقبل حضورنا يكون قد أتم مراجعة الدفتر، ويبدأ يومه بتوقيع الدفتر ومجازاة من خالف نظام الحضور والانصراف ومواعيدهما، ومن خالف شروط الخروج والعودة أثناء العمل.

ومواعيد العمل تبدأ فى التاسعة وتنتهى فى الثالثة وأنا ملتزمة بها، وببقية شروط الوجود فى المكان، مع التزامى بأداء عملى فى المتابعة المركزية والإقليمية أى متابعة العاصمة والمحافظات، والحقيقة إننى كان من حقى الترقى لرئاسة القسم، ولكن هذا الحق لم يصدر به قرار من رئيس المصلحة حتى الآن.

هذه جملة عارضة، لأننى لست مهتمة ولا أعرف سببًا لعدم اهتمامى وليس لدى طموح فى هذه المصلحة، أو لم أفكر فى الأمر برمته، ولم يشغلني، ولأنه لم يشغلنى حتى الآن فأعتقد أو أجزم إننى لن أنشغل به فى المستقبل.

أعود لمناسبة جلوسى مع «شافكي» فى كافتيريا المصلحة، فقد جاءت عقب موقف لم أتجاوزه رغم مرور سنوات عليه فإننى لم أتجاوزه وأعتقد أو أجزم أننى لن أتجاوزه، رغم تجاوزى لمواقف كثيرة من بعض الزملاء



fb/mashro3pdf

بالعمل، كأن يقوم أحدهم أو إحداهن، بإبلاغ رئيس المصلحة أننى تأخرت عن مواعيد الحضور، أو إننى خرجت أثناء ساعات العمل، بدون إذن، ولأن هذا لا يحدث إطلاقًا إلا فى ظروف خارجة عن إرادتي، مثل مرور رئيس الجمهورية فتغلق الشوارع، أو انفجار ماسورة مياه رئيسية فى منطقة قريبة من بيتى تغلق الطرق، وماعدا ذلك فإننى لا أتحرك بدون الحصول على تصريح من رئيس المصلحة لأنه هو رئيسى المباشر منذ أول يوم لى فى العمل، أو أن يقوم أحدهم أو إحداهن بإبلاغه بغيابى منذ أيام، فيخرج له أو لها رئيس المصلحة طلب إجازة مني، موقع عليه منه بالموافقة، أو يبلغه أحدهم أو إحداهن بشكاوى مديرى الإدارات الفرعية للمصلحة بالمحافظات من إهمالى لتقاريرهم، بعدم توصيلها للدكتور لمتابعتها واتخاذ إجراء بشأنها، فيكون رده إنه تلقى التقارير، وهو فقط الذى يحدد أهميتها وأولويات متابعاتها.

كل هذه المنغصات - لنسمها منغصات- محتملة ويمكن التعامل معها، خاصة أن الدكتور يبلغنى بها أولاً بأول، مع تأكيده على عدم أهميتها.

يبدو لى الآن أن التزامى الشديد بعملى هو شكل من أشكال السعى وراء الهدوء أو الهروب من مواجهة المشاكل أيًا كانت تفاهة وبساطة حجمها، كأن أسمع أحدهم أو إحداهن يقول فى غيابي: «أمال العانس اللى طالعة فيها ومش عاجبها حد فين» فيرد أحدهم أو إحداهن: «حد عارف هى بتروح فين، ولا حد يعرف عنها حاجة، ماتلاقيها شايفة حالها، على كيف كيفها، لا فى أب يحكمها ولا أخ يشكمها ولا جوز يلمها».

كل هذا أتغاضى عنه، أراه ضئيلاً وتافهًا، أمام قوة رغبتى فى «أن أعيش فى سلام وهدوء».



fb/mashro3pdf

وفى ذلك اليوم وكنت خارجة من مكتب الدكتور، وفى الممر الذى تقع المكاتب على جانبيه سمعت فوزية تقول: «هى البت العانس دى لسه بتتمرقع على الدكتور فى مكتبه؟» فردت أخرى لم أستطع تمييز صوتها مع ضحكاتها: «أكيد وانتِ عارفة هو ضعيف قدام الجنس الناعم، وهى نواعم خالص، حالة شعرها بيهفهف على ضهرها، ولابسة المحزق والملزق».

فردت فوزية: «اللى عمرها ما خدت ربع يوم خصم، ما هو التعريص فى البلد على ودنه».

تسمرت فى مكاني، وتيبست قدماي، وتحولتا لقطعتين من الحجر، أو لكيسين من الملح، فقدت القدرة على الحركة، وعلى التصرف، كنت أخشى خروج إحداهما فترانى واقفة، وتعرف أننى سمعت، ولم أقدر على مواصلة السير إلى المكتب.

كم سمعت هذه المفردات عنى وعن غيرى من فوزية أساسًا، فى دورات متتالية ومتعاقبة من العداء مع الآخرين، عداء يحركه فجأة شخص لفترة ثم تنساه وتبدأ مع آخر.

كنت أخجل من نقل هذه الصورة لأمي، كما إننى لا أجرؤ على النطق بهذه الألفاظ أمامها. حتى وأنا فى هذا العمر، وهى التى لم تكن تسمح بكلمة خشنة أو نابية.

ظللت واقفة عاجزة عن الحركة، ومر وقت عليّ هو بكل المقاييس قصير قد يكون دقائق، لكننى شعرت به طويلاً، ثقيلاً، ضاغطًا، ولم أتمنى أكثر من إنهاء الموقف بسلام ودون مواجهة، حتى قالت «فوزية»: «يا أختى قولى يا باسط راجل إيه يلمها حد يعرف عنها حاجة، ولا عمر حد فينا دخل بيتها،



fb/mashro3pdf

لو بيت محترم كنا دخلناه، ولا عمرنا شفنا لها راجل، إلا الراجل المسيحى المحامى اللى اسمه وديع ده صاحب الدكتور، ده تلاقيه مرافق أمها».

دارت بى الدنيا وارتعشت قدماي، ودون أن أشعر أو أفكر استدرت وعدت جريًا إلى مكتب الدكتور، بينما يصلنى صوت ضحكات مختلطة، لم أميز فيها أصوات ضحكات الرجال من النساء.

فتحت الباب ودخلت، دون أن أطرقه، رفع عينيه عن أوراقه، وخلع نظارة القراءة، وقد أدرك حالة الإضراب التى كنت عليها.

– مالك يا مها خير، ارتاحى، اقعدى.

جلست وأنا أقاوم دموعى، كابحة طاقة غضب داخلي، بينما أسنانى تصطك وركبتاى تخبطان فى بعضهما. كان أمامه كوب ماء، قدمه لي، بعد أن شربته، وباندفاع خرج الكلام من فمى دون تفكير أو حساب: «لو سمحت يا دكتور، أنا طالبة التحقيق مع فوزية واللى معاها، لأنى سمعتهم بيتكلموا عنى وعن ماما وعمى الأستاذ وديع بطريقة بشعة وبألفاظ مبتذلة وحقيرة.

طيب اهدى، خدى سيجارة وحأطلب لك ليمون.

بعد أن أشعل لى السيجارة جلس على المقعد الموجود أمامى وبجوار مكتبه، وسمع منى ما سمعته، وعندما ذكرت ما قيل عن علاقة عمى وديع بأمى ضحك ضحكًا عاليًا ومتواصلاً: ثم توقف عن الضحك وقال:

– وديع عريان، مش ممكن، متأكدة.

– متأكدة يعنى مين مسيحى ومحامى وصاحب حضرتك واسمه وديع غيره».

واصل ضحكه الذى استفزني، وبان استفزازى واضحًا على وجهى،



fb/mashro3pdf

استفزاز يخص الموقف، واستفزاز متراكم من طريقة تعامله مع أى موضوع أو قضية مهما كان حجمها، فهو يضحك ويستخف ويصغر من شأنها، ومن رد فعل صاحب الموضوع حتى لو أصابته مصيبة.

حملت تعبيرات وجهى غضبي، فتوقف عن الضحك وقال: «يا مها انتِ متعرفيش وديع زى ما أنا أعرفه، ومتعرفيش عفاف أمك زى ما أنا أعرفها، دى ناس انقرضت، وطلع علينا ناس هى دى أخلاقهم حنعمل إيه معاهم ؟ نتجاهلهم ولا نقف عند صغائرهم، ولا نسمح لهم باستنزافنا، وجرنا إلى أرضهم وأوحالهم».

– لا .. أقف، لأن المسألة متعلقة بالأخلاق، أنا طالبة تحقيق رسمى فى الكلام ده

– تحقيق إيه يا مها؟، انتِ كده بتوسعى الموضوع مش بتلميه، وحينكروا.

– أبقى علمتهم الأدب وربيتهم.

– انتِ ساذجة ولا عيلة، مفيش حد بيتربى بعد الخمسين اللى اتربى يا أستاذة، اتربى فى بيت أهله، ولا أنتِ عايزة تفضلى شايلة طفولتك على كتفك وماشية انتِ كمان لازم تكبري، وتفهمى الدنيا، وتطلعى من عباية وديع وعفاف ولا إيه يا شافكى ما تقولى حاجة للبنت دي.

– لم ألاحظ وجودها عند دخولى كانت جالسة على طرف الكنبة، ولما انتبهت لها، وجدتها منكمشة على نفسها، ووجهها ينضح بعلامات الاشمئزاز والقرف، والحزن، فتحت فمها لتتحدث فمنعها جفاف حلقها من إخراج صوت. مدت يدها إلى بقايا ماء فى كوب أمامها شربته وقالت: «أنا



fb/mashro3pdf

آسفة جداً، أنا كنت بعرض على الدكتور اقتراح بعقد دورة تدريبية لشباب المتدربين فى القسم، أنا آسفة بعد إذنكم أسيبكم، وأبقى أرجع وقت تانى».

أوقفها الدكتور قائلاً: «انتظرى يا شافكى خدى مها معاكى واطلعوا الكافتيريا اشربوا كبايتين ليمون على حسابي، وهديها يا شافكى وفهميها إن الدنيا مش لونين أبيض وأسود، لا فيها ألوان كتير، وإن كنت واثق إن انتِ كمان يا شافكى محتاجة تفهمى إن الدنيا مش شريط ماشى عليه قطر، اكبروا بقى حتجننونى». وأطلق ضحكة، وجلس على مقعده وأمسك بأوراق، كإشارة منه اعتدنا عليها بإنهاء المقابلة.

صعدت معها للكافتيريا، ولحق بنا عدد من شابات وشباب المتدربين، وعدد من زملائنا وزميلاتنا القدامى، كانت تفاصيل ما حدث قد انتشرت فى المصلحة، نعرف بحكم الخبرة، أن مصدر انتشارها هو الدكتور، الذى استدعى فوزية وسوزان صديقتها القريبة منها والتى يطلقون عليها فى المصلحة «تابعة قفه» دلالة على تبعيتها لفوزية التى ندرك أنها ليست تابعة بإرادتها ولكن خوفًا من لسان فوزية وقدرتها على الإيذاء، واحتياجًا لمساعدات تقدمها لها تعينها على تربية أولادها بعد وفاة أبيهم وشريكهما «عباس» من قسم الترجمة الذى كان السبب الرئيسى فى هروب شافكى من المكتب.

يعرف الجميع أن الدكتور يمسك بكل الخيوط فى المصلحة ويحيط بجميع الدوائر، وعندما يذكر أمامه اسم يعرف فوراً بقية الأسماء فى هذه الدائرة أو تلك.

استدعى الثلاثة الذين أطلق عليهم موظفو المصلحة بعد غزو أمريكا



fb/mashro3pdf

للعراق «محور الشر» وبعد أن عنفهم أخبرهم إنه منعنى من تقديمهم للتحقيق مؤكداً لهم أننى لو أصررت، كان سيقف فى صفي. مؤكداً بذلك ومرسخًا إنه حامى الجميع المتعدى والمتعدى عليه، فيأسر الشاكى والمشكو فى حقه، ويشعرهما إنه لولاه لانهدت الدنيا على رؤوسهم..

●●●

لم أنتبه للدعوة المعلقة فى لوحة الإعلانات، فأنا لا أقف أمامها، وحتى لا أراها رغم وجودها فى مكان بارز، لوحة الإعلانات ضمن أشياء كثيرة لم أعد أراها فى المصلحة، فلم أعد أرى من نافذة المكتب، عشرات المكاتب والدواليب والكراسى والدوسيهات الملقاة فى الفناء الخلفى للمصلحة، ولم أعد أسمع أصوات الفئران والعرس، والقطط، ولا أصوات معاركهم وجريهم وقفزهم خلف ضلف الدواليب المفككة وداخل أدراج المكاتب المهشمة، ولم أعد أشم رائحة النتانة والعفن القادمة من رائحة بقايا طعام، وأعقاب سجائر، وجثة فأر ميت تحللت.

كنت وغيرى شهود على أول كرسى مكسور يلقى فى الفناء الخلفى للمصلحة.

وأنا وغيرى بعد إلقاء ثانى كرسى ومكتب ودولاب ودوسيه فى فناء المصلحة الخلفى طلبنا من رئيس المصلحة رفعها والتخلص منها، فى أول مرة، أبدى اهتمامًا شديداً، ووعد بتنظيف الفناء، وفى المرة الثانية أوضح أنها عهدة، وأنه سيشكل لجنة لجردها وبيعها فى مزاد علني، أخيراً قال لي: «لو انتِ مش عايزة تشوفى الكراكيب دى مش حتشوفيها، حاولى تجربى كده ما تفكريش فيها، بعد شوية حتحسى إنها مش موجودة، وإن كان على



fb/mashro3pdf

الريحة، ابقى أقفلى الشباك، يعنى من الآخر وزى ما أحفادى بيقولوا لى «كبر دماغك يا جدو».

ولم أعد أراها لا هى ولا لوحة الإعلانات، ولا أشياء كثيرة أخرى.

●●●

أخرجت صينية الكيك من الفرن، ووضعت صينية الجلاش المحشوة باللحم المفروم، وغسلت الكاسات الكريستال وتركتها حتى يتصفى الماء منها، ثم رصصتها على صينية ووضعتها على الترابيزة فى المطبخ، وغسلت عدة أطباق من طقم الصينى.

أضفت ملعقة سكر كنت قد نسيت إضافتها للماء فى قازة الورد، وأعدتها لتتوسط ترابيزة الأنتريه فى الصالة.

جهزت السلطة، وقليت الفراخ البانيه، والبطاطس، وأدخلت صينية المكرونة بالبشاميل فى الفرن، وتركتها تنضج حتى أنتهى من حمامى وارتداء ملابسى لاستقبال ڤيڤيان ومحب.

أتصور أن الطعام الذى أعددته ليس ملائمًا وكافيًا، وإنه كان يجب أن أحشو لهما ورق عنب، وأقلى كفتة أو أى صنف لحمة آخر ليكن برام ريش، ولكن الوقت ضيق، وهما استأذنا لزيارتى فى نهاية يوم العمل.

غسلت الفاكهة ووضعتها فى الثلاجة، ثم درت على الكراسى والترابيزات بفوطة نظيفة ولمعتها، اطمأننت بإلقاء نظرة على كل الترتيبات، وأخرجت فستانًا جديدًا لم تأت مناسبة لارتدائه، فستان بحمالات رفيعة، وقصير، لونه بمبى فاتح، وضعت ماكياج خفيفًا، وأنا أدخل الحلق فى فتحتى أذنى سمعت جرس الباب يدق سريعًا رششت البارفان على عنقى وخلف أذنى، وجريت للباب لأفتحه، وتذكرت أن ڤيڤيان وأنا أكتب لها عنوان



fb/mashro3pdf

البيت قالت لي: «محب عارفه يا أستاذة» وتساءلت كيف عرف محب عنوان بيتى ؟

قبل أن تدخل ڤيڤيان وبمجرد أن رأتنى هللت: «واو .. إيه الحلاوة دى يا أستاذة مش ممكن».

– أهلاً وسهلاً، ادخلى بس الأول يا إيڤا وبعدين نشوف حكاية الحلاوة دى.

وقفت فى قلب الصالة تتلفت حولها قبل أن تجلس بجوار محب على الكنبة.

– بيتك مريح قوى يا أستاذة، وإيه الورد الجميل ده.

– بيت بسيط يا إيڤا والورد ده علشانكم، احتفالاً بزيارتكم.

– أنا حسيت فعلاً أول ما دخلت بالراحة والهدوء زى ما قال لى محب.

بانت الدهشة على وجهى وعلامة استفهام لسؤال كيف عرف محب أن بيتى مريح وقبل أن أسأله قال: «أنا جيت هنا كتير قبل كده بس حضرتك مش فاكراني، كنت صغير وجيت مع بابا وعمى الأستاذ وديع، أيام إضراب السكة الحديد، بابا اتفصل من شغله وكان عمى وديع هو المحامى بتاعه، ومحامى كتير من السواقين والعمال فى القضية أصل بابا وعمى وديع زملاء معتقل من زمان، وبابا يعرف كويس طنط عفاف مامة حضرتك، وهو وماما سافروا البلد عندكم لما طنط عفاف أتوفت».

غطت عيناى دموعى أمسكتها عن النزول، فقد فجر كلام محب داخلى طاقة حنان ملأتنى بقوة، وملأنى إحساس رهيف بالاطمئنان، اتسع صدرى وأنا أغمض عيناى وأتنفس بعمق، وامتنان للدنيا التى فاجأتنى بهذا البهاء والدفء.



fb/mashro3pdf

تمنيت أن أنهض من مكانى وآخذه فى حضني، أو على الأقل أن ألمسه وبالفعل وقفت ووضعت يدى على كتفه وقلت:

«انت فاجئتني، تشربوا إيه الأول؟»

احتجت أن أسمع صوتي، وأن أتحرك، أن أواصل الشهيق والزفير بعمق، وهذا ما فعلته فى المطبخ.

عدت أحمل أكواب الشاى لثلاثتنا بعد أن جلست قالت ڤيڤيان: «على فكرة يا أستاذة عمى كمال والد محب هو اللى قاله ييجى يعزم حضرتك فى البيت على فرحنا، واحنا جايين النهاردة علشان كده».

– مبروك ألف مبروك، امتى الفرح؟

– احنا علقنا الدعوة فى لوحة الإعلانات النهاردة، والدعوة على الإكليل فى الكنيسة عامة.

– لا مشفتهاش

ابتسم محب واستأذننى فى تدخين سيجارة لما أشعلت سيجارة وقال: «بس السيجارة دى بينا وبين بعض أنا ما بدخنش قدام بابا. وبعد الإكليل اتفقنا أنا وڤيڤيان نعمل حفلة صغيرة للمقربين من الأصحاب، فى مكان على النيل حجزنا فيه، وأحنا عايزين حضرتك معانا، وعمى وديع حيكون موجود، وطنط نهاد».

– نهاد مين يا محب؟

– طنط نهاد حضرتك تعرفيها كويس دى بنت صديق أبويا، عمى حمدى بتاع الحديد والصلب الله يرحمه، بابا راح لها عابدين وعزمها.

وقبل أن أقترب من الصور القديمة المستقرة وأبحث فيها عن أصحابها، الذين وضع لهم محب صوراً جديدة قال: ««عمى حمدي، أو الأسطى حمدى



fb/mashro3pdf

زى ما كان أبويا بينانيه، صاحب أبويا، أنا أعرف طنط نهاد من زمان، بس هى أتجوزت، وغابت فترة، وبعدين انفصلت ورجعت عابدين تانى».

– أيوه أنا عارفه ورحت لها عابدين، بس حاجة غريبة الدنيا صغيرة بشكل.

– الحقيقة أبويا كتير كان بيقول لى أتعرف على حضرتك، وأعزمك عندنا، بس أنا كنت بتكسف، لأنى شايف حرصك على عدم الاختلاط مع الزملاء فى الشغل، وبابا كان دايمًا يسألنى على حضرتك، وراح هو وماما لطنط نهاد لما اتطلقت البيت، لأنه كان بيحب عمى حمدى قوى، ولما أتسجن بعد إضراب الحديد والصلب، واتفصل عمى وديع كان المحامى بتاعه برضه.

امتدت سهرتنا، وكلما مرت ساعة كنت أشعر أن الساعة باب جديد يفتحه لى محب وڤيڤيان على دنياهما وبدأت فى إعادة ترتيب الصور القديمة مع الصورة الجديدة التى أدهشنى بها محب.

ڤيڤيان ومحب التحقا بالعمل منذ ثلاث سنوات، ضمن دفعة من المتدربين فى قسم الترجمة، وارتبطا بعلاقة خاصة، كانت واضحة لم يخفياها، لم تتعد علاقتى بهما حدود المودة، وقد أبديت مرة لهما دهشتى من التشابه الشديد بينهما وقد ظننت أنهما أقارب، وإن كانا يشبهان معًا معظم أبناء جيلهما. النحافة وقصر القامة، والملابس التى لا تتغير الچينز والبادى القصير والحذاء المعروف بالكوتشى أيًا كان ماركته، ولا تختلف ملابس الأولاد عن ملابس البنات إلا فى التى شيرت للأولاد والبادى للبنات.

قضينا الساعات التى قالت فى نهايتها ڤيڤيان ونحن واقفان على باب الشقة: «على فكرة محدش بيقول لى إيڤا غير حضرتك، ولو تفتكرى من أول



fb/mashro3pdf

ما اشتغلت وحضرتك بتنادينى بإيقا» ثم وجهت كلامها لمحب: «بس إيه رأيك مش الأستاذة مزه طحن، ليه مابتجيش الشغل كده» ضحكت وقلت: «آجى الشغل بفستان بحمالات يا إيقا برضه» فقاطعنا محب قائلاً: «عارفين السهرة دى كان ناقصها إيه؟ كان ناقصها قزازتين بيرة ساقعين، ولا حضرتك ملكيش فى حوار البيرة» ضحكت وقلت: «لأ ليه فى حوار البيرة يا أستاذ محب تصبحوا على خير».

●●●

عرفت أن الأستاذة شافكى سقطت على الأرض وانكسر ذراعها فاتصلت بها واستأذنتها فى الزيارة. وهى زيارتى الأولى لها.

لن أنكر إحساساً ملأنى بالفضول والشغف لأننى سأدخل بيت «شافكى هانم» فى عمارة من أجمل عمارات القاهرة بالزمالك، وعلى النيل مباشرة.

نزلت من التاكسي، ووقفت أتأمل بناء العمارة الضخمة، كأنها معبد، المدخل بهو متسع جدرانه مبطنة بالمرايا المؤطرة بالنحاس المشغول كأنه قطع من الدانتيلا، سرت بين الأعمدة الرخامية، التى يقف أمامها تمثالان لڤينوس إلهة الجمال بحجم كبير، سرت أمتاراً غير قليلة حتى وصلت إلى الأسانسير الواقع فى منتصف المدخل وبعده حتى نهايته عدد مماثل من الأعمدة وتمثالان آخران لڤينوس بالحجم نفسه، باب الأسانسير الذى أنتظرته عريض من الخشب الأبانوس اللامع كأنه مرآة، وعلبة الأسانسير تتسع لعشرة أفراد ومبطنة بالمرايا، ولها باب مصنوع من الحديد المشغول كأنه أيضاً قطعة من الدانتيلا، وبمجرد أن ضغطت على الزرار رقم عشرة، انطلق صوت دعاء السفر، وتلاه ذكر لأسماء الله الحسنى، بصوت القارئ السعودى الذى انتشرت شرائط تسجيل للقرآن بصوته منذ عدة سنوات،



fb/mashro3pdf

ذلك الذى يبكى فى التسجيلات، لا أعرف أو لا أذكر اسمه الذى بالضرورة تردد أمامى عشرات المرات.

فى رحلتى من الدور الأول إلى الدور العاشر، كنت أمنى نفسى بالجلوس فى البلكونة لمشاهدة النيل والأشجار، من تلك الشقة التى نازعها عليها أهل زوجها بعد موته ليطردوها منها ويستولوا عليها، حتى إنهم طعنوا فى عقد الإيجار الذى يرجع تاريخه إلى أربعينيات القرن الماضي، وهى قضية شهيرة حكم فيها لصالح «شافكي» التى قدمت عقد الإيجار المسجل باسم أبيها مصطفى باشا، وقد سكنتها مع زوجها رءوف بك منذ زواجهما وبعد عودتهما من الخارج، بزوجها مريضًا، مرضًا اضطرها لبيع مجوهراتها الأصلية القديمة، واستبدلتها بالقطع «الفالصو» المرصعة بفصوص زجاج والتى تتزين بها الآن.

وقف الأسانسير، وفتحت بابه فواجهنى ظلام دامس اضطرنى لترك باب الأسانسير مفتوحًا حتى أتبين طريقي، وأخطأت بإغلاقه بمجرد خروجى منه. وقفت متسمرة فى مكانى حتى أحدد اتجاهى وتتعود عيناى على الظلام. سمعت أصوات، خربشة أظافر ضعيفة على أوراق جرائد، أقشعر بدنى والتصقت بالحائط، ضاغطة قدمى بشدة للحائط خوفًا من مرور الكائن مصدر الخربشة عليهما، وشعرت بقرف لاحتمال أن يكون مصدر الخربشة فأرًا. بدأت رائحة المكان تتسرب لأنفي، فالتقطت رائحة هى خليط من روائح طعام نتن، براز وبول، ثم ميزت بينها رائحة قطط، وتأكدت أنها قطط بعد أن بدأت حاسة السمع عندى تعمل مع حاسة الشم، فسمعت مواءً ضعيفًا لقطط مولودة حديثًا، ثم ميزتُ صوت قط أو قطة أنه ليس مواءُ إنها قطة تزوم.



fb/mashro3pdf

بحذر تحركت وأنا ملتصقة فى الحائط، خائفة من الدوس فيما لا أعرف وربما أدوس قطًا مولوداً، هذا الخاطر أوشك أن يصيبنى بالتجمد، إنه خاطر قابل للتحقق، إمكانية تحققه تحولت إلى دبابيس انغرزت فى قدمى.

وقفت مكانى. مددت يدى فى الحقيبة بحثًا عن ولاعة السجائر، أخرجتها وأشعلتها لأحدد كيف سأقطع الخطوات القادمة لباب الشقة الوحيدة المسكونة فى الدور كله، فبقية الشقق مهجورة لأسباب مختلفة.

الجرس على الحائط الأيمن بجوار الباب الحديد، ضغطت على الجرس مرتين، وانتظرت سمعت صوت قدميها، فتحت الشراعة فظهرت عيناها اللوزيتان بلونهما البنفسجى، وخط الكحل المسحوب من بين الجفنين ليتوازى مع الحاجب.

أغلقت الشراعة، وفتحت عدة أقفال، أدركت أنها أكثر من قفل من تتالى أصوات «التكات» الصادرة عن حركة المفاتيح فى الكوالين، ثم سمعت صوت شدة ترباس، وصوت رفع السلسلة المعلقة فى الباب.

وبأهلاً يا مها «بنسوار كومانتاليفو» فتحت الباب الحديد المغلق بقفل كبير واستقبلتنى.

تركتها تغلق أبوابها ووقفت فى مدخل الشقة ثم تحركت للأمام بضع خطوات إلى داخل صالة كبيرة، شعرت برحابة اتساعها، الذى استقبلته بنفس عميق محمل بالإعجاب أدخلته إلى صدرى، واستغرقت فى رؤية المكان الواسع، الذى يتسع لجلوس أكثر من ثلاثين شخصًا، مفروش بعدة صالونات، وكنب منفرد، والكراسى حاملة الألقاب الفرنسية، وترابيزات، مطعمة بالصدف وقطع فرو وسجاجيد ملقاة على الأرض.

صالة هى معرض موبيليا فخمة وراقية، بلا خلل فى الألوان أو فى



fb/mashro3pdf

مساحات الفراغ بينها. بجوارى حيث أقف انتهت لكونسول كبير من خشب الأبانوس، مطعم بالصدف والنحاس تعلوه مرآة مشروخة من منتصفها ضخمة مؤطرة بإطار نحاسى وخشب مطعم بالصدف، لم أتبين بشكل كافٍ قطعة الرخام فوق الكونسول فقد غطتها أكوام من الجرائد والمجلات.

أنهت إغلاق أبوابها ودفعتنى للأمام قائلة: «تعالى نقعد فى أوضة المكتب علشان نتكلم براحتنا». اقتربت أكثر، فرأيت الأتربة التى غطت المقاعد والأرض، ورأيت أكوام جرائد ومجلات منتشرة بين المقاعد والترابيزات محتلة الفراغات المتاحة.

أفسدت عليّ تأمل المكان كما أحب، ولكننى سريعًا رأيت الستائر المعلقة على الشبابيك المغلقة والبلكونات المغلقة أيضًا، عدة طبقات من الأقمشة تصنع ستائر شديدة الجمال والأناقة والقذارة أيضًا، ألوانها بهتت، ومن كثرة ما علق بها من أتربة شممت رائحة التراب المتراكم عليها.

وفى الطريق لحجرة المكتب وقعت عيناى على لوحات معلقة على الحوائط، وقازات موزعة على الأرض، تنفست بعمق ذلك التنفس أو الشهيق الذى أعبر به عن إعجابى ودهشتى بما أراه جميلاً، خاصة المقتنيات القديمة والعريقة.

سرنا فى ممر طويل على جانبيه أبواب مغلقة حتى وصلنا فى آخره إلى حجرة المكتب. تمنيت بمجرد دخولى إليها أن تتركنى فيها بمفردى ولو للحظات لأتأملها، وأنام على الشيزلونج الموجود ولو لدقائق. تمنيت أيضًا فرصة أضع فيها يدى على قطع الموبيليا «الفاتنة» بالفعل لا يمكن وصفها بأقل من التحف الرائعة، المكتب والمكتبة والمقاعد والترابيزات والقازات واللوحات المعلقة وبروازين يحيطان بصورتى رجلين عرفت بعد ذلك أن



fb/mashro3pdf

واحدة لأبيها والثانية لزوجها، لم يكن بينهما فارقٌ فى السن، عرفت أن زوجها كان صديقًا لأبيها وإنه مات وهى فى الثلاثين من عمرها.

جلست على أحد المقاعد واستأذنتها فى أن أدخن سيجارة، لأننى وكما آخذ شهيقًا عميقًا تعبيرًا عن دهشتنى وإعجابى أحب تدخين سيجارة تشاركنى لحظة الدهشة.

بدأت أشم رائحة دخان السيجارة مختلطة برائحة الورق والأتربة، فحجرة المكتب لم تخلُ من أكوام الجرائد والمجلات.

لمحت على المكتب قصاصات جرائد ومجلات ومظاريف منفوخة يظهر من فتحاتها أطراف قصاصات جرائد، المظاريف موضوعة بنظام على المكتب ومكتوب على كل مظروف اسم الموضوع الذى يحتويه.

بدأت كلامى معها بـ«سلامتك يا أستاذة إيه اللى حصل؟» .. «اتزحلقت فى الحمام وأنا بفادى قطة فوقعت وانكسر دراعي، ومرسى إنك جيتى تزوريني، المشكلة إن اللى اتكسر دراعى اليمين، مش عارفة حاشتغل إزاى، أنا عندى مشاريع كتب كتيرة مؤجلة، سفرى الدائم مع سعادة السفير، وبعدين مرضه الطويل، أجلوا مشاريعى فى الكتابة، لكن أنا عندى أرشيف لكل موضوع، وبخبرتى وقدرتى على الكشف والتقاط ما بين السطور حأكتب كتبًا عميقة ومهمة، عندى مشروع عن خطط الصهيونية العالمية، وعن بروتوكولات حكماء صهيون، وعن المؤامرات الاستعمارية على المنطقة العربية، وبعدين، خبرة حياتى لازم تتحط فى كتاب».

أدركت مبرر وجود هذا الكم من الجرائد والمجلات، وأدركت معنى وجود المظاريف، وأدركت إنها هى أيضًا وجدت طريقتها الخاصة لملء الوقت، بعد أن خلت الدنيا حولها، فقد ذاقت طعم وطول الوقت والوحدة داخله.



fb/mashro3pdf

الحقيقة ساعدها الدكتور رئيس المصلحة لاعتبارات العشرة والزمالة والصداقة على ملئه بمد الخدمة لها ومنحها لقب مستشارة أيًا كان مضمون اللقب، ولكن استطاع آخرون طردها من مكتبها، ورميها فى جوف ساعات فارغة تحاول أن تملأها.

معروف فى المصلحة أنصدور قرار بالمد لها وإضافة لقب مستشارة أشعل صدر «عباس» بالغضب فهو نائب رئيس قسم الترجمة والمرشح لتولى المنصب، بعد خروج رئيس القسم للمعاش أو موته أيهما أقرب، ووجود «شافكي» معناه أنه لن ينال المنصب لأنها ببساطة سوف تكشف مستواه المتدنى فى الترجمة فقد هبط على المصلحة من أحد فروعها بمحافظة من المحافظات، هى نفسها قالت لرئيس المصلحة: إنه لا يصلح مترجماً ولا يجيد اللغة أصلاً.

وفى مشاجرة بين عباس وأحد زملائه بالقسم قال له زميله: «ما هو الزمن المنحط يخلى الأشكال اللى ما بتعرفش تفك الخط يشتغلوا مترجمين».

ولأنه يعرف حدود الخطر فى وجودها فقد اتفق مع فوزية على استخدام كل الوسائل حتى تترك المكتب أو المصلحة كلها، ووصلت هذه الوسائل والتى قامت شافكى بعدها بحمل أوراقها وصعدت للكافتيريا، إلى وضع فأرٍ ميتٍ فى درج مكتبها ، أما ما أمكنها احتماله لفترة طويلة فكان تغطية حوائط المكتب بصور النساء المحجبات والمنتقبات ومعها أحاديث عذاب القبر وسوء النساء ومكرهن، وما ينتظر غير المحجبات فى الجحيم، ولما لم تهتم أحضر شرائط تسجيل تحمل نفس المعنى، لمشاهير خطباء المساجد والزوايا هؤلاء الذين يؤدون أحاديثهم وخطبهم بأصوات مرتفعة، والذين انتشرت تسجيلاتهم فى الميكروباصات، وتبعها بشرائط لتلاوة القرآن بأصوات



fb/mashro3pdf

القارئين السعوديين، ولما نبهته لوجود زملاء مسيحيين فى المكتب، وإن لسماع هذه التسجيلات أوقات محددة ليس من بينها أوقات العمل رد عليها قائلاً أمام الموجودين: «لا يا أستاذة معلش، الدين عند الله الإسلام، وذكر ربنا سبحانه وتعالى ملوش وقت محدد، ده فى كل وقت، وإحنا مش حنسيب الغرب وتربية أوروبا لحد ما يقضوا علينا».

لم تستوعب يومها إنه يقصد مضايقتها، فقد اعتبرت أن ما يحدث هو خراب سوف يقضى على العقول والمستقبل والبلد كلها، هذا ما قالته. ثم فهمت أن المسألة ليست انتصاراً للدين الإسلامي، بعد تكرار زيارات فوزية للمكتب، وتعمدها بالاتفاق مع عباس أن يتحدثا بصوت مرتفع بكلام يتعلق بالحجاب و«النسوان اللى رجلها والقبر وبقت عضم فى قفه، ومش عايزة تقابل وجه كريم وهى مستورة» أو: «النسوان لما تكبر بتتهبل، والمفروض يقضوا أيامهم الباقية لهم فى الدنيا يكفروا عن ذنوبهم، وما يقوموش من فوق سجادة الصلاة».

أعرف أيضًا أنها لجأت للدكتور ليتدخل، وأعرف أيضًا أنه لم يتدخل، حتى إنه لم يتدخل بشأن الدروس الدينية التى تعقد فى كافتيريا المصلحة ثلاثة أيام فى الأسبوع للموظفات والموظفين، ويقوم بها بالتناوب عباس الذى أطلق لحيته وفوزية بعد أن ارتدت الإسدال والخمار وبعده النقاب.

ومع اللحية والنقاب ففوزية وعباس يقيمان الصلاة فى أوقاتها، بعد أن يؤذن هو للصلاة، وقد أعدا ممرات المصلحة وفرشاها حصراً بلاستيك، وحددا أماكن لصلاة النساء وأخرى للرجال.

وإنقاذاً لشكل المصلحة - كما يقول - خصص الدكتور صالة الاجتماعات والاستقبال بالدور الأول للصلاة، وعلق على بابها لافتة مكتوب



fb/mashro3pdf

عليها «المسجد»، وامتلأت المصلحة بإشارات معلقة على الحوائط مكتوب عليها بخط كبير: «إلى المسجد» وسهم يشير إلى اتجاهه، وبجوارها صور لنساء محجبات، وأوراق ملونة ومصقولة مكتوب عليها:

«صلى قبل أن يُصلى عليك»

«الحجاب قبل الحساب».

«لن ينفك الكرب وسيزداد الغلاء طالما النساء غير محجبات».

«إذا استعطرت امرأة وشم القوم ريحها فهى زانية».

«هل فكرت فى الموت أنه أقرب إليك من حبل الوريد».

«لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخراز خير له من أن يلمس امرأة لا تحل له».

عاتبت شافكى الدكتور على قراره بتحويل صالة الاستقبال لمسجد لأنه ليس لها الحق فى الاحتجاج، وليس من حق أحد أن يحتج، قبلنا جميعًا هذا الوضع الذى رسخه الدكتور، دون أن نواجه أنفسنا بأننا تنازلنا وفرطنا فى حقنا فى الاحتجاج وإن كان قد ترك لنا مساحة للعتاب أو الشكوى، بكلمات هادئة نصف فيها ما نشكو منه، ولا نقترح بدائل أو رؤى لتغيير ما نشكو منه، وقد استسلمنا مع الوقت واليأس لهذا القانون غير المكتوب، ورضينا به، ولا نسعى لتغييره، وبصراحة تخصنى شخصيًا أقول إنه ليس عندى ولا عند أحد همة ولا طاقة للاحتجاج وللتغيير، وقد وضع الدكتور يده على هذه الحقيقة جيدًا لذا فهو مطمئن.

لذا وعندما عاتبته شافكى على قصة المسجد قال لها: «لما يصلوا قدامى أفضل ما يخرجوا للجوامع، ومفيش حد يقدر يقول إنى منعت الصلاة، والبلد محاصرة برياح سلفية عاتية، لازم نطاطى لها لحد ما تعدى، وفى الآخر يا ستى ما تزعليش أنا حأقرص لك ودان العيال دول».



fb/mashro3pdf

بعد أن قرص «ودان العيال دول» وضعوا لها الفأر الميت فى الدرج.

دخنت أكتر من سيجارة ولست معتادة على التدخين الكثيف والمتوالى فشعرت بغثيان، وتمنيت لو شربت فنجان قهوة، لكنها لم تفعل، استغرقها الكلام عن مشاريع كتبها المؤجلة والتى سوف تبدأ فيها بعد فك الحبس، وقبل أن تواصل طلبت منها دخول الحمام.

قادتنى فى ممر جانبى به الحمام، وقبل أن أدخله قالت «أنا أسفة لمبة الحمام اتحرقت، ونسيت أجيب غيرها»، وكان ضوء الشارع كافيًا مع الضوء القادم من لمبة الطرقة لأرى أوراق الجرائد المفروشة على الأرض، وعليها بقايا طعام القطط وبرازها، رأيت نفس البقايا فى البانيو، ودخلت روائح القطط وبقاياها ليس إلى أنفي، ولكن إلى معدتى التى انقلبت، فتحت الحنفية رششت بعض الماء على وجهى وخرجت أنشفه فى منديل ورق كان بيدي، سمعت صوتها يناديني، من المطبخ الملاصق للحمام دخلت حيث الصوت، أى دخلت للمطبخ، فهالنى ما رأيت، مطبخ كبير يصل حجمه لحجم حجرة فى عمارات هذه الأيام، به كل ما يمكن أن يوجد فى مطبخ أثرياء زمن مضى، دواليب وترابيزات وأرفف رخام وثلاجة وبوتاجاز، ولكن كل المسطحات حتى الأرض وأسفل الحوض مغطاة بأوانى قديمة وبعضها ليس نظيفًا خاصة الحلل، مع أطباق صينى بها بقايا طعام، وأخرى بها قطع جبن متناثر، وبقايا طرشي، وسلطة، وحولها وداخلها يطير ويحط ذباب صغير الحجم، وأيضًا أرض المطبخ مغطاة بالجرائد لاستقبال فضلات القطط.

أنا بأعملك قهوة يا مها، ما شربناش حاجة من ساعة ما جيتى ولا إيه رأيك نحضر حاجة ناكلها.



fb/mashro3pdf

انقلبت معدتى وشعرت بورطة، وبحرج شديد، فأنا لن أقدر على أكل أو شرب أى شيء فى هذا البيت، كما إننى لا أقدر أن أسبب لها حرجًا، إن رفضت. تذكرت علبة البلح بالشيكولاته التى أحضرتها معى ومازالت فى حقيبة يدى فقلت لها: «مفيش داعى يا أستاذة أنا جايبة حاجة أنا بحبها، ويارب تعجبك بلح بالشيكولاته إيه رأيك؟».

هتفت كالأطفال: «بجد يا مها طبعًا بحبه يا ريت يكون من جروبي، طول عمرى بحب بلح جروبي، والفواكه المسكرة والمارون جلاسيه، أحسن محل فى مصر بيعمل التلات حاجات دول لا وكمان الكاساتا» صمتت وكسا الأسى وجهها وبصوت منخفض كأنها تحدث نفسها قالت: «ياللا كانت أيام».

أمسكت نفسى قبل أن أقول لها أن كيلو المارون جلاسيه وصل سعره فى جروبى إلى ربعمائة جنيه.

استأذنت فى الانصراف على وعد بزيارة قريبة أوصلتنى للباب حتى تعيد القطط للداخل وقالت: «خرجت القطط بره علشان نقعد نتكلم براحتنا، أنا بحب القطط جداً حتى قطط الشارع، وخصوصًا اللى قدام المصلحة بآخذ لها أكل معايا كل يوم، مها تحبى تاخدى قطة تسليكي» قلت لها: «شكرًا أنا مسافرة لما أرجع إن شاء الله».

●●●

فتحت باب الأسانسير وقفزت داخله بمجرد وصوله، بدون وعى أخذت أنفض بيدى أكتافى وملابسى وشعرى، كأننى أطرد عنى مصير «شافكى هانم» – هذا اسمها كما هو مكتوب فى شهادة الميلاد– العاجزة ماديًا عن



fb/mashro3pdf

دفع أجر من ينظف لها بيتها الكبير الواقع فى الزمالك، أعرف أن معاشها وبعد إضافة جزء من معاش زوجها لا يكفيان ستر ما تبقى لها من ساعات قررت أن تملأها، بقصقصة الصحف، وجمع القصاصات فى أظرف، وستملأ ساعات أخرى فى الحديث مع نفسها عن الكتب التى سوف تكتبها، فحياتها خالية ممن يمكن أن تتحدث معهم. الكل مات أو هاجر أو انشغل بحياته وليس عند أحد وقت يمكن أن يملأه بوجود وأحاديث شافكى هانم.

سرت على النيل حتى ميدان التحرير أتنفس بعمق حتى أطرد من صدرى الهواء الذى تنفسته فى بيت شافكى. الهواء الذى يحمل مصيرها، أطرده خوفًا وفزعًا من أن يسكننى مصيرها، سرت كثيرًا حتى لا أدخل بيتي، بمصيرها المعجون برائحة القطط وأصواتها.

وصلت بيتي. فتحت نوافذه كلها، ولملمت الجرائد التى أحتفظ بها فى المطبخ لأفرشها على ترابيزة الأكل، وألقيت بها خارج الشقة.

خلعت ملابسى وألقيت بها فى الغسالة، لبست جلابية البيت، ملأت جردل المسح ماء، وضعت فى الماء سائل تنظيف الأرض، وأضفت إليه ديتول ومسحت الشقة كلها.

دخلت الحمام، وقفت تحت الدش، أطلقت ماءً ساخنًا فوقي، حككت جسمى بالليفة بعد أن راكمت عليها كمية كبيرة من الصابون، أريد أن أتخلص من رائحة القطط والوحدة تحت الماء المتدفق إلى مسامى. وروحى.

●●●

أفقت من نومى على طرقات عنيفة، على باب الشقة، وضغط متواصل



fb/mashro3pdf

على الجرس، وصلني الصوت الملهوف الفزع كأنه حلم، ثم ا. نح إنه ليس حلمًا.

انتبهت، وانتقل لي فزع الطارق على بابي، جريت حافية بقميص نومي إلى الباب، فتحته وجدت طنط كوثر زوجة عمي نشأت التي ما أن رأتني حتى أخذتني في حضنها وبكت، وظلت تردد بصوتها الباكي، وهي تأخذني لداخل الشقة: «حمدلله على سلامتك يا بنتي، حمدلله على سلامتك يا حبيبتي، الحمد لله إنك بخير».

تبادلت معها الموقف فأخذتها في حضني وأجلستها على الكنبة. تركتها ودخلت المطبخ، أحضرت لها كوب ماء مثلجًا: «اتفضلي يا طنط، مالك، إيه اللي حصل، طيب اهدى، وفهميني».

– مش عارفة أقولك إيه مش مهم، المهم إن انت بخير، هي الساعة كام.

– الساعة سبعة.

أكملت شرب كوب الماء وظلت ممسكة الكوب بين يديها، ولم تستطع أن توقف ارتعاشهما، وارتعاش جسدها، وشفتيها.

– اهدى يا طنط وفهميني إيه اللي حصل؟

– المصلحة بتاعتك يا بنتي اتحرقت، والحريقة جاية في التليفزيون، والنار طالعة من الشبابيك ومن كل مكان، ما حستش بنفسي إلا وأنا بجري أطمئن عليكي، الشيطان شاطر صور لي حاجات وحشة كتير، وانتي في غلاوة بناتي، وانتِ أمانة سايبتها عفاف هانم الله يرحمها.

فقدت القدرة على التفكير والاستيعاب، لم أستطع تفسير ما قالته ووضعه في صورة متكاملة حتى أراها وأفهمها لدرجة أنني لم أتصرف



fb/mashro3pdf

التصرف التلقائى بسحب الريموت كنترول من فوق الترابيزة، لأفتح التليفزيون، وأعرف ما حدث.

ملأت عينى صورة المبنى العتيق. الزخارف التى تزين واجهته، الأعمدة الرخامية التى تقف فى مدخله، تمثال إله الحكمة عند المصريين القدماء الذى يتصدر المدخل، الزجاج المعشق على نوافذه، فسيفساء المشاية الممتدة من البوابة الخارجية وحتى أول سلمة رخام، خمس سلالم وبسطة من الرخام الإيطالى المجزع باللون البنى بدرجاته، الباب الكبير المصنوع من خشب الزان، الحفر على الباب والتاج الذى يعلوه أسفل السقف مباشرة، تماثيل النساء الأربع التى تتصدر زوايا سطح المبنى، ليس مبنى المصلحة الذى احترق إنه تحفة من التحف الأثرية التى أعشقها، وأخاف عليها من خدش قد يصيب حجر فيها.

- افتحى التليفزيون يا بنتى دى الحريقة كبيرة قوى.

ضغطت على زرار فتح التليفزيون، لأرى المشهد الأخير، النيران غطت الشاشة، كتل من اللهب، تهاجم الفضاء تتحرك ارتفاعًا وهبوطًا تملأ مساحة شبابيك الأثر الضخمة، تدمرها تنطلق بقوة.

تتصاعد سحابات كثيفة من الدخان وتغطى المساحات الفارغة، يتكاثف الدخان فيحجب اللهب، وينتزع مكانه على الشاشة. ستار كثيف من السواد، تصارعه كتلة حمراء من النيران، لتحتل هى الشاشة، صراع عنيف بين الدخان والنار، صراع لا ينتهى، اشتد وقوى، لما دخل إلى حلبة الدمار منافسًا لهما جاء معلنًا عن نفسه بانفجار مدوٍ، وانهيار مزلزل. سقط الدور الأخير فوق الدور الأسفل.



fb/mashro3pdf

الانفجارات تتوالى، بعد سقوط الطابق الأعلى، أسمع طقطقة النيران تمضغ خشب البلوط، والزان والأرو، النيران طحنت تحت أضراسها أرفف المكتبة الأثرية، صوت مضغ النيران للكتب يرتفع، خشخشة الأغلفة الجلدية تحت أسنانها تتوه مع صوت انهيار الأعمدة الرخامية وردية اللون، سقطت أعمدة البهو الرئيسى أسفل الطابق الأعلى.

انهار المبنى كله ومازالت النيران مشتعلة مازال الدخان يملأ الفضاء، كل شيء احترق إلا المكاتب والدواليب الصاج الملقاة فى الفناء الخلفى للتحفة المعمارية التى أصبح اسمها المصلحة.

●●●

أعلن مصدر مسئول توقف العمل بالمصلحة لحين إشعار آخر.

●●●

«لحين إشعار آخر» إذاً وقت جديد آخر، مطالبة أنا بملئه، ساعات جديدة تتكوم حولى وفوقى وتحتى، وهى نصف اليوم الأول، الذى كنت أملأه بعملى فى المصلحة، وقد احترقت، احترق فى النيران ثلاثة من عمال الحراسة الليلية والفئران والعرس والأبراص التى سكنت الدواليب والمكاتب الصاج المكسرة والمكومة فى الفناء الخلفى.

المؤكد والمعلن أن العمال الثلاثة لقوا مصرعهم، ولكن ليس من المؤكد أن كل الفئران والعرس والأبراص قد احترقت، ربما استشعرت الخطر قبل وقوعه فهربت، ربما هربت كلها، وربما بعضها.

●●●



fb/mashro3pdf

احترقت المصلحة، احترقت ساعة التوقيع، ومكتب الموظف المختص بإدخال كروت الحضور والانصراف فيها. احترقت الكروت نفسها، احترقت الملفات التى كان مسئول الساعة يفرغ فيها بيانات الكروت.

كانت ملفات الحضور والانصراف محفوظة داخل دواليب صاج، ضاقت الدواليب عليها. ضاقت حجرة المحفوظات على الدواليب، لم يعد بالإمكان إضافة دولاب جديد، فأمر رئيس المصلحة بوضع الملفات الجديدة فوق الدواليب، وصل ارتفاعها فوق بعض الدواليب إلى ما قبل السقف بشبر أو شبرين على الأكثر.

لى فى حجرة المحفوظات ثمانية وعشرون عامًا من عمري، ملفات مرصود فيها بداية ونهاية خط مستقيم سرت عليه ثمانية وعشرين عامًا.

ثمانية وعشرون عامًا لم تختل فيها حركة يدى وأنا أغلق خلفى باب الشقة، كما لم تختل حركة عقارب الساعة المشيرة للثامنة صباحًا، لأصل للمصلحة فى التاسعة صباحًا، أسمع دقة الكارت فى الساعة، مؤكدًا التزامى وحرصي، أشعر بالرضا وأحيانًا الزهو، رضا وزهو مصدرهما الساعة المعلقة على الحائط بجوار اليد اليمنى للموظف الجالس على مكتبه خلف نافذة زجاج يتيح اتساعها للموظف مراقبة حركة الموظفين ورصدها.

السنوات الأولى فى الثمانية وعشرين عامًا، هى التى كنت أشعر فيها بالرضا عن نفسى والزهو بها، مع دقة الساعة، سنوات أخرى، تبدل فيها شعورى وأصبح مجرد شعور بالارتياح، سنوات أكثر أصبحت دقة الساعة



fb/mashro3pdf

تعنى التخلص من عبء ثقيل، ينزاح مع دقة الكارت فى التاسعة صباحًا، عبء عشت معه السنوات الأكثر عددًا، عبءٌ ثقيل يبدأ فى الثامنة يظل ظاغطًا وخانقًا حتى التاسعة.

ساعة زمن لا أتوقف خلالها عن النظر فى ساعة يدي، وفى الطريق، أحسب حسابًا للإشارات، وللمفاجآت، ساعة زمن هى الأثقل فى ساعات يومي، عبورها للتاسعة، يعنى أننى نجوت ببقية يومى من «نكد» حتمي، أطلقت عليه النكد المجانى إن تأخرت خمس دقائق.

ومع دقة ساعة الحضور ينفتح قوس ساعات اليوم، وينغلق مع دقة الساعة فى الثالثة بعد الظهر. ثمانية وعشرون عامًا نصف يومى الأول محصور بين قوسين، بين رقمين: التاسعة – الثالثة، وآلاف الأوراق بينهما، آلاف الخطط والاقتراحات بين القوسين.

احترقت أوراق، ملفات، تقارير، اقتراحات، مشروعات، استطلاعات رأي، قياس توجهات، أوراق عمرها ثمانية وعشرون عامًا، احترقت، واحترقت سلة المهملات التى كان يلقى أوراقنا فيها رئيس المصلحة..

ثمانية وعشرون عامًا احترقت، واحترق معها متابعات، وقراءات، وكتابات أحداث وأرقام وآراء وتحليلات، جداول، ملخصات، وأهم المؤشرات، ورق ورق ورق. الورق يوضع فى كتاب غلافه أنيق، ملون، أعلى الغلاف شعار المصلحة، أسفل الشعار اسم المصلحة، أسفل اسم المصلحة، اسم رئيس مجلس إدارتها، وأسفل اسمه، اسم مسبوق بـ «إعداد وتحليل ...» اسم من بين خمسة أو ستة أسماء تتبادل احتلال أغلفة كتب المصلحة.



fb/mashro3pdf

أسماء لم نر أصحابها سوى على شاشات التليفزيون وفى صفحات الجرائد.

احترقت الكتب ذات الأغلفة الملونة فى حريق المصلحة التى ضاقت من كثرة ما أُلقى فى مخازنها من الكتب ذات الأغلفة الملونة الأنيقة.

الآن تلتهم النيران الكتب، أسمع طقطقة النيران فى خشب المخازن، وخشخشة الورق وهو يذوب ويصبح رماداً، أسمع صوت رئيس المصلحة الذى سمعته خلال ثمانية وعشرين عاماً عشرات المرات متباهياً بالإنجاز العلمى والبحثى لـ: «مؤسسة عريقة بحجم مؤسستنا».

متباهياً بالأسماء المطبوعة على أغلفة الكتب والبحوث: «إننا نتعاون مع خيرة عقول مصر من علماء وباحثين، يقدمون تحليلاً علمياً لكل مفردات الواقع وبالأرقام، مستنداً على جهود بحثية ميدانية، تنتهى إلى وضع حلول جذرية لكل مشكلاتنا، تلك الحلول التى تضعنا ومن خلال الخطط الموضوعة فى مصاف الدول المتقدمة، وكل هذا الجهد مدفوع ومحاط بضمائر حية ونفوس وطنية مخلصة».

احترقت البحوث الميدانية التى استولت عليها الأسماء التى تبادلت الوجود على أغلفة الكتب، هؤلاء الذين قبل أن يستولوا على أغلفة الكتب والمكافآت الضخمة التى يحصلون عليها، سطوا على عمل وجهد من يطلق عليهم رئيس المصلحة: «مجرد موظفين عندى أقدر أطردكو فى أى لحظة».

احترقت جدران المبنى التى اختزنت بين ذراتها صوت رئيس المصلحة وهو يطلق هذا النوع من التهديد لإثبات السطوة وتجديد فرضها.



fb/mashro3pdf

واحترقت سلال القمامة التى كان يلقى فيها بالتقارير والبحوث التى يقدمها «شوية الموظفين اللى عنده» بعد أن يسطو بمعرفته «الباحثون العلميون» على المعلومات والبيانات المسجلة فيها.

●●●

ثمانية وعشرون عامًا، أقطع نفس الطريق، أقوم بنفس العمل، أبلع نفس القهر، أراكم نفس اليأس، ولا أحلم إلا بالهدوء والسلام، لا أريد شيئًا ولا أسعى أصلاً لأى شيء، أؤدى عملى المطلوب منى نشاداً للسلامة، وتجنبًا للمشاكل، أصل إليه فى الموعد المحدد، وأغادره فى الموعد المحدد، أضع مسافة بينى وبين المكان، هى مسافة قصدت بها أن أبتعد قدر استطاعتى عن الصراع.

ثمانية وعشرون عامًا حلمت أو تمنيت عشرات المرات: «أن تنهد المصلحة على رأس من فيها».

احترقت المصلحة التى أسير إليها وكأن سلاسل حديد معلقة فى قدميّ، وكأن جبالاً ملقاة فوق صدري.

كابوس يضطرنى للدخول فى مران ليلى حتى أنام، يبدأ بإغماض عيني، والهرب إلى مكان بعيد، أخترع فى كل ليلة مكانًا، مرة دير، وأخرى عشة فى جنينة على النيل، وأخرى خيمة على البحر.

سنوات وأنا مربوطة بسلاسل لم أفكر فى كسرها، لم أجرؤ على كسرها، وسنة جرت سنة حتى أصبحت السنوات ثمانى وعشرين، عشتها كأننى أتابع مشاهد على شاشة التليفزيون لا علاقة لى بها، وكما عشت فى



fb/mashro3pdf

المصلحة كمشاهدة، شاهدت أيضًا احتراقها على شاشة التليفزيون، من المسافة نفسها التى تفصل المشاهد عن المشهد.

●●●

خلعت ملابسى وتوجهت عارية للحمام، نزلت تحت الماء، وتركته يتدفق بقوة على جسدى، ودون أن أشعر أطلقت صيحة لا أعرف من أى منطقة داخلى انطلقت: «يااه».

●●●

خرجت من الحمام عارية ولم أجفف شعرى وجسمي، تركت قطرات المياه تتساقط على الأرض، سوف أرتدى ملابس غير تلك التى أرتديها وأنا ذاهبة للمصلحة، وسوف أخرج وأسير فى طرق وشوارع غير تلك التى أسير فيها وأنا فى طريقى للمصلحة. لن أتطلع فى ساعة يدي، ولن أحسب الوقت المتبقى على موعد دق كارت الحضور.

سوف أذهب إلى بيت عمى وديع. أعرف أننى سأجده حزينًا لاحتراق المصلحة، ولكننى سوف أطمئنه أن الذى احترق هو المبنى الأثرى فحسب، وأن المصلحة باقية طالما لم تحرق النار رئيسها ودواليبها ومكاتبها الصاج.

لن يعتد بما سوف أقول، وسيواصل التعبير عن أسفه وأساه على الخسارة الفادحة فى تدمير المكتبة الأثرية الموجودة بالمصلحة، والتى تضم أمهات الكتب، ومئات المخطوطات القديمة والثمينة.



fb/mashro3pdf

ودون أن أقصد إيلامه سوف أوضح له أن الكتب والمخطوطات قد نقلت من المكتبة منذ سنوات، ولن أتركه يتنفس ارتياحًا لأنه سيعتقد أنه تم حفظها فى مكان أمين.

ودون أن أقصد أن أزيده وجعًا، سوف أقول له الحقيقة، وهى أن أمهات الكتب والمخطوطات وضعت فى كراتين تنقلت فى أكثر من مكان كان آخرها فوق سطح المبنى، فى البداية وضعت ولفترة طويلة فى بدروم المبنى وهو ما كان مطبخًا وسكنًا لخدم القصر القديم، ثم نقلت لفترة أخرى إلى الفناء الخلفى لأنها جلبت الفئران للبدروم بأعداد كبيرة، وانتقل بعض الفئران معها من البدروم للفناء الخلفي، ولكنهم احتاجوا الفناء الخلفى لإلقاء الدواليب والمكاتب والكراسى المكسورة، فنقلوا الكراتين بما فيها من أمهات الكتب والمخطوطات النادرة وبعض من ولدة الفئران الصغيرة إلى سطح المبنى.

إنها الحقيقة أنا لا أقصد إيلامه فالفئران قرضت أجزاء منها، والمطر والشمس دمرتا الأجزاء المقروضة والتى كان من المنطقى أن تقرضها الفئران لاحقًا إن لم تحترق المصلحة ودون أن أقصد أن أزيد ألمه، سوف أخبره أيضًا أن أمهات الكتب والمخطوطات النادرة وضعت فى الكراتين حتى توضع فى المكتبة ملفات الموظفين بعد أن ارتفع عددها فلم تعد الأماكن الموجودة كافية لحفظ ملفات الحضور والانصراف وكشوف الإنتاج وتقارير الأداء السرية، بالإضافة إلى الكتب والبحوث التى تصدرها الهيئة، والتى كانت مكومة حتى احترقت على أرض الحجرة بربطاتها التى جاءت بها من



fb/mashro3pdf

مطابع المصلحة.

سوف أبقى معه حتى موعد عمل المكتب، وقدوم المحامين الذين يعملون معه، سوف أسمع أصواتهم من خلف الستار الذي يفصل بين المكتب وحجرة معيشته، كما كنت أسمع أصواتهم من خلف باب حجرتي في بيتنا. أعرف أصواتهم وأميزها، وألتقط أصواتًا جديدة انضمت إليهم، أصواتًا تعرفت عليها من خلف باب حجرتي، وعرفت أصحابها وهم يتناقشون، يختلفون ويتفقون، يحتدون، ويضحكون، ويحلمون.

●●●

أفكر في زيارة نهاد أيضًا، أعرف أنها انشغلت في الفترة الأخيرة بترميم بيت أبيها في عابدين، وسوف تبدأ في ترميم بقية بيوت الحارة.

مسكونة هي بحلم عودة سكان الحارة إليها، مسكونة برائحة الحارة القديمة وأصوات أطفالها أيام كانت واحدة منهم، لم تجد رائحة الحارة في القصر، إلا في روح أحمد ابن خالتي ملك فاستنجدت بها من ضياع روحها، ولما مات أحمد انكشف القصر، وتعرى حلمها به، وظهرت حقيقته مجردة .. قصر مجرد جدران عالية وسميكة، وكلاب بوليسية، وفئران، وأفاعي وثعابين.

«خرجت ابنة الأسطى حمدى بإرادتها من القصر إلى نفسها». هذه جملتها التي ترددها دائمًا.

●●●



fb/mashro3pdf

سوف أسير فى الشوارع، شوارع لم أسر فيها خلال الثمانية والعشرين عاماً الماضية، سوف أسير حتى التعب، ثم أشرب قهوتى فى مكان لم أجلس فيه من قبل، ومنه إلى بيت ڤيڤيان ومحب، سوف أطلب من محب أن يسأل ليطمئننى على «الست» المجنونة التى كانت تجلس أمام المصلحة أعرف أنها لم تحترق ولم يعثروا على جثة امرأة، ربما نقلت إقامتها من خلف ساتر الدفاع المدنى إلى الداخل فوق الأنقاض.

ربما يذهب محب بنفسه ليعود لى بأخبارها.

ستواصل صراخها: «أنا اللى عملت كده فى نفسى».

فقدت فى الفترة الأخيرة الإحساس بوجودها ربما من الاعتياد عليه، أصبحت جملها المكررة جزءاً من الحياة، مثل أبواق السيارات، ونداءات الباعة، ودق موزعى الأنابيب عليها، ومشاجرات الناس بدون سبب مع بعضهم البعض.

احتراق المصلحة سيتيح لها مساحة أوسع تعيش فيها، وسيمنع لفترة مضايقات المارة والموظفين لها.

لما سألت محب وڤيڤيان عن عنوان بيتهما قبل زيارتى لهما بعد زواجهما قال محب: «العنوان ده يا أستاذة صالح للزيارة لمدة سنة لو تأخرتى أكتر من سنة ستجديه فاقداً لصلاحية زيارتنا».

ولما سألته: «يعنى إيه؟» أجاب: «أقصد إنه عقد مؤقت بنظام الإيجار الجديد لمدة سنة».

لن أنسى أن آخذ معى زجاجات بيرة وسوف أقول لهما: «ليكم فى حوار البيرة ولا لأ».

●●●



fb/mashro3pdf

سوف أتفق مع زوجة البواب التى تنظف لى شقتى على موعد لآخذها إلى بيت الأستاذة «شافكى» لتنظفه، ربما أستطيع إقناعها بالتخلص من بعض القطط وأرجو ألا تقترح إهداءها لى. فأنا أكره القطط، ورائحتها، فوجودها تجسيد لمعاناة وأسى النساء الوحيدات.

سوف أقترح عليها أن تبدأ فى إخراج قصاصات الصحف وأوراقها من المظاريف، وتبدأ فى كتابة كتابها الأول، خاصة أن المصلحة مغلقة «لحين إشعار آخر».

●●●

بعد يومين سوف أسافر إلى بلدنا، فى غير مواعيد سفرى إليها، فلم تحن الذكرى السنوية لأمى، ولم يمت أحد أقاربنا، ولن يعقد قرانى وهى الأسباب الثلاثة التى أوصتنى أمى بالسفر إلى البلد من أجلها، سوف أسافر بلا سبب من تلك الأسباب التى تخصها، سوف أسافر لأسباب تخصنى أنا.

سوف أتصل بخالتى ملك لتأتى بمن ينظف البيت وتنتظرنى، مازال بيننا حكايات لم تنته، أعرف أنها ستؤكد مجدداً أنها لو وجدت رجلاً يبل جسدها ويرويه، فإنها ستتزوجه حتى لو كانت: «عضم فى قفه» وسوف تسألنى عن أخبار عمى وديع، وسأقول لها إنه مشغول هو والمحامين العاملون معه فى المكتب، وسوف أعدد لها القضايا التى يتولون الدفاع فيها.



fb/mashro3pdf

لكننى لن أتركها تسترسل لأننى أريد أن أعرف منها، حكاية أمى وعمى الأستاذ وديع، أريد أن أعرف: «من هى أبلة عفاف مربية الأجيال؟» و«من هو الأستاذ وديع عريان راهب الحركة الشيوعية كما يسميه رفاقه وتلامذته».

هل أحبا بعضهما، ولماذا لم يتزوجا، هل أحبته قبل أن تلتقى بأبي، ولِمَ ألقى القبض عليه، وأرادت أن تنجب تزوجت أبى كأداة لتحقيق حلمها بالأمومة؟.

لم يتزوجا لأنه مسيحى .. رد حاسم، ولكنه ليس مقنعًا، فالمسيحى يمكن أن يسلم ... ولكنه سياسى مناضل وأمامه معركة هى الأهم، فمعركة إسلامه معركة كبيرة سوف تؤثر على دوره كمناضل ... وما ذنب أمى حتى تحرم من رجل أنا واثقة أنها أحبته، هو أيضًا أحبها ما ذنبه فى أن يحرم من امرأة أحبها ... ومن قال أنهما عاشا محرومين من بعضهما ... أن أفترض الحرمان لا يعنى أنه كان موجودًا.

أسأل لأننى ابنة تجربة الحرمان ابنة محرقة جوع وعطش الجسد، سوف أسأل وسوف تجيب خالتى ملك عن الحكاية الأهم والتى لم أجمع أجزاء الصورة فيها حتى أراها وأفهمها.

لن أنسى أن أسألها عن تفاصيل الحادثة التى نشرت فى الصحف، التى اتهم فيها أحد أبناء خالتى روحية الثمانية باغتصاب طفلة حتى الموت.

سأقضى يومًا كاملاً مع «خالد» ابن خالى فى صومعته، الصومعة حجرة وصالة فى الدور الأول فى بيتهم، هو الذى أطلق عليها «صومعة». ولد خالد



fb/mashro3pdf

مع أحمد ابن خالتى ملك فى نفس الشهر حملته على كتفى وأنمته فى حجري، وأمسكت بيده كما كنت أمسك بيد أحمد، لأعبر بهما الشارع حتى باب المدرسة.

اختار خالد الدراسة فى كلية الفنون الجميلة، رغم أن مجموعه كان يؤهله لدخول كلية الهندسة، واختار أن يعمل مدرس رسم فى المدرسة الابتدائية التى تعلم فيها.

وفى الصومعة اختار أن يعلم تلامذته الرسم، وعزف الموسيقى، وكتابة الشعر والمسرح، فى آخر لقاء بيننا عرفنى على فريق التمثيل الذى كونه من تلاميذه وتلميذاته الكبار والصغار.

سألته: «هل أنت سعيد وراض؟» أجاب: «سعيد وممتلئ، ومؤمن بما أفعل، كل يوم بيتولد بين يدى عصافير ملونة، أراها فى رسماية طفل، وقصيدة شعر حتى لو كانت غير مكتملة، وقصة حتى لو كانت ضعيفة، وبنات وأولاد، يطلقون الغناء عشقًا ... انتظرى لتحضرى معنا بروفة المسرحية التى سنعرضها فى المدرسة».

لم أحضر بروفة المسرحية، ولكننى سوف أنتظر فى البلد حتى موعد عرضها.

وأنا أخرج ملابسى، انتبهت إلى أن حقائب جهازى مازالت موجودة فوق الدولاب وتحت السرير، بما فيها من ملابس وأقمشة وعتة.

تنفست بعمق وأنا أنزلها من فوق الدولاب، وأسحبها من تحت السرير، لقد تأخر كثيرًا تخلصى منها، سوف أحملها، لألقى بها فى النار المشتعلة



fb/mashro3pdf

فى المصلحة قبل أن تنطفئ، وبعد أن تنطفئ النيران أعرف أننى سأتنفس بعمق، وسأدير ظهرى وأسير فى طريقى، لأبدأ فى جمع أجزاء الحكايات التى لم تكتمل كل أجزائها بعد.

fb/mashro3pdf

رقم الإيداع
٢٠٠٨/٢٤١٨٠
I.S.B.N
977-07-1329-5

fb/mashro3pdf

## الكاتبة

- من مواليد محافظة الشرقية، مركز كفر صقر، عام ١٩٥٤ .
- خريجة كلية الآداب جامعة عين شمس قسم الفلسفة.
- إحدى قيادات الحركة الطلابية فى الجامعات المصرية فى السبعينيات.
- صحفية بجريدة الأهالى المصرية.

صدرت لها أربع روايات:

- رائحة اللحظات ١٩٩٢ - دار الثقافة الجديدة.
- أجنحة المكان ١٩٩٥ - دار الثقافة الجديدة.
- مرايا الروح ١٩٩٧ - دار الثقافة الجديدة.
- البيت ١٩٩٩ - دار الثقافة الجديدة (طبعة أولى) مكتبة الأسرة (طبعة ثانية).

**بهيجة حسين**

## الرواية

وأنا أدفع بحقيبة جهازى أسفل السرير بجوار بقية الحقائب، ظهروا كالأطياف أمامى هؤلاء الذين عشت أسمع حكاياتهم وأسير خلفهم كأننى أسير خلف نداهة، عشت أسمع أصواتهم داخلى، أقبض على ملامحهم حتى لا تفلت منى أو تنمحى من ذاكرتى سواء من رأيتهم أو من رسمت وجوههم من خلال الحكايات التى سمعتها عنهم.

ملأوا فراغ البيت، بتفاصيل حياتهم، ووضعوا أمامى مصائرهم، فى حكايات أشعر أننى عشتها منذ اللحظة التى وضعتنى فيها الداية بين يدى خالتى «ملك» ابنة خالة أمى وصديقتها الأقرب إلى قلبها.

fb/mashro3pdf